

روايات تاريخ الإسلام

فتح الانبياء

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. محمود علي مكي



١٩٨٤

تصدر من مؤسسة

دار الهلال

أسسها جرجي زيدان

سنة ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة

معكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة
الرسنان

جمال كامل

<http://nj180degree.com>

روايات تاريخ الإسلام

فتح الانبياء

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. محمود علي مكي



١٩٨٤

تصدر من مؤسسة

دار الهلال

أسسها جرجي زيدان

سنة ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة

معكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة
الرسنان

جمال كامل

رقم الايداع : ٤٣٦٤ / ٨٤
الترقيم الدولي : ٥-٨٣-١١٨-٩٧٧

مقدمة

● منذ أن قام العرب بتلك الملحمة الرائعة التي تتمثل في فتح الاندلس على يد طارق بن زياد في رمضان سنة ٩٢ (يولية سنة ٧١١) أصبح حديث هذا الفتح موضوعا لا تكف عن الخوض فيه اقلام المؤرخين المحققين ويحيطه الخيال الشعبي بهالات من الاساطير والاحاديث الخرافية التي تجرى على السنة القصاص ، سواء في العالم العربي أو في بلاد الغرب . وقد علق على ذلك مؤلف أندلسي قديم هو لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦/١٣٧٤) اذ يقول :

« وحديث الفتح ، وما من الله به على الاسلام من المنح ، واخبار ما آفاه الله به من الخير على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ، مملول قصاص واوراق ، وحديث أفول واشراق ، وارعاد وابراق ، وعظم امتشاش ، وآلة معلقة في دكان قشاش » .

هذا ما كتبه ابن الخطيب الغرناطي منذ أكثر من ستة قرون . ومع ذلك فإن أقلام الكتاب وأخيلة الرواة لم تمل ذلك الحديث ، ولم تكف حتى اليوم عن ترديده بصورة متنوعة بقدر تنوع أهواء أصحابها وأمزجتهم واتجاهاتهم القومية أو الدينية ، ومدى علمهم بملايسات ذلك وأحواله وأحداثه .

وقد عاد المثقفون العرب في عصر النهضة الحديثة الى الاهتمام باستعادة أحداث فتح الاندلس ، وذلك في جملة عنايتهم بتراثنا القديم ، اذ كان في ذلك تاصيل لمشاعرنا القومية ، وتذكير للامة

العربية الاسلامية بصفحة مشرقة من ماضيها المجيد . وقد بدأ ذلك الاهتمام منذ أواخر عهد الخديو اسماعيل ، حينما اقبل المثقفون المصريون على نشر أمهات كتب التراث ، وكان ذلك جزءا من برنامج العمل الوطنى الذى اضطلع به عدد من اعلام مصر كانوا يهدفون الى انماء وعينا القومى المتلهف الى ثقافة عربية جيدة تقف امام تيار الثقافة العربية الوافدة . وعلينا أن ننوه بالدور العظيم الذى قامت به فى نشر أمهات كتب التراث التاريخى والادبى القديم مطبعة بولاق وجمعية المعارف التى تأسست سنة ١٨٦٨ .

وقد كان للاندلس وتاريخها وأدبها نصيب من هذه العناية بالتراث القديم ، اذ كان بين أمهات الكتب التراثية التى بودر بنشرها ما تضمن كثيرا من أخبار ذلك « الفردوس المفقود » فى سياق التاريخ العام للإسلام ، مثل تاريخ ابن الاثير وتاريخ ابن خلدون والعقد الفريد لابن عبد ربه . وكان من بينها مصادر خلصت للتراث الاندلسى بصفة خاصة ، مثل « نفح الطيب » للمقرئ (طبع فى بولاق سنة ١٨٦٣) وقلائد العقيان للفتح بن خاقان (بولاق ١٨٦٦) وديوان ابن خفاجة (جمعية المعارف ١٨٧٠) .

وكان فى ذلك مادة طيبة استوحاها المؤلفون والكتاب فى كتاباتهم عن الاندلس خلال أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . ويهمنا فى هذا المقام أن نشير بصفة خاصة الى تأثير هذه المادة على المؤلفات الروائية والمسرحية . وهى فنون كانت فى ذلك الوقت مستحدثة ولدت من خلال احتكاك الثقافة العربية بالثقافة الغربية عن طريق المبعوثين المصريين الى بلاد أوروبا ، أو الكتب المترجمة عن الفكر الأوروبى .

أما في المسرح فقد حاول بعض المؤلفين المصريين ربط هذا الفن الجديد بتراثنا العربي القديم ، فاستلهموا منه موضوعات لرواياتهم ومن أول هؤلاء الكاتب ابراهيم رمزي الذي ألف في سنة ١٨٩٣ مسرحية بعنوان « المعتمد بن عباد » تصور فيها حياة هذا الملك الاندلسي الذي كان يحكم أشبيلية في عصر ملوك الطوائف ، ومأساة خلعه ونفيه . ومن الطريف أن الزعيم الوطني الكبير مصطفى كامل شارك أيضا في هذا الميدان برواية كتبها عن « فتح الاندلس » ، وضمنها ما يتفق مع فكره السياسي القومي من خلال الخطب والانشيد الحماسية ، متخذًا منها وسيلة لمهاجمة الاستعمار والاحتلال ، وهكذا وظف أحداث الفتح العربي للاندلس في سبيل الدفاع عن قضية مصر الوطنية . حتى المسرح الغنائي الذي كان له جمهوره الكبير في أواخر القرن الماضي لم يهمل الالتفات الى الاندلس فرأينا الشيخ سلامة حجازي يعرض منذ سنة ١٩٠٥ روايات تاريخية غنائية من بينها رواية « غانية الاندلس » .

وأما الفن الروائي فقد كان يخطو أيضا أولى خطواته ، وقد تعددت اتجاهاته بين قصص يستوحى التراث العربي القديم وقصص يتخذ القالب الاوربي الغربي في بنائه . وكان النوع الاول اسبق في الظهور . وأما النوع الثاني فانه يمكن تحديد ميلاده بظهور رواية « زينب » التي ألفها الدكتور محمد حسين هيكل في باريس أثناء دراسته فيها سنة ١٩١٠ ونشرها سنة ١٩١٢ .

وأما النوع الثاني الذي كان مرتبطا بالتراث القديم فقد تفرع الى اتجاهين : الاتجاه الاول تأثر بذلك الفن القصصي العربي القديم

وهو فن المقامة ، وصاحب هذا الاتجاه هو محمد المويلحي صاحب ((حديث عيسى بن هشام)) ، وكان ينشره في صورة مقالات منذ السنوات الاولى للقرن العشرين ، ثم جمعه في كتاب سنة ١٩٠٧ . والحقيقة هي ان هذا الاثر - كما يقول الروائي الناقد الجليل يحيى حقي - لم يكن مجرد مجموعة من الفصول حاكي بها المؤلف مقامات بديع الزمان أو الحريري ، وانما كان ((فنطرة تصل بين الشكل في الماضي وبين موضوع اليوم الى وصف المجتمع القائم)) فهو يتخذ شكل المقامة في البناء العام والاسلوب المسجوع الذي يعنى بالمحسنات اللفظية وايقاع النغم ، ولكنه يتناول موضوعا عصريا ، اذ هو يستهدف نقد مجتمع عصره بأسلوب فكه خفيف الظل .

والاتجاه الثاني هو الرواية التاريخية التي كان رائدها جورجى زيدان ، وهو على النقيض تماما من سابقه . فهو ترائى في موضوعه عصرى في شكله واسلوبه . ونعنى بتراثية موضوعه أنه يستوحى مادته من التاريخ العربى القديم ، وبعصرية شكله واسلوبه أنه لا يلتزم بالسجع ، ولا يقلد أساليب الكتاب القلماء ، وانما يمضى نثره بسيطا مرسلا في غير تكلف . وهو على الرغم من اوتباطه بالماضى اقرب الى التأثير في روحه بذلك النوع من القصص التاريخى الذى عالجه الروائيون الغربيون من امثال الاسكوتلندى والتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) والفرنسى اليكسندر ديماس الاب (١٨٠٢ - ١٨٧٠) .

ولد جورجى زيدان في بيروت في ١٢ ديسمبر ١٨٦١ ، وهاجر الى مصر فاستقر بالقاهرة في اكتوبر ١٨٨٣ ، وهو فى الثانية

والعشرين من عمره . فكان في ذلك مقتنيا خطا الكثيرين من المهاجرين من بلاد الشام ممن كان لهم بمصر فضل عظيم على الصحافة والادب وكان قد تلقى تعليمه الابتدائي وجانباً من تعليمه الثانوي في بيروت الا أنه لم يصبر على الدراسة المنتظمة ، فترك معاهد الدرس وأقبل على القراءة ، حتى أصبح من ذلك الجيل العظيم من اعلام الثقافة الذين علموا انفسهم بانفسهم . وفي مصر عمل بالصحافة ، واقتضاه ذلك اتقان الفرنسية والانجليزية . ومع الصحافة اشتغل بالتأليف والترجمة متزودا بزيادة ثرى من المعرفة . وعلى الرغم من أن وصوله الى مصر كان في تلك السنوات التي بدأ فيها الاحتلال البريطاني فان الجو الفكرى فيها كان على درجة عالية من الخصوبة والرقى . ولم يستطع الاحتلال أن يخمد صوت المثقفين المصريين الا سنوات قليلة في مستهل عهده ، ثم عادت الصحف الى سابق عهدها من النشاط والتنوع ، ولا سيما منذ ولى السلطة الخديو عباس حلمي في سنة ١٨٩٢ .

وأقبل جورجى زيدان على الاستزادة من الثقافة الاوربية منذ قدومه الى مصر ، فاتقن الانجليزية ، ولهذا فقد اختير لمرافقة الحملة الى السودان سنة ١٨٨٤ . وفي السنة التالية سافر الى بيروت فانتدب . عضوا في المجمع العلمى الشرقى ، وانتهاز الفرصة ، فتعلم اللغتين العبرية والسريانية مدة عشرة أشهر . وفي صيف سنة ١٨٨٦ ذهب الى لندن وقضى فيها فترة عاد بعدها الى مصر ليواصل عمله فى الصحافة ، فكان يكتب فى مجلة « المقتطف » حتى سنة ١٨٨٨ ، وفى سنة ١٨٩١ أسس مجلة « الهلال » التى لم تنقطع عن الصدور حتى اليوم ، وهى بذلك أطول المجلات الثقافية عمرا فى مصر .

ولم تشغل الصحافة جورجى زيدان عن التأليف منذ مستهل حياته . فكان أول كتاب أخرجه فى فقه اللغة العربية ، ولكنه اتجه بعد ذلك الى التاريخ ، فأخرج بين سنتى ١٨٨٨ و ١٨٨٩ « تاريخ مصر الحديث » فى مجلدين ، و « تاريخ الماسونية » و « التاريخ العام » وهو موجز لتاريخ قارتى آسيا وأفريقيا . ومنذ تأسيسه لمجلة « الهلال » ازداد اهتمامه بالموضوعات التاريخية ، فنشر فيها دراسات عديدة من أبرزها السلسلة التى كتبها فى تراجم مشاهير الشرق . على أنه كان خلال هذه السنوات يرى أن يحجب الجمهور العريض فى قراءة التاريخ ، ويقرب اليه هذه الدراسات التى قد لا تهم الا قلة من المتخصصين . وحينئذ اهتدى الى تلك الصيغة التى كانت جديدة على القارئ العربى ، وهى « الرواية التاريخية » وكان جورجى زيدان على وعى تام بذلك . وقد عبر عنه فى مقدمة الطبعة الاولى من كتابه « تاريخ التملن الاسلامى » الصادر فى سنة ١٩١٠ اذ يقول :

« لا مشاحة فى أن تاريخ الاسلام من أهم التواريخ العامة لانه يتضمن تاريخ العالم المتملن فى العصور الوسطى ، او هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، فيه انتهى التملن القديم ، ومنه أشرق التملن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ أعوام ، وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ، ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتأليف مطسول فيه . وقد أعلننا عزمنا على ذلك غير مرة ، ولا نزال على هذا العزم بعون الله .

ونظرا لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم

ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم - لانه تاريخ لسانهم وامتهم
وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم - ما فتشنا نختلس
الفرص لنشر ما يسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق
بهذا التاريخ . واخذنا نهىء اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم
وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من
الروايات التاريخية الاسلامية تباعا في « الهلال » ، لان مطالعة
التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء ، وخصوصا في بلادنا ،
والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة . فلا بد لنا من الاحتيال في
نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة . والروايات افضل
وسيلة لهذه الغاية » .

وكان زيدان قد أصدر حتى كتابة هذه السطور في سنة ١٩١٠
ست حلقات من تلك الروايات ، تضمنت وقائع التاريخ الاسلامي
منذ ظهور الاسلام حتى مقتل عبد الله بن الزبير وخلوص الخلافة
لعبد الملك بن مروان . ثم توالى الحلقات بعد ذلك حتى بلغت تسع
عشرة حلقة ، وصل في نهايتها الى ثورة محمد المهدي بالسودان ،
وهي أحداث عاصرها جورجى زيدان وشهد أطرافها منها .

ولم يمنعه التاريخ ولا الرواية التاريخية من مواصلة اهتمامه
بالحضارة الاسلامية وتاريخ الادب العربي ، فأصدر في سنة ١٩١٠
كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » في خمسة أجزاء . وفي سنة
١٩١١ أصدر كتابه الكبير « تاريخ آداب اللغة العربية » في أربعة
أجزاء .

وكانت وفاة جورجى زيدان بعد هذا العمل الشؤوب في ٢٢ يولية

سنة ١٩١٤ وهو فوق الخمسين بقليل ، وهو عمر قصير بالقياس الى ما خلفه هذا الكاتب العظيم من ثروة فى مختلف ضروب الدراسات اللغوية والادبية والتاريخية .

كان جورجى زيدان رائدا فى الادب كما كان رائدا فى التاريخ ، فهو اول من اتجه الى هذا اللون من الكتابة القصصية التى تمزج بين هذين اللونين . وقد رأينا انه « غطى » التاريخ الاسلامى كله برواياته منذ العصر الجاهلى حتى أيامه . هذا هو امتداد كتاباته الروائية فى الزمان ، أما فى المكان فانه لم يدع مصرا من الامصار الاسلامية شرقا او غربا الا وكان لقلمه منه نصيب . وقد اختص الجناح الغربى من عالم الاسلام بثلاث روايات أولها « فتاة القيروان » ثم « فتح الاندلس أو طارق بن زياد » وهى موضوع هذا الحديث ، وأخيرا « عبد الرحمن الناصر » وفيه يتناول الفترة الطويلة التى حكم الاندلس فيها أعظم من جادت به هذه البلاد من رجال الدولة ، وهو الخليفة العظيم عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله (حكم بين سنتى ٣٠٠ و ٣٥٠ هـ) .

وسيقصر حديثنا هنا على رواية « فتح الاندلس » التى يضع المؤلف تحت عنوانها عنوانا فرعيا يقول فيه معرفا بها « رواية تاريخية تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامى ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط » .

وعلى الرغم من أن طارق بن زياد هو البطل الذى حملت الرواية اسمه فأننا نرى من تتبع أحداثها أن البطولة الحقيقية انما هى من

نصيب « فلورندا » ابنة الكونت يوليان حاكم سبتة ، وهي خطيبة الفونس بن غيطشة الذى كان أبوه ملكا على القوط ، وكان الفونس ولى عهده المرشح للملك من بعده لولا أن رودريك اختلس الملك بعد وفاة غيطشة ، وتمكن من الصعود الى العرش . وكان الاساقفة هم الذين نصبوه ملكا خدمة لروما . فقد كان معظم رجال الدين من الرومان الذين كانوا يكونون للقوط كراهية شديدة ، ولهذا فقد كانت احزاب المملكة معادية لرودريك المقتصب للعرش ، ومن بينهم القوط واليهود الذين كانوا يعانون من قسوة اضطهاد الرومان ثم القوطيين لهم حتى ولى الملك غيطشة ، فشملمهم بسياسته الرحيمة المتسامحة . وهذا هو السبب الذى جعل الاساقفة الرومان يتحلون لعزله او قتله .

اما فلورندا فقد كان ابوها قد بعث بها الى بلاط الملك الجديد رودريك فى طليطة على عادة النبلاء وحكام الولايات فى ارسال ابنائهم وبناتهم الى البلاط الملكى حتى يتربوا فى كتفه ، على أن رودريك لم يكد يرى الفتاة حتى استشاره جمالها ، فهام بها ، ونقلها الى القصر الصغير الملحق بقصره ، وشرع يعمل على مراودتها عن نفسها مغريا اياها بترك خطيبها الفونس الذى ضاعت آماله فى الملك والسلطان بعد وفاة أبيه واعتلاء رودريك على العرش . غير أن الفتاة تقاوم وتتمسك باخلاصها للامير الشاب . وكان لالفونس عم انخرط فى سلك رجال الدين هو اوباس (عباس) يعمل على اعانة ابن اخيه فى انقاذ فلورندا من براثن الملك الشهوانى القاسى رودريك فيدبر حيلة لهروب الفتاة من قصر الملك . ويقتحم عليه مخدعه وهو يراود فلورندا فيؤبىه على ما ينوى ارتكابه . ويثور غضب رودريك

لذلك ويعزم على الايقاع بأوباس ، ويشجعه على ذلك أسقف روماني يكن الكراهية والحسد لأوباس يسعى « مرتين » حينما يعود الى حيث ترك فلورندا يتبين أنها استطاعت الهرب من القصر . ويقبض الملك على أوباس عم الفونس ويقدم للمحاكمة أمام مجمع كنسي بتهمة التحريض على الثورة ضد الملك . على أن أوباس يواجه الملك بالتهريض بما كان يهم من جريمة انتهاك عرض الفتاة التي آواها في قصره . ويرى مرتين مستشار رودريك أن ينهى جلسة المحاكمة حتى لا يكشف أوباس عن مزيد من التفاصيل ، ويؤجل المحاكمة الى جلسة أخرى ، ويأمر بإبعاد أوباس في السجن حتى تعقد تلك الجلسة . .

أما الفونس فيعمل الملك على إبعاده عن طليطلة ، ويبعث اليه بكتاب يأمره فيه أن يتوجه الى مدينة استجة (بين قرطبة واشبيلية) على رأس فرقة من الجيش وينتظر في قلعتها ما سوف يأتيه من أوامر . ويصدق الفونس بالأمر ويرافقه في هذه الرحلة يعقوب وهو خادم ومستشار ثقة لعمه الأسقف أوباس . وفي أثناء الرحلة يطلع الفونس على ما يعانيه عامة الشعب من الظلم والاضطهاد على أيدي رجال الملك رودريك، كما يتبين له جو التدمير الذي يعيشه الارقاء والمستضعفون من أفراد الطائفة اليهودية . وفي استجة يقود يعقوب سيده الفونس الى اجتماع غريب في قبو تحت الارض مع قوم ملثمين ، وإذا به يكتشف أن المجتمعين في ذلك القبو من اليهود الذين كانوا يتآمرون لخلع رودريك والثورة عليه وتنصيب الفونس ملكا شرعيا على البلاد . ويكتشف الفونس أن يعقوب خادم عمه أوباس ليس الا واحدا من زعماء الطائفة اليهودية تظاهر بالنصرانية والتحق بخدمة أوباس حتى يدبر أمر الثورة . وفي أثناء الاجتماع يقدم تاجر يهودي يدعى سليمان

قادم من سبته على الساحل الافريقى ، وهو يبلغ المتأمرين بخبر كان له عليهم وقع المفاجأة : ان « أبناء اسماعيل » - أى العرب - وهم « أبناء عمومة اليهود » قد قلبوا العالم بأسره وقد مدوا سلطانهم على العراق والشام وفارس وخراسان ثم فتحوا مصر ومدوا سلطانهم الى الشمال الافريقى بأسره ، وانهم يعاملون الشعوب التى دانت لهم بالتسامح والرفق بما لم يعرفوه من قبل ويحررون اليهود من الرق الذى طالما عانوه تحت ربقة المسيحيين • ويبتهج اليهود لذلك الخبر ويقررون مساعدة العرب على فتح اسبانيا • ويروى سليمان انه كان فى مجلس يوليان حاكم سبته الذى كان يدين بالولاء لرودرىك خرسا على ابنته التى كانت تعيش فى قصر الملك القوطى، ولكن يوليان تلقى وسليمان عنده رقعة من ابنته تروى فيه محاولة اعتداء الملك عليها ، وانها قد هربت من قصره قبل ان يتمكن الاعتداء على شرفها ، وتحته على استنقاذها من برائن ذلك الوحش الكريه • ويقص سليمان على الحاضرين ان يوليان يقرر منذ هذه اللحظة اسلام بلده للعرب وتحريضهم على فتح اسبانيا • ويشغل قلب الفونس بخبر خطيئته الهاربة من رودرىك ويستقر عزمه على الانضمام ليوليان فى تهيئته لامر دخول العرب الى الاندلس •

ويعبر طارق بن زيادة على رأس جيشه بحر المجاز من سبته الى الاندلس بمعونة يوليان ، ويرحب به أهل البلاد لما خبروه من عدل المسلمين واحترامهم للعهود • ويرافق طارقا فى حملته شاب يعنى بدرا - وهو قوطى الاصل - كان قد أسر وهو صبي صغير قرباه زياد ابو طارق ، وشب بين البربر وكان طارق يعده بمثابة أخيه وذراعه

اليمنى فى قيادة الجيش • ويصل جيش طارق الى شريش • اما فلورندا فانها تهرب من قصر رودريك بمعونة خادمين مخلصين لاسقف اوباس ويرافقها هذان الخادمان الى دير فى الجبل يراسه - الاب سوجيوس - صديق قديم لاسقف ، فيؤويها ويحسن الحفاوة بها • ويكون أحد هذين الخادمين هو رسول الفتاة الى ابيها فى سبتة وهو الذى يبلغه نبأ ابنته وهروبها من قصر الملك وحينما يعود هذا الخادم الى الدير يحمل اليها خبر عزم ابيها على ادخال العرب الى الاندلس • ويعلم الاب سرجيوس بذلك فيبتهج له لكراهيته لرودريك وسخطه عليه • ويقرر الذهاب الى طليطلة حتى يزور اوباس فى سجنه ليبشره بقرب خلاصه على ايدى العرب القادمين • ولكن اوباس لا يكاد يعلم بذلك حتى يصدر عنه رد فعل غير منتظر ، اذ يؤنب سرجيوس على ابتهاجه بدخول المسلمين الى البلاد • فما كان من المروعة فى نظره أن يساعد أسقف مسيحي هؤلاء الغرباء عن وطنه ودينه على رودريك حتى وان كان رودريك هو العدو اللدود له ولابن أخيه الفونس • ويقرر اوباس اخلاص النصيح لرودريك فى مقاومته للمسلمين ويشترك معه فى قيادة الجيش المتوجه للقائهم ، بل ويكتب الى ابن أخيه الفونس يدعوه الى التخلي عن يوليان واصدقائه المسلمين والانضمام الى رودريك والقتال فى صفوفه والا فان المسلمين سوف يزيلون دولة القوط ويمحون ديانة المسيح من اسبانيا •

ويلتقى جيشا رودريك وطارق فى وادى ليتة ، ويرى الفونس نفسه بين نارين : فعنه الآن مناصر لعدوه السابق رودريك ويوليان والد فلورندا حليف لطارق وهو حريص على خطيبته ، كاره لرودريك يتمنى زوال ملكه ولن يتم ذلك الا بمناصرة العرب • وأخيرا يستقر

عزمه على متابعة عمه والانضمام الى صفوف رودريك . غير انه تاتيه - في هذه اللحظة - رسالة من فلورندا تدعوه للانضمام الى ابيها وتحثه على قتال الطاغية الذي حاول هتك شرفها . فتفعل به هذه الرسالة فعل السحر ، اذ يعدل عن قراره الاول ويصمم على القتال في صف المسلمين ، وتكون فلورندا في ذلك الوقت قد وصلت الى ميدان القتال وتدور المعركة الهائلة بين طارق ورودريك وتنتهي بهزيمة ساحقة للقوط ويموت رودريك غريقا في النهر وتقع فلورندا اسيرة في يد بدر صاحب طارق ، فيطالب بأن تكون ملكا له ، ولكن التاجر اليهودي سليمان يلقي على الجميع بخبر يكون مفاجاة للجميع ان بدرا هذا ليس الا ابنا ليوليان كان قد سرقه وهو طفل انتقاما لما كان يصبه من اضطهاد على اليهود وحمله الى بلاد البربر وباعه لاحد كهنتهم فسلمه هذا الكاهن لزياد والد طارق ورباه مع ابنائه حتى كبر فهو اذن أخ لفلورندا . ويعجب الجميع لهذه القصة وتنتهي الرواية باتمام طارق لفتح الاندلس وبزواج الفونس من فلورندا .

الرواية كما نرى تقص حدثا تاريخيا جليلا ولكن المؤلف لا يلتزم بتفاصيل الاحداث التاريخية وانما يضيف اليها الكثير من صنع خياله . وليس بهذا بأس ، اذ هو شأن كل رواية تاريخية . وما كان لاحد ان يطالب المؤلف الروائي بما يطالب به المؤرخ . وقد احاطت بفتح العرب للاندلس اساطير كثيرة ترددت في اوساط المسلمين والمسيحيين على حد سواء . وكان من أبرزها قصة بنت يوليان حاكم سبتة التي تذكر المصادر العربية ان اباها كان قد أرسلها الى قصر لدريق (وهذا هو اسم رودريك عند العرب) حتى تتأدب بادب بنات الملوك ولكن الملك القوطي أستهم بها فانتهاك شرفها ، وكتبت هي

الى أبيها بخبرها فاحفظه ذلك على الدريق ودفعه الى التفكير فى الانتقام وهكذا راسل طارقا واخذ يزين له فتح الاندلس ويحرضه حتى وفق لما أراد ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب فى الاندلس . وهكذا أصبحت هذه الفتاة التى لم تعرف لها المصادر العربية اسما وعرفها القصص الاسباني باسم فلورندا هى السبب الاول فى فتح الاندلس .

وغنى عن البيان أن هذه القصة قد تكون فى مجملها صحيحة وقد تكون من اختراع خيال القصاص ، ولكنها لا تصلح لتفسير فتح الاندلس فقد كان ذلك أمرا محتوما بعد أن أستولى المسلمون على الشمال الافريقى كله .

ومع ذلك فقد رددت المصادر العربية هذه القصة ، وعننا نقله الاسبان ، وأصبحت فلورندا (أو لا كافا كما سميت عندهم أيضا) محورا لكثير من القصائد الملحمية الشعبية الاسبانية ومن أهمها « قصيدة الدريق آخر ملوك القوط Elul Timo ReyGodar » واستلهم منها كثير من شعراء الاسبان ومؤلفيهم المسرحيين على طول العصور وحتى اليوم عددا لا يكاد يحصى من الآثار الادبية .

على أن الذى نود بيانه هنا هو أن جرجى زيدان لم يتابع الروايات العربية ولا الاسبانية فى هذه القصة . فكلها يجمع على أن الدريق انتهك شرف الفتاة فعلا ، ولكن فى رواية جرجى زيدان هم ولم يفعل . ولسنا ندرى لماذا قام المؤلف بهذا التغيير فقد كان اعتداء الدريق على الفتاة أكثر ملاءمة لماساوية القصة ولما من شأنه أن يستثير احساسيس الشفقة والعطف على الفتاة والسخط على مرتكب هذه الجريمة . .

وقد أضاف جرجى زيدان الى القصة تفاصيل فيها كثير من الافتعال مما شنت فكر القارئ وابعده عن المحور الرئيسى للرواية وجعلها أشبه بقصص المغامرات التى تعتمد على المفاجأة المسرحية مثل قصة بلر الذى أسر فلورندا واراد أن يتخذها جارية أو زوجة له ثم تبين فى النهاية أنها ليست إلا اخته . وكذلك اقحامه لقصة المؤامرة اليهودية التى أصبحت هى العامل الرئيسى فى انتصار طارق بن زياد وقد اعتمد المؤلف حقا فى ذلك على الروايات العربية التى ذكرت ترحيب اليهود بالفتح الاسلامى ومعاونتهم للمسلمين فى اول الامر . ولكن اليهود كانوا من القلة بحيث لم يؤد تأييدهم للعرب عن كونه عاملا ثانويا محدود القيمة .

ويلاحظ اخيرا أن جرجى زيدان لم يقدم لنا رواية تاريخية بالمعنى المعروف وانما قدم مزيجا من قصة تتخللها معلومات تاريخية . فهو يتوقف من وقت لوقت لكى يصف لنا كنيسة طليطلة وارتفاعها وعدد أعمدتها أو لشرح لنا سبب التباغض بين الروم والقوط أو ليتكلم عن المجامع الدينية فى اسبانيا وكونها على ثلاث درجات وعن الجند الاسبان فى عهد القوط وأنواع فرقهم الى غير ذلك مما احتاج معه المؤلف الى أن يضع حواشى عديدة لما يشرحه من معلومات مشيرا الى مصادرها فى الكتب القديمة أو دراسات المؤرخين الغربيين وكأنه لم ينس مهنته بصفته مؤرخا .

وأخيرا نرى أن طارق بن زياد الذى يفترض انه بطل الرواية لا يكاد يظهر فى الاحداث الا بعد انقضاء أكثر من نصفها . واغلب صفحاتها يدور حول اسبانيا القوطية ومجامعها الكنسية وعلاقة الحب بين

فلورنسا والفونس حتى اننا لا نرى الحديث عن فتح العرب للاندلس
الا في عدة صفحات في آخر الرواية .

على أن جرجى زيدان قد أجمل خصائص الفتح العربى لاسبانيا
والبح في كثير من مواضع الرواية على ما تميز به هذا الفتح الاسلامى
من تسامح ورفق بالشعوب ونبيل فى الحفاظ على العهود ومروءة فى
مناصرة الضعفاء والمظلومين . وهو يكرر ذلك على السنة كثير من
شخصيات الرواية من قوطيين ويهود ورجال دين . وهذه محمودة تذكر
للمؤلف لا سيما اذا ذكرنا أنه مسيحى الديانة .

ومع ذلك فان هذه الملاحظات لا تنال من قيمة هذا العمل الذى كان
هدف المؤلف منه على ما يبدو لا امتاع القارئ فحسب بل اعطائه قدرا
من المعلومات التاريخية اخذها عن عديد من المصادر والمراجع .
والحقيقة أن جرجى زيدان كان يقصد الى ذلك قصدا على حد اعترافه
فى تقديمه لكتاب تاريخ التمدن الاسلامى كما سبق أن آوردنا .

وأخيرا فعلىنا أن نبرز مرة أخرى دور جرجى زيدان بصفته رائدا
لهذا اللون الجديد من الكتابة . والمبادئ دائما صعبة شاقة لا تؤمن
فيها العشرات . ويكفيه فخرا انه شق طريقا جديدا ، وانتهج فى
كتابته منهجا كان أبا عذرة وفاتح باب ، وعلى دربه سار كثيرون من
الكتاب بعده . ويكفى أن نشير الى نشره المرسى السهل الذى لم تشغله
زينة البديع وزخارف المحسنات . فهذه منة أخرى تذكر له بالفضل
.. أترانا مطالبه بان يفعل أكثر مما فعل ؟!

دكتور محمود على مكي

فتح الأندلس

أو
طارق بن زياد

رواية تاريخية تتضمن تاريخ أسبانيا قبيل
الفتح الإسلامي، ووصف أحوالها، وفتحها على
يد طارق بن زياد، ومقتل رoderik ملك القوط

تأليف

عمر بن زياد

دار المصطفى

أبطال الرواية

؛ ملك القوط	* رودريك
: خطيب فلورندا وابن غيطشة	* الفونس
ملك الاسبان	
: خطيبة الفونس وابنة الكونت	* فلورندا
يوليان حاكم سبتة	
: حاكم سبتة ووالد فلورندا	* الكونت يوليان
: والى طنجة وقائد الحوش	* طارق بن زياد
الاسلامية	
: أحد أتباع الملك رودريك	* الاب مرتين
: عم الفونس	* الميتروبوليت اوباس
: خادم الفونس	* يعقوب
: من أتباع الكونت يوليان	* سليمان
: خالة فلورندا ومريبتها	* بربارة

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* ابن خلكان	* تاريخ اسبانيا لرومي
* ابن الاثير	* دائرة المعارف البريطانية
* نفع الطيب	* رومي
* التقويم العام	* كيزو - تاريخ تمدن اوربا
* علم الفراسة الحديث	* دوزي
* جين - تاريخ المملكة الرومانية	* تاريخ التمدن الاسلامي
	* مونتسكيو

- ٩ -

الأندلس والقوط وطيطة

الأندلس احدى مقاطعات اسبانيا ، واسمها في الأصل « وندلوسيا » نسبة الى الوندال أو الفندال ، وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان.. فلما فتحها العرب سمّوها الأندلس، ثم أطلقوا هذا الاسم على اسبانيا كلها وكانت اسبانيا في جملة مملكة الرومان الغربية الى القرن الخامس للميلاد ، فسطا عليها القوط ، وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من اعالي الهند الى اوربا طلبا للمرعى والمعاش ، واقاموا في بوادي اوربا ، كما اقام العرب في بوادي الشام والعراق . ثم سطا القوم على مملكة الرومان الغربية قبل سطو العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون ، وأنشأوا الممالك في فرنسا وألمانيا وانجلترا وغيرها ، وهي الدول الباقية في أوربا الى الآن ..

وكان في جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين « فيسيقوط » سطوا على اسبانيا في القرن الخامس وفصلوها عن الرومانين ، وأنشأوا فيها دولة « قوطية » انتهت بالفتح الاسلامي سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) على يد طارق بن زياد القائد البربري الشهير

وكانت عاصمة مملكة القوط في أسبانيا في ذلك الوقت مدينة « طليطلة » على ضفاف نهر التاج في أواسط اسبانيا . وكانت طليطلة في ذلك العهد مدينة عامرة فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والأديرة . وكانت مركز الدين والسياسة ، وفيها يجتمع مجمع الأساقفة كل عام ينظر في الأمور العامة

وكان ملك الأسبان عام الفتح الملك « رودريك » والعرب يسمونه « لذريق » وهو قوطي الأصل تولى الملك سنة ٧٠٩ م ، ولم يكن من العائلة المالكة ، ولكنه اختلس الملك اختلاسا ، وترك أبناء الملك السابقين ناقلين عليه . وكلنت اسبانيا تنقسم يومئذ الى ولايات أو دوقيات ، يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى « الدوق » أو « الكونت » ويرجعون في أحكامهم جميعا الى الملك المقيم في طليطلة

وطليطلة واقعة على أكمة مؤلفة من أكمت يحيط بها نهر التاج من كل جهاتها ، الا الشمال ، بما يشبه حدوة الفرس تماما . ووراء النهر من الشرق والغرب والجنوب سلسلة جبال تحجب الأفق عن أهل المدينة ، وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب وغابات السنديان والصنوبر . وفي منتصف المدينة ، الكنيسة الكبرى التي جعلها المسلمون بعد الفتح جامعا ، وهي على جانب عظيم من الفخامة والمناعة . وكان الناظر اذا ألقى نظرة على أبنية طليطلة من علو شاهق تبين فيها من ضروب الأبنية مزيجا من الطرز الرومانية والطرز القوطية . وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات

الأخرى مغارس الفاكهة والثمار وسائر أصناف الأشجار ، اذا
أطل الواقف من احدى نوافذ منازلها أشرف عليها جميعا

- ٢ -

فلورندا

وكان فى جملة قصور الملك رودريك قصر فى شرقى المدينة على
أكمة تشرف على ضفاف النهر . ويحديق بالقصر صنوف الأشجار
والرياحين والأزهار على مرتفعات تتخللها مجارى الماء على غير نظام
مما يزيد لها جمالا . ومساحة تلك الحدائق واسعة يحيط بها كلها ،
الا من جهة النهر ، سور حوله الحراس فى منازل بنوها لهم بجانب
أبواب البستان ..

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يؤدى الى القصر
من جهة ، وله باب مستقل يؤدى الى البستان من جهة أخرى .
ناهيك بقصور متفرقة فى جوانب ذلك البستان ، بعضها للحاشية
وبعضها للأمراء . وفى جملتها قصر كبير كان يقيم فيه أولاد الدوقات
والكوتات حكام الولايات ، جريا على العادة المتبعة عند ملوك
القوط فى ذلك الزمان .. فقد كان من عاداتهم أن يجتمع فى بلاطهم
فى طليطلة أبناء ولاتهم المشار اليهم وبناتهم ، يقيمون هناك
ويربون فى البلاط الملكى معا ، يتعارفون ويتعاشرون فيشبهون
على ما يرضاه الملك ويتأدبون فى خدمته ثم يتزوجون (١)

(١) ابن الاثير - الجزء الرابع ، وغيره من مؤرخى العرب

ففى صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد ، كان أهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيد الميلاد ، والناس يتقاطرون الى الكنائس والأديرة وهم يهتفون بعضهم بعضا ، وأكثر الكنائس ازدحاما فى ذلك اليوم الكنيسة الكبرى ، لأن أكبر أساقفة طليطلة يصلّى فيها ، ويحضر القداس الملك رودريك بنفسه ومعه حاشيته وكبار رجال دولته . فغصّت تلك الكنيسة على سعتها وامتلاؤها فناءها وما حواليه من الشوارع والسطوح بالناس على اختلاف الأجناس والأعمار ، تطلعا الى رؤية الملك ومشاهدة موكبه الحافل . ومما زاد الناس شوقا الى رؤيته انه كان لا يزال قريب العهد بالملك ، وقتما رآه أهل طليطلة .. فكيف بأهل البلاد المجاورة . فاغتنموا فرصة ذلك العيد وهرعوا لمشاهدة الرجل الذى اختلس الملك من غيظشه (١) ملكهم السابق ولم تبق امرأة لم تخرج من بيتها .. اذا لم يكن لسماع الصلاة فلمشاهدة موكب الملك رودريك ، الا فتاة من أهل البلاط الملكى اغتنمت فرصة انشغال الملك ورعيته بذلك العيد لتخلو الى نفسها وتفكر فى أمرها . وكانت من جملة بنات الكونتات حكّام الولايات ، تقيم فى القصر الذى يجمعهم جميعا بجوار قصر الملك ، فنقلها الملك منذ بضعة أيام الى القصر الصغير المتصل بقصره . وهو اكرام حسدها عليه كل رفاقها ورفيقاتها ، ولكنه كان سببا كبيرا فى تعاستها وانشغالها

(١) هذا اسمه عند العرب ، اما عند الفرنج فيسمونه Witiza

فلما خرج الملك ورجال دولته وسائر أهل البلاط للاحتفال بالعيد ، اعتذرت هي بانحراف صحتها . وكان ذلك اليوم صحوا زاهيا يندر مثله في فصل الشتاء ، وقد أطلت الشمس من وراء الآكام ، وأرسلت أشعتها على نهر التاج وما على ضفافه من الحدائق ، وفي جملتها حديقة قصر الملك ، فبحرت ما كان على الأوراق والأزهار من الطل . ومثل هذا اليوم يحلو للناس الخروج فيه من المنازل الى البساتين لاستقبال أشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة

فانتهزت الفتاة فرصة غياب الملك وحاشيته ونزلت من القصر ، وتمشّت في طرق تلك الحديقة وقد تذرّت فوق ثيابها برداء من الحرير الأحمر مبطن بالفرو اتقاء للبرد . وقد غطى الرداء كتفها ومعظم جسمها الا ذيل ثوبها الأرجواني المزركش بالقصب ، فانه ظل يتلألأ في أشعة الشمس ويجر من ورائها جرا خفيفا . وأما رأسها فقد كان مكشوبا وعليه شبكة من الحرير الأبيض تضم شعرها الذهبي ضمة واحدة ، وترسله الى ظهرها مستعرضا كأنها خارجة من الحمام ، وتلك عادة الرومان في لباس الشّعر اقتبسها عنهم القوط في تلك العصور . وكان ذلك الشّعر الذهبي يتلألأ من خلال تلك الشبكة ، وخاصة اذا وقعت عليها أشعة الشمس في أثناء مرور الفتاة بين الأشجار . على أن تسربلها بذلك الرداء لم يخف جمال قامتها ورشاقة مشيتها . وأما وجهها فقد كان ممثلا ، ناصع البياض مشربا بحمرة يكاد يشف عما تحته ، وقد زاده

الانحراف والذبول هيبة وجمالا ، وزاد العينين الزرقاوين حدة ومضاء . ولم تكن عيناها زرقاوين تماما ، بل كان فيهما مع الزرقة شيء لا يعبر عنه بغير السّحر .. ولها فم مع صغره لا يبدو الا مبتسما ابتسام الوقار والحشمة ..

سارت الفتاة في الحديقة ومعظم أشجارها عار من الورق ، وأكثر رياحينها خالية من الأزهار كأنها تشارك فئاتنا الذبول والانكسار ، الا الأرض فقد كانت كأنها بساط من العشب الأخضر ، مرصعة ببعض الأزهار التي تتفتح في الشتاء . فمشت الفتاة وهي لا تبالي بما قد يعترض طريقها من الأغصان المدلاة . فربما لطم كتفها غصن ولطم صدرها آخر ورأسها ثالث . وبين يديها امرأة عجوز تحوم حولها وترعى حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها . ولم تكن العجوز أقل منها قلقا ، ولكن الزمان حنكها ومرور الحدثان علمها أن الدنيا لا تدوم على حال

وكانت الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر ، ثم ترسل نظرها من خلال الأشجار الى ما يطل عليه ذلك البستان من الحدائق البعيدة ، وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الأشعة كأنها جبال من الفضة . والفتاة تارة تنزل في واد وطورا تصعد على تل ، والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك ، فتناول الفتاة الزهور والثمار ولا تتكلم ، كأنما قد حكم عليها بالصمت وأصبح الكلام عليها ذبا

وبعد أن سارت برهة انتهت الى أكمة منبسطة تطل على النهر

يكسوها عشب قصير كأنه بساط من الديباج ، وقد تطاير عنه
الندى بوقوع الأشعة عليه ، فراق لفتاتنا الجلوس عليه والتعرض
لأشعة الشمس التماسا للدفع وللتمتع بمنظر السماء الأزرق
الصافي ، فالتفتت الى العجوز وقالت بصوت مخفق لطول
السكوت : « ما قولك يا خالة ؟ ألا نجلس على هذه الأكمة نتمتع
بهذا الطقس الجميل .. ؟ »

فهرعت العجوز وهي تصلح نقابا كانت قد لفتت به رأسها
وأذنيها تجنباً للبرد وقالت : « اجلسي حيثما تشائين يا حبيبتى ! »
ثم أسرعته الى كرسى من خشب كان فى احدى طرق الحديقة
وجاءتها به ، فأبت الجلوس عليه وقالت : « أفضل هذا العشب
فان الجلوس عليه حسن فى هذا اليوم » . فجلست ، وجلست
العجوز بين يديها وهي لا تزال ترقب حركاتها ، وقلبها يحوم
حولها ، وقد سرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة . فجعلت ترغبها
فى امتاع نظرها بما تشرقان عليه من مجرى النهر وما وراءه من
التلال التى تكسوها غابات الصنوبر والزيتون والسنديان ،
ويتخلل الغابات بيوت متفرقة هنا وهناك .. وكان الناظر الى تلك
البقعة ينظر الى لوحة فنية مكبرة . فقالت العجوز : « تأملى
يا فلورندا فى هذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك ، ودعى عنك
الأوهام » ..

وكانت تلك التعزية سببا فى اثارة شجون فلورندا ، فقالت :
« لقد ذكرتني يا خالة بأمر أحاول أن أنساه .. كيف ينشرح

صدرى وأنا أعانى كما تعلمين من الاضطراب والقلق ، وقد
زادنى انشغالا انتقالى الى هذا القصر ... »
فقلت العجوز : « وماذا يخيفك من ذلك الانتقال ، وقد
أصبحت أقرب الى قصر الملك وأعز جانبا .. ؟ »
فقلت فلورندا وهى تتطلع الى أبعد ما يقع عليه بصرها من
مجرى النهر وكأنها ترى قاربا بعيدا : « ان ذلك الانتقال هو
الذى أخافنى .. وياليتته نقلنى الى أطراف المدينة ، بل ياليتته
أرجعنى الى والدى ! » قالت ذلك وشرقت بدموعها ، فانصرفت
عن النظر الى ذلك القارب بما جال فى خاطرها من أمر والدها
وبعندها عنه ووقوعها فى ذلك الخطر

— ٣ —

الفونس

وكانت العجوز خالة أم فلورندا ، وقد احتضنتها منذ طفولتها
وربّتها فى بيت والدها ، حتى آن وقت مجيئها الى بلاط الملك —
على جارى عاداتهم — فكلّفها أبوها أن تكون معها . فقضت فى
عشرتها بضعة عشر عاما ، ولم تكن تزداد الا حبا لها وعطفا عليها
لما قُطرت عليه فلورندا من الجمال واللفظ . ولما رأتها تبكى
انفطر قلبها ، وقالت : « ان الرجوع الى والدك ميسور ، ولكننى
لا أرى بأسا فى بقائك هنا وبخاصة لأجل الفونس .. »

فلما ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت الدهشة على وجه الفتاة ، وكأنها كانت في غفلة ثم أفاقَت — على حين فجأة — فدق قلبها وصعد الدم الى وجهها فزال ذبول لونها . ثم تنهّدت والتفتت الى العجوز ، وقالت : « دعيني من الفونس .. حتى الفونس نفسه ، كان من أسباب شقائي ، وقد كنت كما تعلمين أحسبه سبب سعادتي .. آه .. دعيني أبكي »

فقالت العجوز : « مالى أراك تحسبين الشقاء محيطا بك من كل ناحية ، وأنت من أسعد خلق الله . كيف تقولين ان الفونس من أسباب شقائك وهو خطيبك ، ويتفانى في سبيل رضاك ؟ » قالت فلورندا : « أعلم ذلك وهو الذى يزيد قلقي .. أحبه ويحبني .. ولكن ما الفائدة من هذا الحب ؟ ان الذنب ذنبك يا خالة .. أنت علّقت قلبى به ، وكنت خالية البال ، لا أعرف القلق ... ساحك الله » ..

قالت العجوز : « لم أندم — أبدا — على ما بذلته من الجهد في تقريب قلوبكما لأنكما متفقان خلقا وخلقاً ، وأتما من عائلة واحدة . ولما سعيت في تقرييكما ، كان هو ولى عهد هذه المملكة الواسعة . ولما وفّقت الى ارتباطكما برباط الخطبة حسبت أننى بلغت بك أوج السعادة ، لأن الفونس كان على وشك أن يصير ملكا على أسبانيا كلها .. فتكونين أنت ملكة القوط . ولم يخطر لى على بال أن يحدث ما حدث من الانقلاب ، فيسعى أهل المطامع والأغراض في قتل أبيه ونزع المثلثك منه ليكون لأحد قواده . »

ولما قالت ذلك ، خفّضت من صوتها والتفتت الى ما حولها مخافة أن يسمعها أحد ، ثم عادت الى اتمام حديثها ، فقالت : « فاذا كنت تعتبرين ضياع المثلثك من بين يديه شقاء ، فلا ألومك » فقطعت فلورندا كلام خالتها ، وقالت : « لا ، لا .. ليس ذلك سبب شقائي ، وانما هو انقطاع الفونس عن المجيء الّتى .. ها قد مضت أشهر ولم أشاهده ، وأظننى لن أشاهده بعد أعوام وبخاصة بعد انتقالى الى هذا القصر . أعوذ بالله من هذا الانتقال .. ان قلبى يحدثنى بسوء سيصيبنى منه . ولذا تريننى منذ انتقلت اليه وأنا منحرفة الصحة لا يهنا لى عيش .. »

فقالت المعجوز : « أراك واهمة يا حبيبتى ، فما فى هذا القصر الا ما يدعو للانصراف .. وأما سبب انقباضك فهو شوقك لألفونس ، وهذا لا ألومك عليه ، وان يكن معذورا فى تغيّبه .. لأن الملك يراقب حركاته وسكناته خوفا منه لعلمه بما اختلسه من قبضة يده » ..

وكان القارب الذى وقع نظر فلورندا عليه فى أعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور ، ثم ظهر من بينها — مرة أخرى — على مقربة من حديقة القصر . ولما وقع نظر فلورندا عليه خفق قلبها لأنها رأت فيه الفونس واثنين من رجاله . فلم تعد تعلم ماذا تقول ، واكتفت بالإشارة اليه ، ثم اقترب القارب من الضفة ونزل الفونس الى البر .. وأشار الى الرجلين فنزل أحدهما ومشى فى جهة أخرى ، وظل الثانى فى القارب . وأما الفونس فحين وقع نظره على فلورندا

أسرع اليها وعليه لباس القواد الرسمى وهو عبارة عن : سراويل
مُنتفخة قصيرة مبطنة بالقرو الى الركبة ، وحول صدره درع
مقفل من الأمام وفوقه قباء قصير أرجوانى اللون ، وحول خصره
منطقة من جلد عريضة ، وعلى رأسه قبعة صغيرة لها جناحان من
ريش الطير، ومن تحت القبعة شعره الأسود يسترسل على كتفيه..
وكان الفونس فى العشرين من عمره ، ولم يستطل شعر عارضيه
وشاربه بعد .. وكان أبيض الوجه أسود العينين اذا حدثت فى
عينيه تبيّنت فيهما الحب والوداعة مع النباهة ، ولم تر فيهما شيئا
من المكر. وكان قد تعلّق بحب فلورندا منذ أن كان أبوه على عرش
أسبانيا ، وهو يومئذ ولى عهد المملكة لأنه أكبر اخوته . وكانت
فلورندا تستبعد أن يكون لها يومئذ ، ولكن خالتها العجوز
سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة
عليها .. فنجحت فيما سعت اليه ، وتعلّق الفونس بفلورندا تعلقا
شديدا . وكان يتردد عليها كثيرا ويجالسها كل يوم تقريبا ، ثم
انشغل عنها بعد وفاة والده بما اتّابه من ضياع الآمال . وأصبح
رودريك الملك الجديد، وقد وضع عليه العيون والأرصاد.. فخشى
الفونس أن يجيئ اليها ، ولكنه كان يترقب الفرص لرؤيتها
والسؤال عن أحوالها ، حتى سمع بانتقالها من القصر القديم الى
القصر الملاصق لقصر الملك ، وانها تقيم فيه وحدها فهاجت فيه
عوامل الغيرة ، ولم يعد يستطيع صبرا عن مقابلتها للتمتع برؤيتها
واستطلاع رأيها ، فاذا رآها لا تزال على عهدا أسرع فى عقد

القران ، لأنه كان يظنها قد زهدت فيه بعد خروج المثلثك من بين يديه . واتفق احتفال أهل طليطلة بعيد الميلاد في تلك الأثناء ، وقد خرج الملك في موكبه الى الكنيسة الكبرى ، والفونس في جملة الحاشية وعليه اللباس الرسمي ، فخطر له - وهو في الطريق - أن يتخلف عن الموكب خلسة ويمضى الى فلورندا لأنه كان قد بلغه انحراف صحتها ، فرجَّح أنها لن تخرج الى الصلاة في ذلك اليوم.. ورأى أن يستقل القارب لئلا يراه أحد في أسواق المدينة ، وجاء معه في القارب اثنان من خاصته . فلما نزل الى البر أرسل أحدهما لاستقدام فرسه حتى يعود عليه راكبا الى الموكب قبيل خروج الملك من الصلاة . واستبقى الآخر في القارب لحين الحاجة . أمر خادمه بذلك والتفت ، فوقع بصره على فلورندا ، فاندفع يسرع نحوها وهو يثب وثبا ، والمسافة بينه وبينها نحو مائة متر

— ٤ —

لغة الحب

. أما فلورندا ، فقد اندهشت حين رأت الفونس قادما ، وظهرت البغته في عينيها ، وأسرعت دقات قلبها ، وارتعدت ركبتاها وأرادت أن تقف لتلقاه فلم تستطع من شدة التأثر وامتقع لونها ، وشخصت ببصرها اليه وهي لا تصدق أنها تراه . أما هو فلمّا دنا منها ولم تقف له ولا رحّبت به ، ثبت لديه ما كان يظنه من زهدا فيه .

وبعد أن كان مسرعا بلهفة المشتاق ، تباطأ وندم على مجيئه وتطفله .
ثم ما لبث أن رأى العجوز تهول اليه وهي تتعثر بطرف ثوبها
حتى كادت تقع وهي تقول : « أهلا وسهلا بحبيب القلب الفونس »
فاطمأن قلبه ولكنه ظل خائفا ، فمشى حتى اقترب من فلورندا
فاذا هي لاتزال جالسة ، وقد التفت بالرداء ويدها مخبئتان فيه ،
حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها اليه ونظرت اليه نظرة
خرقت أحشاءه ، وقرأ في عينيها من تلك النظرة ما لو كتب على
الورق لملا عدة صفحات .. قرأ فيهما العتاب والتعنيف ، قرأ الشوق
والوجد ، قرأ فيهما الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام ...
فلم يستطع جوابا على تلك المعاني الا بأن يخبر راکما على ذلك
البساط الأخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان : « السلام
يا فلورندا ، السلام .. ! » ومد يده وأحنى رأسه كأنه يسألها
احسانا ، فظلت هي شاخصة فيه ويدها لا تزالان مخبئتين في
ذلك الرداء ، ولبت الاثنان شاخصين برهة وعيونهما تتخاطب
وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشى عينيها ، فحجب
عنهما وجه الفونس .. فأخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها ،
فسبقها الفونس الى اخراج منديله هو ومسحهما به ، ثم مسح
به وجهه وتنشّق رائحته وتنهد تنهدا شديدا ، وأعاد يده فمدها
الى فلورندا فلم تمد يدها اليه . ففهم أنها تعتمد ذلك دلالا
وعتبا ، فلم ينتظرها فمد يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت
لها فرائض الاثنين كأنهما أمسكا بتيار كهربائي قوى ..

ومضت فترة وهما يتخاطبان بالنظرات، ولهما من قراءة الأفكار ما يغنيهما عن الألفاظ .. وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الأزهار والتواري بين الأغصان ، رفقا بعواطفهما واغضاء عما قد يبدو منهما في مثل هذه الحال . وظل الفونس ساكنا وقد عَّول على الصبر حتى تكون فلورندا البائدة بالكلام . فقضيا برهة واليد باليد ، والعين على العين ، والقلبان يتسارعان كأنهما يتفاهمان بالحققان . وقد غشى الأعين ماء لامع هو من أسمى علامات الهيام ثم بدأت فلورندا الحديث بنغمة الدلال والعتاب : « ما الذى جاء بك يا الفونس ؟ .. »

قال : « لا أدري ما الذى نجاء بى يا حبيبتي .. فهل تعلمين أنت ؟ أما الذى أعلمه فهو انى أسير هواءك ، وانى حى برضاك ميت بجفأك .. حبيبتي فلورندا ، هل عندك مثل ما عندي ؟ .. نعم أعلم أنك كنت تحبيننى ، ولكن هل أنت باقية على ذلك أو على بعضه .. أم غيَّرك ما غيَّر من أحوالنا وأوضاع من آمالنا ؟ .. فأدركت أنه يشير الى ضياع المثلثك من يده ، فسحبت أناملها من بين أنامله بلطف ، وأظهرت أنها تحوّل وجهها عنه ، ونظرها لا يزال ثابتا على نظره كأنها تقول له : « أهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين ؟ » ففهم الفونس مغزى تلك الإشارة فقال لها : « لم أكن أشك فى صدق مودتك وقد امتزج قلبانا . ولكننى حسبت ان سوء حظي غيَّرك ، وظننت أيضا اننى بعد أن خسرت أبى ومثلكى قد جرنى سوء الطالع الى خسارة ما هو أثمن

من ملك العالم كله . قال ذلك وقد أبرقت عيناه وابسطلت أساريه ، وهو لا يزال ينظر اليها ويتوقع أن يسمع قولها ، فعادت الى الصمت والتفت بردائها وحوّلت نظرها الى مجرى النهر وأصغت الى صوت هديره ، فاستولى على تلك الحديقة سكون لم يكن يتخلله الا خرير الماء وزقزقة العصافير فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز ، فاذا هي قادمة وفي يدها بعض الأزهار ، فنادها وهو يقول : « تعالى ياخالة ، كلّنى فلورندا عساها أن تتعطّف على بكلمة أبرّد بها لظى وجدى » ..

— ٥ —

المحب كثير الشكوك

وكانت العجوز قد وصلت اليهما ، فقدمت الزهور الى فلورندا ، وأجابت الفونس قائلة : « اذا كنت لاتفهم بدون كلام ، فما أنت من أهل الغرام .. أحتاج ما تراه فى فلورندا الى ايضاح ؟ .. وهل تظن أن ما يليق بالشبان من التصريح بخلجات الحب يليق بالفتيات أيضا ؟ » ثم التفتت الى فلورندا ، وقالت : « هذا هو الفونس .. كلميه واسأليه ، وقد سمعت منك شكّا فى محبته .. فهل تحققت من صدق قولى فى ثباته ؟ » فرفعت فلورندا بصرها اليه ، وقد أخذ الهيام منها مأخذا

عظيما حتى ظهر ذلك جليا في عينيها لما اعتراها من الذبول واللعان، فشخصت ببصرها اليه برهة وهو يكاد يخطفها ببصره ، وقد نسي مصيبتة في المثلث وضياح حقه فيه وهان عليه أن ترضى فلورندا ولو خسر العالم بأسره . وفيما هو غارق في تلك الهواجس سمعها تقول : « هل شككت في حبي يا الفونس ؟ »

قال : « نعم يا منيتى .. والمحـب كثير الشكوك ... » فأطـرقت وهى تقول : « صدقت ان المحـب كثير الشكوك ، فقد خامرنى من الشك مثل ما خامرك كما قالت خالتي . ولكن .. » فقطع الفونس كلامها قائلا : « لست أرى مبررا للشك فى » وأنت تعلمين اننى أسير هوالك . وأما أنا فيحق لى أن أرتاب فى بقائك على عهدك لما أصابنى من نوائب الزمان . فقد كنت وليا لعهد هذه المملكة ، فأصبحت مثل سائر رجالها .. »

فلما سمعت فلورندا ذلك أسرعـت بالجواب قبل أن يتم الفونس كلامه ، فقالت : « لما أحببتك ، يامنيتى ، انما أحبيت الفونس .. ولم أحب ولئى عهد مملكة القوط . ان الحب لا ينظر الى الرتب ولا المناصب . والقلوب يا ألفونس تتعاقد وتتحد وهى لا تبصر ، ولا تقيس ، ولا تكيل ، ولا تزن ، وهى لاتتعارف بالتوصيات ، ولا تعرف المجاملات ، ولا تفرق بين الحقوق والواجبات .. القلب يا ألفونس لا يرى علامات الشرف ولا يهوى التيجان ولا يخاف الصولجان ، القلب يا حبيبى لا يهوى الا القلب »

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبان الاهتمام على محياها ،

وأطرقت وسكتت وفي ملامح فمها أنها لم تتم الكلام بعد . فلم يشأ الفونس أن يقطع سلسلة أفكارها ، فظل صامتا وهو ينظر إليها نظر المستزيد ، ولسان حاله يقول : « أتمنى كلامك » . فلما رآته يتوقع سماع تنمة كلامها ، قالت : « على أنى آسفة لخروج هذا الأمر من يدك .. لا لأنى أحب أن أكون ملكة ، ولكن ... » ثم غلب عليها الحياء والغضب معا . فتزايد احمرار وجهها وقد تقطبت ملامحها ، والتفتت الى القصر كأنها تخشى رقبيا ، وسكتت . فانشغل بال الفونس بذلك السكوت ، وأدرك بعض ما تريد ، ولكنه تجاهل وقال لها : « ولكن ماذا يافلورندا ، يا حبيبتي ؟ .. قولى .. أفصحى .. ! »

قالت فلورندا وهى تخفض صوتها : « ولكننى لولا هذا الانقلاب ما كنت أقاسى هذه المتاعب ، وما كنت أحس بأنى بين أنياب الأسد ، وملاكى الحارس بعيد عنى » ثم خنقتها العبرات ، ولكنها استمرت فى الكلام فقالت : « لقد كنت أشعر بهدوء البال وراحته لو ظل غيطشة على كرسى المثلثك أو لو أنه عهد به اليك .. فما كان لهذا المختلس سبيل الى اقلاق راحتى »

فقطع الفونس كلامها ، وقد ظهرت عليه البغته واتقدت الغيرة فى قلبه ، وقال : « بماذا أقلق راحتك ؟ هل خاطبك فى شىء ؟ هل بدا لك منه سوء ؟ أخبرينى ، قولى .. ! »

قالت فلورندا : « كلا لم يبد منه شىء ، ولكننى لا أحسب نفسى فى مأمن وبخاصة بعد أن نقلنى الى هذا القصر ، ولم أفهم

لهذا النقل معنى . فبقاء المثلثك في يدك أدى الى سرورى وسعادتى من هذه الناحية فحسب »

فأدرك الفونس الأمر الذى تشير اليه ، مع ما توخته من المبالغة فى تلطيف العبارة ، وعلم انها تقرّعه لتقاعده عن المطالبة بحقوقه . وكان لا يزال الى تلك الساعة جاثيا بين يديها ، فلمّا سمع قولها أحس كأنها صبّت على بدنه ماء يغلى ، فوقف وقد غلب عليه الهيام وهان عليه كل شيء فى سبيل رضاها ، وقال : « يحقّ لك يا فلورندا أن تلومينى ، فقد تقاعدت عن هذا الأمر ، ولكن لكل أجل كتاب . وكنت أمسكت عن زيارتك ، وقد عزمت ألا أزورك الا بعد أن أحقق رغبتك ، فطال سعى ولم أصل الى الغاية ، فلم أعد أصبر على بتعدك وأنا أخشى فتورك ، ثم رأيت فيك من الثبات فى الحب ما زادنى ثباتا على مسعاى . فاعلمى يا فلورندا أن من يعتمد عليهم هذا المختلس من أحزاب الروم ليسوا سوى عصاة ضعيفة ، وانما تمكن الأساقفة من تنصيبه ملكا رغبة فى خدمة رومية ، (١) وكذا أحزاب المملكة ضده وفيهم القوط واليهود وكل من يكره الظلم . وليس هذا موضع الاقاضة فى هذا الشأن ، ولكننى أقسم لك برأس أبى وان كان ميتا ، ان رودريك هذا لا يلبث أن ينزل ويعود المثلث الى أهله ... » وكانت فلورندا تسمع كلامه وهى تنظر فى وردة من ورد الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها ، فتشاغلت بنشر أوراقها وهى

(١) تاريخ اسبانيا لروجى - الجزء الثانى

نصفي لما يقول ألفونس ، فلما بلغ الى قوله : « ويعود المثلثك الى أهله ... » رمت بما بقى بين أناملها من تلك الوردة ، ورفعت بصرها اليه كأنها تثبت من قوله أو تتفهم حقيقة ما يريد ، ففهم مرادها فازداد تهورا في تصويره وأوهمه غرامه انه قادر على كل شيء .. فمد يده ومس أطراف شعره المسترسل على كتفيه وقال : « واذا كنت لا تثقين بقولى فانى أشهدك على نفسى ، وأشهد هذه الخالة أيضا ، ان بقاء هذا الشعر حرام على ان لم أف بقولى » (١)

فتحقت فلورنذا انه يقسم صادقا ، ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينه وبين تلك الأمنية من العقبات .. فأرادت أن تخفف من عهده ، فقالت : « لا حاجة بنا الى هذه الأقسام ، ولا تعرض نفسك للخطر من أجل المثلثك فانه مجد باطل . وانما المراد أن نكون معا فى مأمن من أهل الاعتداء ، ولو فى كوخ من أكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون فى الحرث والزرع »

- ٦ -

موكب الملك

فأراد ألفونس أن يجيئها فسمع صفيرا فبهت وأرهف السمع ، فسمع قرع الطبول وقرقعة اللجم ، فعلم ان موكب

(١) كان ارسال الشعر من علامات الشرف عند القوط ، ولا يحلقه او يقصصه الا العبيد

الملك راجع من الكنيسة . وقد وصل الموكب الى القصر ، وهو لا يزال مستغرقا في حديثه مع فلورندا .. فندم وتحقق انه أخطأ ولا بد من أن يسئ رودريك الظن فيه . ورأته فلورندا قد بغت وسمعت هي مثل ما سمع ، فأدركت انه أبطأ عن الاحتفال ، فقالت له : « اذهب الآن بسلام وليكن الله معك ... »

فأمسك يدها وودعها وهو يقول لها : « ادعى لى فانك من الملائكة ودعاؤك مستجاب ، واذكرينى فى صلاتك عساى أن أوفق لمرضاتك .. » فأجابته بإشارة من أهدابها وحاجبيها ، فانطلق نازلا نحو القارب ليبعد به عن الحديقة ، ثم يركب فرسه الى القصر من طريق آخر . وظلت فلورندا واقفة وهى تشيعه يبصرها حتى توارى ، فعادت الى هواجسها والعجوز بين يديها . فرجعتا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام فى نفسها بعد ذلك الحديث . وقد ندمت لتعريضها بأمر الملك ، وخشيت أن يؤدى ذلك الى ضرر يصيب حبييها

أما رودريك ، فقد سار بموكبه الى الكنيسة فى ذلك الصباح ، وفى نفسه شاغل من أمر ألفونس ، لأنه كان يتوقع ان يراه فى الموكب فى جملة الحاشية ، وكانوا قد زينوا الكنيسة للملك زينة باهرة بالرياحين ، وأضاءوا الشموع وأوقدوا البخور حتى انتشرت رائحته على ما جاور الكنيسة . وكانت أصوات المرتلين والمصلين تدوى فتسمع لمسافة بعيدة ، والناس يتزاحمون

لمشاهدة مركبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضا ،
والمطلون من الأسطح والنوافذ أكثر من المارين في الأسواق ..

ولما أقبل الملك بموكبه ، خرج الأساقفة لاستقباله ووراءهم
وبين أيديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع ،
وبعضهم يحمل الصليب ، وآخر يحمل الكأس ، وآخر غير ذلك
من شارات النصرانية .. فترجل الملك عن بعد وترجل من كان
معه ، فكان أول من استقبل الملك رئيس الأساقفة فحياد ، فانحنى
الملك على يده وقبلها وقبل صليبا مرصعا كان فيها ، ومشوا
جميعا في فناء الكنيسة الخارجى والأساقفة ورجال الكهنوت
أمامهم حتى أقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فدخلوا من
بابها ، وهو يتألف من ثلاثة أبواب : أوسطها أعظمها ، عتبته العليا
على شكل قنطرة مثلثة عليها نقوش محفورة تمثل الملائكة وبعض
القديسين والأنبياء . فمشى الملك وعلى رأسه تاج من الذهب
يشبه تاج الرومان ، وشعره مسترسل على كتفيه وظهره ، وشعر
لحيته وشاربه مسترسل الى صدره . وبين يديه كل أشراف المملكة
بشعورهم المسترسلة وقبعاتهم المتشابهة ، وهم مبتهجون بما
يحسون به من الزهو في ذلك العيد . وساروا في صحن الكنيسة
بين أعمدة فخمة من الرخام النقى أو المرمر ، مقامة في ثلاثة
صفوف من الغرب الى الشرق يزيد عددها جميعا على ثمانين
عمودا ، وارتفاع الكنيسة من صحنها الى أعلى قبتها ٤٦ مترا ،

وطولها يزيد على مائة متر . وقد زادها فخامة في ذلك اليوم ما علقوه فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل المنارة بالزيت أمام الصور ، وقد تصاعد البخور وعلت أصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم مما كان يبذل الكهنة في سبيل أسكاتهم وظل الملك ماشيا حتى جلس على كرسى خاص به الى جانب الهيكل ، واستقر سائر حاشيته في مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب . أما الملك فكان يفعل مثلما يفعلون ، وعيناه شائعتان في حاشيته من الجماهير كأنه يفتش عن شيء ضائع . وكان يجلس على كرسى عن يمينه قس كان يلزمه دائما ، فيقيم معه في قصره ويصلى له صلاة النوم وصلاة الصبح ، وهو الذي يوجهه ويرشده وينصحه . وكان الملك لا يذهب الى احتفال الا صحبه ، ولم يكن يبرم أمرا الا بمشورته ، واسمه الأب مرتين ، وكان طاعنا في السن وقد شاب شعره ودق عظمه وتجدد جلد وجهه ، واستطالت أسرّة جبهته ، وغارت عيناه .. وزادها غورا واختفاء ارسال شعر حاجبيه فوقهما . وقد تساقطت أسنانه وانخفضت شفتاه حتى أصبح فمه واديا بين جبلين . وكان في شبابه وكهولته سريع الكلام ، فلما سقطت أسنانه خالط كلامه تمتمة تنعب السامع في تفهم ما يقول . وكان قصير القامة منتصبها مثل قامة الشبان . وكان شديد التعلق بكرسى رومية لأنه ربي فيها ، فشب روماني المبدأ والغرض . ولم يكن يحب جنس القوط على الاطلاق ، فكان لذلك من أكبر المساعدين على تنصيب رودريك

- ٧ -

الروم والقوط

والتباغض بين الروم والقوط طبعى لأن اسبانيا لما فتحتها القوط فى القرن الخامس للميلاد كانت رومانية المذهب والفرض ، وكل أعيانها وأكابرها من الرومان ، فتسلط القوط عليهم قرنين وبعض قرن ، ولم تتحد قلوبهم ولا تألفت أغراضهم ، وظل القوطى يتكلم لغة الرومانى ، والرومانى لغة أخرى . وربما كان القوطى أحوج الى تعلم لغة الرومان « اللاتينية » من الرومان الى اللغة القوطية ، لأن اللاتينية لغة المملكة الرومانية ، وكانت اسبانيا تابعة لها ففتحتها القوط ، ولم يستطيعوا استبدالها بلغتهم كما استبدل العرب لغات ما فتحوه من المملكة الرومانية الشرقية باللغة العربية . وشأن العرب والقوط فى فتح مملكة الرومان متشابه .. جاءها القوط من الشمال وجاءها العرب من الجنوب ، وكلاهما أهل بادية وخشونة فاكنسحاها ، واستولى كل منهما على جانب منها ، ولكن العرب استطاعوا ما لم يستطعه القوط ، فأنشأوا على أنقاض مدينة الروم مدينة خاصة بهم ، وجعلوا الأمم التى دانت لهم بتوالى الأجيال أمة واحدة تتكلم لغة واحدة ، وأما القوط فقضوا فى اسبانيا نيفا ومائتى سنة ، ثم خرجوا منها ولم يتركوا أثرا يذكر وزد على ذلك ان القوط لما فتحوا اسبانيا كانت دياتهم

الأريوسية على مذهب آريوس (١) صاحب البدعة الشهيرة في النصرانية ، لأن دعاة هذه البدعة لما أصابهم ما أصابهم من الاضطهاد وقاومهم الأباطرة أنفسهم ، هاجروا من المملكة الرومانية وتفرقوا حوالىها في الشمال والجنوب ، وأخذوا يثبون هذا المذهب في القبائل المقيمة هناك ، ومنهم قبائل الجرمان في شمالي أوربا وفي جملتهم القوط . فلما فتح القوط اسبانيا كانوا يدينون بالأريوسية وظلوا على ذلك قرنا وبعض قرن ، وظهرت في أثناء تلك الفترة شيع أخرى اتبعتها بعض الأسبان والقوط في جملتها شيعة نسطور المشهورة ، وشيعة باشينسيوش وغيرها

ففى أواخر القرن السادس ، تولى اسبانيا ملك من القوط اسمه « ريكارد » فاتبع المذهب الكاثوليكي سنة ٥٨٧ للميلاد ، فتبعتة الأساقفة ثم الرعية ، فعادت اسبانيا الى مذهب كنيسة رومية .. وصار الأساقفة أكثرهم من الرومان ، وجعلوا في جملة شروط انتخاب الملك أن يكون قوطيا كاثوليكيا (١)

ولم يمض قليل حتى أحس القوط بالخطأ الذى ارتكبوه بالتخلي عن مذهبهم ولغتهم ، وعلموا ان ذلك التخلي سيعصف بدولتهم . وكان أكثر ملوكهم شعورا بذلك غيطةشة والد ألفونس بطل روايتنا . فعزم على التخلص من تلك القيود . فشعر الأساقفة بمقاصده ، وكان النفوذ قد أفضى اليهم فاتحدوا مع أعيان البلاد

(١) تاريخ اسبانيا تأليف رومى - الجزء الثانى صفحة ٢٥٢

وهم يشايعون رومية ، فعزلوا غيطشة وولوا رودريك .. ويقال انهم فعلوا ذلك بعد موت غيطشة . وبهذه الطريقة خرج المثلثك من بيت غيطشة الى بيت رودريك وجماعة الأكليروس من حزبه . ويعتقد أصحاب غيطشة ان رودريك ليس من أصل قوطي ، ولذلك عدوه مختلسا

وكان الأب مرتين بين من سعى الى تنصيب رودريك . وكان يكره غيطشة وأولاده بنوع خاص ، لأن غيطشة كان يكرهه لشدة تعصبه لرومية .. فكان مرتين من أكثر الناس سعيا في اخراج المثلثك من يديه الى رودريك . ولذلك كان رودريك لا ينفذ أمرا الا بمشورته . وكان في جملة مشورات مرتين على الملك أن يضيق على ألفونس ولا يسمح بغيابه عن القصر ، وأن يكون دائما بين يديه خوفا من أن ينشئ الأحزاب للمطالبة بالمثلثك (١)

فلما وصل الملك الى الكنيسة في ذلك اليوم ، كان أول شيء نبهه اليه مرتين هو أن ألفونس لم يكن في جملة فرسان الموكب . فتفرس الملك في الناس فلم يجده بينهم فانشغل خاطره ، ولكنه ما لبث ان شغل عن ذلك بمراسيم الصلاة وما تقتضيه من الابتاه لحركات الكهنة في أثناء القداس ، على انه كان يعود برهة بعد أخرى الى البحث عن ألفونس خلسة ..

(١) كان لفيطشة - على قول بعضهم - ثلاثة أولاد

- ٨ -

المحاكمة

فلما انقضت الصلاة وخرج الملك الى موكبه ، عاد الى البحث عن ألفونس فلم يجده .. فركب ودعا الأب مرتين للركوب معه ، فقضيا مسافة الطريق يتساران في سبب تغيب ألفونس في ذلك اليوم . فلما بدنا الموكب من القصر ، رأى الأب مرتين ألفونس مسرعا على جواده من جهة القصر ، وكان على علم بعلاقته بفلورنذا فأدرك انها هي سبب تغيبه ، ولكنه اقتصر على تنبيه الملك الى مجيئه في تلك اللحظة ..

فوصل الملك الى قصره وترجل عند الباب الكبير ، وصعد على درجات عريضة من الرخام تؤدي الى فناء القصر ، ثم الى باحة قائمة على أساطين ، ومن بعدها الى دهليز يتفرع الى طرق تؤدي الى أجزاء القصر المختلفة ، وفي جملتها قاعة المجلس . فدخل الملك وقبضه من طريق خاص الى تلك القاعة ، ودخل رجال الدولة - وفيهم وفود المهنيين - من الطريق العام ، فجلس الملك على عرش مرتفع ، قوائمه على شكل قوائم الأسد ، وهو مصنوع من الفضة ، والملك في الملابس الرسمية وعلى كتفيه بردة من الديباج موشاة بالذهب ، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة ، وفي يده صولجان من الذهب ينتهي بصليب مرصع . وكان رودريك في نحو الأربعين من العمر ، ممتلئ

الجسم ، بارز الصدر والبطن ، قوى البدن ، تلوح على وجهه امارات البسالة ، وعيناه جاحظتان كبيرتان ، وحاجباه غليظان ، وشعر شاربه طويل يزيد على طول لحيته وعلى طول شعر رأسه .
جلس رودريك على عرشه ، وفوق العرش صورة كبيرة تمثل السيد المسيح مصلوبا ، وعلى جدار القاعة صور عديدة دينية .
وجلس بجانبه الأب مرتين وبين يديه رجال خاصته ، ثم توافد الناس لتقديم التهانى وفي جملتهم ألفونس فانه دخل وحيا الملك وهناك كما فعل الآخرون ، وجلس فى جملة الجلوس . فلما همّ الناس بالانصراف ، أراد ألفونس أن ينصرف .. فأشار اليه رودريك أن يبقى ، فأوجس ألفونس خيفة من ذلك الاستبقاء .
ولكنه صبر حتى اذا خلا المجلس ولم يبق فى القاعة غير الملك والقس ، ناداه الملك فوقف بين يديه ، فقال له الملك : « ما الذى أخرجك عن مرافقة الموكب فى هذا الصباح يا ألفونس ؟ .. »
فبغت ألفونس لأنه لم يكن يظن ان الملك يهتم لغيابه كل هذا الاهتمام ، فعلت وجهه امارات البغته ، ولكنه تجلد وأجاب :
« كنت فى شغل خاص ، أعاقنى عن القيام بفروض الصلاة بين يدي جلالة الملك .. »

فقال الملك : « من الغريب ان يتفق لك هذا الشاغل فى ذكرى عيد الميلاد وفى ساعة خروج الموكب .. » قال ذلك وحوّل نظره الى صورة فى الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها ، ثم تشاغل بتمشيّط طرف لحيته بأنامله .

فقال ألفونس : « نعم انه اتفاق غريب .. ولكنه وقع ولا حيلة في وقوعه ، واني آسف لذلك .. »

وكان الأب مرتين في أثناء ذلك منصرفا الى تلاوة بعض الصلوات أمام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لا يسمعه أحد ، ولما فرغ من صلاته عاد وقد تزلزل بردائه وأصلح قلنسوته وجلس الى جانب الملك ، وأصغى لما يدور بينهما . فلما رآه ألفونس مهتما بالأمر اختلج قلبه بما بينهما من الضغينة أما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبله ، ولكنه رأى من الحكمة أن يؤجل حكمه في أقواله الى ما بعد مشورة القس ، فأراد أن يضرفه فسمع القس يقول له : « يظهر أن شغلك كان في قصر جلالة الملك ، أو بجوار قصره » قال ذلك وتنحنج وأخذ في مسح فمه بمنديله

فزاد استياء ألفونس منه ، ولكنه خشى ان أجابه أن يصرح بشيء آخر ..

وأما الملك فانه توسم في كلام القس شيئا كان يتردد في ذهنه لم يتحققه ، فأراد أن يتفهم ذلك من مرتين على حدة ، فلم يصبر على ألفونس حتى يجيب ، فالتفت اليه لفتة الاستخفاف والتهديد والاضواء معا ، وقال : « انصرف الآن يا بني ، واحذر من أن تفعل ذلك مرة أخرى »

فأحس ألفونس عند ذلك بفرج سكن له جأشه ، وكأن ثقلا كبيرا أزيح عن صدره ، فسار الى الباب .. ثم خرج وهو لا يكاد

يرى شيئاً مما أمامه لشدة ما قام في نفسه من أسباب القلق ، ولم يكد يخرج من باب القصر حتى اتبه لنفسه ، وتمثل له مركزه وما آل إليه أمره بعد ضياع المثلثك من يده . فقد كان على عهد أبيه ، اذا مرّ في طريق تسابق الناس الى تحيته واحترامه ، فلا يبقى أحد لا يقف له . فمرّ ذلك اليوم والناس يتزاحمون في فناء القصر ، ولم ينتبه له أحد الا الأصدقاء .. وحتى هؤلاء أصبحوا يحذرون التظاهر بصداقته خوفاً من الملك ..

خرج ألفونس وقد هبت فيه عوامل الغيرة ، وكانت ألفاظ فلورندا لا تزال ترن في أذنيه .. فتذكر وعده اياها باسترداد المثلثك ، فزاده غيظاً من الملك ، فركب جواده وسار توا الى منزله وهو غارق في بحار الهواجس ، وقد استصغر نفسه وهان عليه القيام بأي شيء في سبيل الانتقام لوالده واسترضاء فلورندا

- ٩ -

لزيارة

أما رودريك ، فلما خرج ألفونس من مجلسه تظاهر برغبته في الاستجمام ، فدخل غرفته الخاصة ، فجاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمي وألبسوه ثيابه العادية ، وهو لا يخاطب أحداً منهم في شيء لانشغال خاطره بالعبرة التي سمعها من الأب مرتين عن ألفونس والقصر . فلما فرغ من لبس الثياب دعا الأب للغداء معه فجاء . ولم يخاطبه الملك في شيء وهما على المائدة ،

لوجود الملكة معها ، وهو يجب أن يبعد أمثال هذه المواضيع عن ذهنها لما يترتب عليها من الغيرة ، فلما فرغوا من الطعام قال الملك : « يا أبتاه أطلب اليك بعد ختام المائدة بالصلاة أن ترافقنى الى غرفتى .. » ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لأن زوجها كثيرا ما كان يخلو الى الأب مرتين مثل هذه الخلوة ، لاستجلاء رأى أو للمشاورة أو للاعتراف أو غير ذلك .. فلما خلوا فى الغرفة قال رودريك : « ما قولك فى صاحبنا اليوم .. ؟ »

قال : « اذا كنت تعنى ألفونس ، فأرى ان جلالة الملك قد بالغ فى الحلم والرافة فى معاملته .. كيف يتغيب عن موكب جلالته لأعذار ما أنزل الله بها من سلطان ؟ .. » قال ذلك بنعمة الاستغراب ، واستعجل فى نطقها لتكون أكثر تأثيرا فى نفس الملك ، ولو لم يكن رودريك قد ألف ألفاظه وتمتمته لما فهم منها شيئا ..

فقال له الملك : « ولكننى سمعتك تشير الى عذره اشارة لم أفهمها جيدا .. »

فأدرك الأب مرتين ان الملك يحتال فى استطلاع ما بين ألفونس وفلورندا ، وهو يتجاهل ويوهم « مرتين » انه يسأله سؤالا بسيطا ، فسايره الأب وأجابه قائلا : « لم أقل شيئا ، وانما قلت انه تأخر فى القصر .. »
قال الملك : « وأى قصر ؟ .. »

قال القس : « وأى قصر ؟.. قصر جلالة الملك .. كأن مولاي لا يعلم بعلاقته بذلك القصر ... »

قال الملك وهو يبالغ في التجاهل : « لا أعلم علاقة له بهذا القصر بعد أن خرج المثلثك منهم ، ووضعت يدي عليه .. » فقال القس : « لا. أعنى علاقته بالمثلثك .. بل أعنى علاقته بفلورندا بنت الكونت جوليان التى أمر جلالة الملك بنقلها الى القصر الصغير منذ بضعة أيام ... »

فلما ذكر اسمها بغت الملك وخفق قلبه حبا وغيرة ، ولكن انفة الملك ثبتت عزيمته فتجدد كأن الأمر لا يهمه وقال : « أهى علاقة قرابة ؟ .. أم ما هى ؟ .. »

فقال القس : « لا يخفى على جلالة الملك أن الكونت جوليان حاكم سبتة والد فلورندا ، بينه وبين غيطشة قرابة أظنها نسائية ، ولكننى أعنى قرابة ألفونس من فلورندا بنوع خاص ... » فقال الملك : « أية قرابة ؟ .. »

فضحك مرتين وقال : « كنت أحسب أن الملك يعلم بذلك لأن خطبتهما معروفة من قبل أن تتولى جلالتك عرش اسبانيا ؟ » فلما سمع رودريك ذكر الخطبة عظم عليه الأمر لأنه كان يحب فلورندا كثيرا ، ولم يكن يعلم بهذه الخطبة .. ولكنه لم يكن يخشى خروجها من يده اعتمادا على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها ، وعوئل على أن يطمعها بالمال والسلطان ، أو يتهدها حتى تترك ألفونس وتعيش معه .. ولم يشأ أن يطلع القس على

خوابه فتظاهر باقتناعه بهذا الجواب ووقف .. فأدرك القس ان الملك يريد الانصراف ، فوقف هو وانسحب .. وكان بين غرفة الملك وغرفة فلورندا دهليز يؤدي الى ذلك القصر ، وليس الى قصر فلورندا سبيل من قصر الملك سوى ذلك الدهليز ، وقد بنى قصرها على هذه الكيفية لمثل هذه الغاية ، فعوّل رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تغضى عن حب ألفونس . ولم يشأ أن يستقدمها الى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك ، وهو انما ينوى معاشرتها خفية عنها . فأغلق باب غرفته الذى يصل الى قصره ، وفتح الباب المؤدى الى قصر فلورندا ..

— ١٠ —

طارق

أما فلورندا فكانت بعد ذهاب حبيبها من الحديقة قد ذهبت هى والعجوز الى القصر ، وقد أخذ الهيام منها مأخذا عظيما ، وركزت كل تفكيرها فى مراجعة ما دار بينها وبين ألفونس فى ذلك الاجتماع ، وندمت على ما فرط من أقوالها التى تدفعه الى طلب المثلث .. فمالت الى الخلوة لتفكر فيما قالت ، لعلها تهتدى الى ما يخفف هواجسها ، فدخلت غرفتها . وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج ، ويحجبها عن النهر شجرة مز أشجار اللوز ، قد امتدت أغصانها وتشابخت ، حتى أصبحت

فلورندا اذا جلست الى نافذتها لا ترى النهر الا من خلال الأغصان ، وخاصة في ذلك الفصل حينما تكون تلك الشجرة جرداء تقريبا ، فجلست فلورندا على كرسى بجانب النافذة وأرسلت نظرها من خلال تلك الأغصان العارية الى النهر وما وراءه ، فرأت القارب قد ابتعد عن المكان .. فتذكرت انها رأت حبيبها فيه ، ثم أرسلت أفكارها في فضاء الهواجس ..

أما العجوز فانها تركت فلورندا وهواجسها ، وانصرفت الى ايقونة بجانب سرير فلورندا فيها صورة السيد المسيح مصلوبا ، وجشت أمام الصورة وقبلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب الى السيد المسيح أن يحفظ ألفونس ويوفقه ويتم له الزواج بفلورندا . وبعد الفراغ من الصلاة ، قبلت الصورة وخرجت وأغلقت الباب وراءها ، وأوصت الخدم أن لا يقربوا من الغرفة لئلا يزعجوها . على ان الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود الى الطبقة العليا من ذلك القصر حيث كانت فلورندا ، بل كانوا يقيمون في الطبقة السفلى .. فاذا أرادت شيئا بعثت اليهم مع العجوز ..

واستغرقت فلورندا في هواجسها أمام تلك النافذة حتى نسيت نفسها ، وقد أضناها التفكير فأحست بالنعاس ، فالتكأت على سريرها .. وسرعان ما استغرقت في النوم ، فتراءى لها ألفونس في منامها قادما نحوها ووجهه يفيض نورا وأحبت أن تقبله فلم تستطع ، فانزعجت وأفاقت وهي منقبضة النفس .

وبينما هى تمسح عينيها لتحقيق من أنها كانت فى حلم سمعت وقع خطوات ، فنظرت فاذا بالعجوز تدخل من الباب وعلى وجهها مظاهر الخوف ، فجلست فلورندا وقد بغتت ، وقالت : « ما بالك يا خالة .. ما وراءك ؟ .. »
قالت العجوز : « ما ورائى الا الخير .. لا تضطربى .. »
وسكتت ..

فازداد قلق فلورندا ، وصاحت بها : « ماذا جرى ؟ .. هل أصاب ألفونس سوء ؟ .. »
قالت العجوز : « معاذ الله .. ولكن الملك يدعوك اليه .. »
فلما سمعت ذلك اضطربت ونسيت هواجسها بحبيبها ، وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت : « أين هو ؟ .. وما الذى يتغيه منى ؟ .. »

قالت العجوز : « لا أدري ياسيدتى ، ولكنى كنت فى غرفتى أصلح بعض شأنى ، فرأيت الملك بنفسه يتسلل كالسارق فبنفت لرؤيته ، فسألنى عنك وطلب الى أن أدعوك الى الغرفة الشمالية من هذا القصر ، على أن تأتى حالا بالحالة التى تكونين عليها ، فُجئت لتنفيذ أمره .. »

فرثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذى كانت تخشاه ، ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جأشها ودنت من الأيقونة فقبلتها وصلت لله أن يشجعها وينقذها من مخالب الشرير . وطلبت الى خالتها أن تصلى لها أيضا ، ثم التفت

بالرداء كما كانت ، ومشيت وهى تتوسل الى الله من أعماق قلبها
أن ينجئها من هذه التجربة .. ولا يرتاح المرء فى مثل هذه الحالة
الا بالتوسل الى القوى العلوية غير المنظورة ..
مشيت فلورندا كالذاهب الى القتل ، فلا غرو اذا اصطكت
ركبتها وارتعدت مفاصلها ، وودت أن تكون تلك الغرفة على
مسافة أميال منها . على انها تشجعت باتكائها على الله ، حتى اذا
دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات ، فاذا بالملك قد خرج
لاستقبالها عند الباب وهو يتسهم لها ويرحب بها ، وقد خيل له
ان مجرد ابتسامه تجعلها طوع ارادته ، وانه حينما يظهر ارتياحه
لمجالستها تندفع الى مرضاته ..

- ١١ -

العفة

أما فلورندا فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة ، والاثقة والعفة
يتسابقان الى قلبها ، والغضب والخوف يتجلبان فى وجهها . وهو
يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس الى
جانبه . فقالت فلورندا وامارات الحشمة والزانة بادية على
محيائها : « لا يليق بمثلى أن تجلس فى حضرة الملك .. »
فقال الملك وهو يضحك : « اجلسى يا فلورندا فانى لم أدعك
الى لأحملك مشاق التجميل ، ولكننى أردت أن ألقاك وانت

في راحة وسعادة .. اجلسي .. »

قالت فلورندا : « العفو يا مولاي .. »

فقطع الملك كلامها وأمسك بيدها وأجلسها ، فأحست — لما لمست يدها يده — كأن شيطانا يلمسها ، فأجفلت ، وجذبت يدها من يده ، وجلست وهي تحاذر أن يلمس ثوبها ثوبه ، فأحس رودريك باجتناب يدها ، وقد شعر — حين لمس تلك اليد — بعكس ما شعرت هي به . وشق عليه ما بدا من نفورها ، ولكنه حمل ذلك منها محمل الحياء فابتسم وقال : « لا ألوئك ، يا فلورندا لما يبدو في وجهك من البغته لأنك تنهيين من موقفك بين يدي ملك الأسبان ، وهي أول مرة وقفت فيها بين يديه ، ولكن اعلمي — يا ملكة الجمال — اني لم آت اليك بنفسى الا لأدعوك الى السعادة . ولا أريد أن تخاطبيني كما تخاطبين الملك ، بل خاطبيني كما تخاطبين رجلا يحبك ويهواك ويريد أن يجعلك أسعد فتاة في هذا العالم .. »

فلما سمعت فلورندا قوله تحققت من قصده ، ولكنها أحبت التخلص منه بالحسنى ، فوقفت وهي تقول : « حاشا لمثلئ أن تكون غير خادمة حقيرة بين يدي ملك الأسبان الذي يتمثل الناس بشدة بطشه ... »

فقطع الملك كلامها وقال : « وماذا يمنع أن تكوني حبيبتي أيضا .. بل تكونين مولاتي ومالكة زمامى وزمام مملكتى .. » قال ذلك وقد ثارت عواطفه واحمرت عيناه ورجفت شفاهه ،

وهو يحاول التلطف فى الكلام والاشارات . ولكن الخشونة كانت ما تزال تغلب على لفظه وخلقه ..

فقلت فلورندا : « كلا - يامولاى - لا يمكن أن آكون كذلك ، وأرى جلالة الملك قد فرط فيما وفق اليه فى دنياه ، فان هذا الموقف لا يليق بمثلى .. »

فظنها لا تصدق شدة حبه لها ، وانها تخشى أن يكون قد أراد خداعها ، فوقف هو أيضا وقال : « يظهر لى أنك لم تصدقى قولى .. ويحق لك أن تستغربى ما يبدو من تفريطى .. ولكننى أعترف لك يا فلورندا انك قد ملكت قلبى وروحى وتسلطت على كل مشاعرى ، فتعطفى علىّ وتلطفى بالقبول .. »

قال ذلك وهو ينظر اليها وقد انحنى نحوها انحناء المتذلل المستعطف ، وبسط يديه وهما ترتعدان من شدة الهياج .. أما هى فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة ، فظلت على هدوئها وثبات جأشها ، وقالت بصوت هادىء : « أقبل ماذا ؟ .. » فتوسم الملك فى سؤالها الرغبة فى القبول ، فقال : « تقبلين أن تكونى شريكة حياتى ، فتعيشين معى عيشة السعادة والرفاء ، وتكونين أنت الأمرة الناهية »

فنظرت اليه فلورندا نظرة التوبيخ والاحتقار ، وقالت : « وجلالة الملكة ؟ »

وكانت تلك العبارة أشد وقعا من الصاعقة على رأسه ، ولم يكن يتوقع تلك الالفة من فلورندا لأنه لم يكن يعرف قيمة العفة

ولا يدرك قيمة الحرية الشخصية.. ولذلك كان يظن انه اذا ابتسم
لفلورندا ابتسامة واحدة ترامت عند قدميه وسأمت نفسها له .
وقد فاته أن العفة أثمن مما في خزائن الملوك وأسمى مما على
عروشهم وأرقى مما تبلغ اليه مدنيتهم .. بل هي سيف قاطع تقف
به الفتاة أمام الملوك وتحسب أنها أقوى منهم سلطانا وأعز شأنًا ،
ولذلك كان موقف فلورندا بين يدي رودريك موقف الملك أمام
الملك . ولم يكن تواضعها في أول الأمر الا رغبة في التخلص
بالحسنى ، فلما رأت استرساله في القول أجابته بكلمة اضطربت
لها كل جوارحه .. كلمة ذكرته بارتباطه بزوجته بالرباط المقدس
الذى لا يجيز له مخاطبة سواها بمثل ذلك

أما هو ، فقد ساءه أن تخجله بتلك العبارة لما تتضمنه من
التوبيخ والتعنيف ، ولكنه تجاهل ما تريد وظل على أسلوبه في
الملاطفة ، فقال : « يا للعجب من جهلك وغرورك .. أدعوك الى
السعادة والشرف وأسهل لك الطريق اليهما وأنت تقيمين العقوبات
أمامك .. ألا تعلمين يا فلورندا أن الأمر الذى أدعوك اليه ليس فى
هذه المملكة ولا فى غيرها فتاة الا وتنذر النذور للحصول عليه ؟
تعقلى وارجمى الى رشدك واعلمى أنك ترفضين سعادة لا ينالها
الا نفر قليل من خيرة الأنام ، وشرفا تتناول اليه أعناق ربات
الحجال . وهل تجهلين أنك اذا أطعنتى تنالين عزا لم يحلم به أحد
من أهلك ، وأنت اذا ظللت على غيك أسأت الى أهلك ، لأننى
اذا رأيت منك الرضاء بما عرضته عليك جعلت والدك من أقرب

المقربين في البلاط...»

فلما سمعت قوله لم تصبر عن الغضب وأحسّت بسلطان لها يفوق سلطانه ، فخاطبته بما لا يخاطب به الملوك ، قالت وهى تشير بأصبعها الى نفسها : « تزعم يا رودريك انك تدعونى الى السعادة والشرف ، وأنت انما تدعونى الى الشقاء والدناءة . وأنت حين تخاطبنى بهذا القول - ولو تلميحا - قد أهنتنى واستصغرتنى . بل أنت ان توهمت قبولى لذلك تجعلنى أدنى خلق الله .. فأقلع عن ذلك ودعنى وشأنى ، فانك صاحب عز وسلطان ولك الرقاب والأموال . وأما أنا فليس لى الا هذه الجوهرة ، أفتسلبنى اياها ؟ وهل تظن أنك اذا أردت ذلك تستطيعه ؟ » وارتعشت يداها وارتجفت شفتاها وابتضت من شدة التأثر ، فاستطردت قائلة : « كلا ، لا يستطيع أحد أن يسلبنى هذه الجوهرة ، فانها أئمن من خزائن العالم بأسره .. وهى سلاحى وترسى ودرعى . وهى سبيلى الى السعادة الأبدية »

فعظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رققت لحيته على صدره ، ولكن هيبة الحق وسلطان العدل غلبا على غضبه ، فلم يجسر على اهانتها ، غير انه كان ما يزال يرجو قبولها ، فأراد أن يطيل معها الكلام بأن يخلط الجد بالهزل ، فقال : « وهل ذلك الغلام أحق بك منى ؟ »

فلم يزل يردد قوله الا عزيمة وثباتا ، وقد أدركت انه يريد الخط من قدر ألفونس ، فقالت : « مهما يكن من أمره فانه نصيبى فى

هذا العالم ، وهو خطيبي بشرع الله «
فازداد دهشة لجسارتها ، وحدثته نفسه بأن يجافئها ويأخذها
بالقسوة ، ولكنه أجّل ذلك الى أن تفرغ جعبته من حيلة يحتال
بها لاقتناعها ، فقال لها : « يظهر يا فلورندا أن صغر سنك لا يزال
غالبا على عقلك . ولولا ذلك لم تفضّلى غلاما لا شأن له ولا مقام
على ملك ملوك الأسبان . ولكننى أعذرُك على طيشك ، وأبيح
لك التفكير فى أمرك حتى ترجعى الى صوابك ولا ترفضى النعمة
التي أبذلها لك . فلا تضيّعى هذه الفرصة بما تتمسكين به من
الأوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة .. وهذا آخر ما أبذله لك
من النصيحة فتدبّرى أمرك »

فلما رأت أن التوبيخ لم يتجدد معه نفعا ، عمدت الى اقناعه
بنفس برهانة .. فسكّنت من اضطرابها ، وقالت بنغمة التعقل
والرزانة : « يقول جلالة الملك انى أتمسك بالأوهام الباطلة
والاعتبارات الفارغة ، فما قوله اذا علم أن جلالة الملكة تراود شابا
عن نفسه ، وتطلب اليه أن يعيش معها ويكون شريك حياتها ... »
فلما أيقن رودريك قوة حجتها ، مع ما فى ذلك البرهان من
التحقير له ، هاج غضبه ولاح له أن يستخدم العنف فى اقناعها ،
وهّم أن يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوى عن تمسكها
بألفونس ، لأنه ظنها لم ترفض طلبه الا لتعلقها بألفونس ، وتوهمها
فيه القوة أو الثروة . وظل يعتقد أنها اذا تحققت من فقر ألفونس
وضعفه تتركه ، ولا ترى أفضل لها من ملك الأسبان

ولقد توهّم رودريك ذلك لأنه لا يفهم معنى الحب الطاهر ، ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية . وما درى أن القلبين اذا تعاهدا على الحب كانت السعادة كلها في ذلك العهد ، ولا دخل للغنى أو المنصب في أسباب تلك السعادة . وتوهّم رودريك أيضا أنه اذا حقّر الفونس في عيني فلورندا زهدّها فيه ، فقال لها : « ألا تعلمين يا فلورندا أن ألفونس من بعض أتباعى ، وان زمامه في يدي أفعّل به ما شئت ..؟ يظهر انك لا تعلمين ذلك .. ولعلك لا تزالين على ما كنت تعلمينه قبل ضياع المثلثك من يده ... »

- ١٢ -

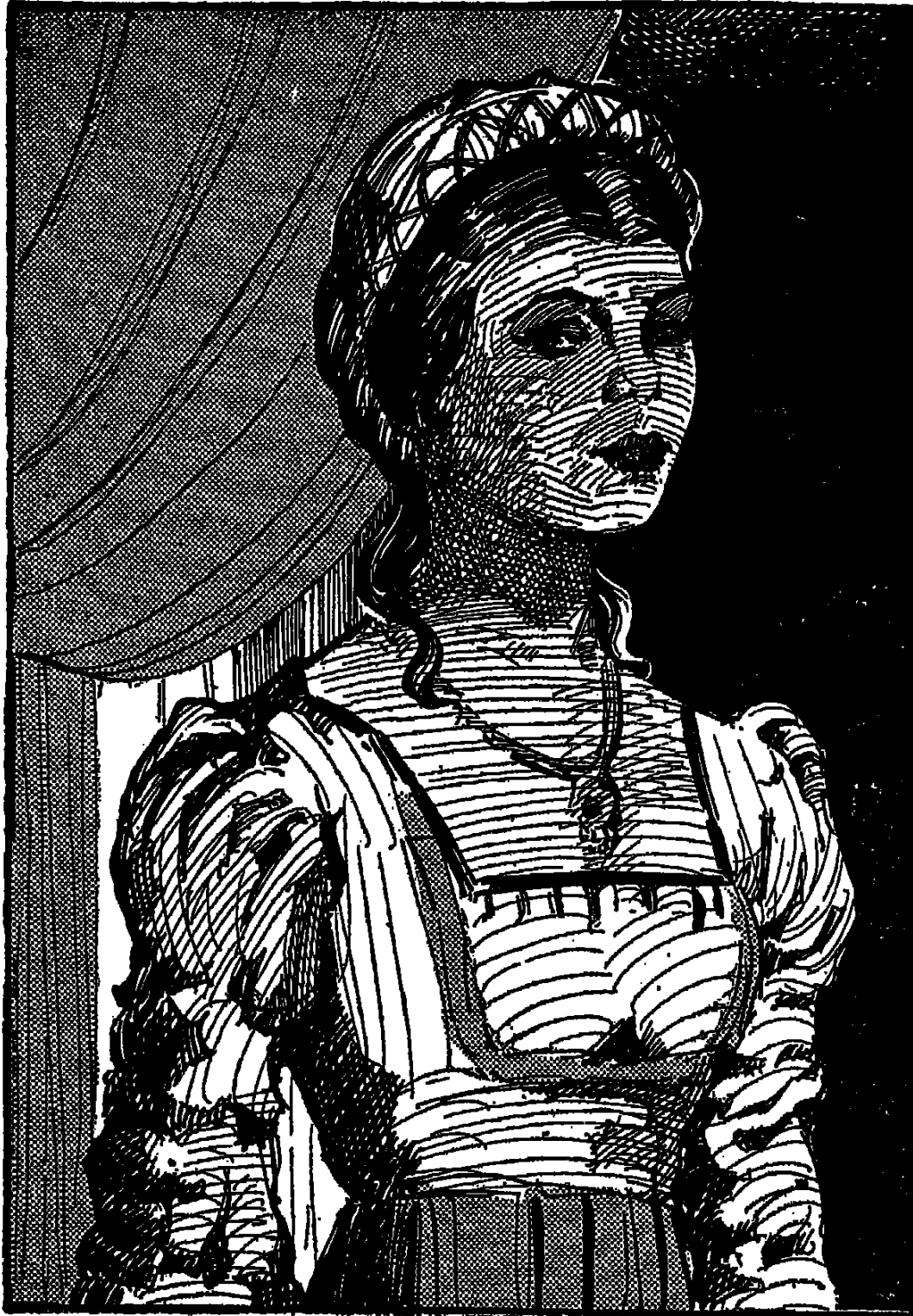
الصلاة الحارة

والواقع أن ذلك التعريض بمكانة ألفونس زادها تمسكا به وتشبثا بحبته. والمحبة الطاهرة تزداد شدة بما تلاقيه من المقاومة ، كما تزداد الحرارة بالاحتكاك . ولكن ساءها أن يكون لهذا الظالم سبيل الى الكلام ، وخافت ان أجابته جوابا عنيفا أن يغضب على ألفونس ويتعمد أذاه . فأجبت أن تقنعه باللطف ، لعلها تخفّف من غضبه ريثما يفتح الله عليها بالفرج ، فقالت : « اذا صح أن الانسان ينبغي ألا يحب غير الذى يكتسبه مالا أو رتبة ، فما الذى حبّب جلالة الملك في هذه الفتاة الحقيرة حتى أراد أن يجعلها سيّدة أهل قصرها كافة ؟ .. واذا كانت القاعدة أن نهمل

الفقراء وأن لا نحبهم ، فما أجدرك يا مولاي الملك بأن تنبذني وتطردني من حضرتك لأنى لم أعد شيئا بجانب سلطانك ورفعة مقامك .. فأرجو من مولاي أن يفعل ذلك فانه أولى بمنصبه وأحفظ لكرامته .. » قالت ذلك وقد توردت وجنتها من عظم تأثيرها واضطراب عواطفها ، واصطكت ركبثاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف . ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة أطراف جدائلها بين أناملها ، ولبثت تنتظر جواب رودريك

أما هو ، فلما تبين رباطة جأشها وقوة حجتها رأى أن يأتيها بالحيلة ويترك العنف الى أن تنفذ حيلته . وذلك انه حين أنس تمسكها بالفونس وتعلقها به ، وتبادر الى ذهنه أن ابعاده عنها يغيّرُها ويحملها على أن ترضخ لرغبته .. فتظاهر بأمر طراً على خاطره بغتة ، فقال : « لا أزال أعتقد أن الوهم يسيطر عليك ، وقد تذكرت أمرا يستلزم عودتي الى القصر الآن ، وذاك من حسن حظك .. اذ يتيح لك فرصة تشغيل الفكر فيها لعلك ترجعين الى رشذك . فاذا لم ترجعى بعد هذه الفرصة ، فلا تلومى الا نفسك » قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة ، وترك فلورندا وحدها

أما هي فقد سرّها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلا للنجاة . فلما خرج رودريك من الغرفة مشى نحو غرفتها ، وقد فاضت أشجانها وعاد اليها الخوف وزاد اضطرابها . فلقيتها العجوز عند باب الغرفة ، فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ، ولكنها ظلت في



« علما خرج رودريك من الغرفة .. مشيت فلورندا نحو غرفتها ، وقد
فاصت اشجانها وعاد اليها الخوف وزاد اضطرابها » ..

سيرها حتى أقبلت على أيقونة السيد المسيح ، فجثت أمامها
وقرعت صدرها وقد خنقتها العبرات ، وتحول جلدّها ورباطة
جأشها - حين كانت بين يدي رودريك - الى الحزن والكآبة ،
ولم تر لها فرجا غير البكاء .. فجعلت تتضرع الى صاحب تلك
الأيقونة بدموع حارة ، وبعبارات صادرة عن قلب يتدفق محبة
وتقوى ..

فلما رأتها العجوز جاثية جثت الى جانبها وصلت معها ، وكلما
قالت فلورندا عبارة أمّنت العجوز عليها . وكان في جملة صلاتها
قولها : « أبعد عني أيها المخلص هذه التجربة ، وغيّر قلب هذا
الملك ليرجع الى طاعتك ويشعر بفضاعة الأمر الذي ينوي ارتكابه..
ارشدني يارب الى سبيل أنجو به من هذه الشباك .. واحفظ
عبدك ألفونس من كل شر واحرسه وكن معه .. واجمعنا أيها
المخلص لنعيش معا على تقوى الله ومرضاته .. اسبغ الحنان على
هذه المسكينة الغريبة .. هذه الفتاة التعسة التي ليس لها ملجأ
سواك .. أنت ملجأ البائسين والضعفاء .. لا تسمح يارب بوقوع
هذا الشر في تذكّار ميلادك المجيد .. »

وكانت كلما قالت عبارة تفرع صدرها ، وخالتها تقول :
« آمين » وكلاهما تذرفان الدموع السخينة

فلما فرغت من الصلاة نهضتا ، وأحست فلورندا بانسباط
نفسها وارتياح ضميرها ، وشعرت كأن الأخطار قد زالت عنها حين
ألقت متاعبها على الله . ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل

٤٩

الايان الوطيد ، فان أحدهم اذا أحدثت به مصائب العالم تحملها بالصبر وأزال آثارها بالصلاة . والبكاء شيء يزيع الانتقاض .. فكثيرا ما يشعر الانسان بضيق ، فاذا بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور في النساء أكثر مما في الرجال فلما زال اضطراب فلورندا ، جلست تفكر في السبيل الى نجاتها ، واستغرقت في التفكير ، والعجوز جالسة القرفصاء تنظر ما يبدو منها ..

- ١٣ -

يعقوب

فلنترك فلورندا في تأملاتها ولنرجع الى ألفونس ، لنرى ما كان من أمره بعد ذهابه الى منزله ، ولم يكن منزله بعيدا عن قصر الملك . فلما وصل الى باب المنزل ترجل وسلم الجواد الى أحد الخدم وهثم بالدخول ، فأحس كأن شيئا يستوقفه ، فوقف لحظة ثم دخل وتوجه الى غرفته ، فرأى خادمه الخاص يقف ببابها ينتظر قدومه ليبلغ أوامره الى من يريد وكان ذلك الخادم كهلا ، قصير القامة ، جاحظ العينين ، أعقف الأنف ، بارز الذقن ، لحيته قصيرة تنقسم الى شعبتين مخروطتين الشكل ، بارزتين نحو الامام ، طرفاهما رأسا المخروط وقد دب الشيب في ذينك الرأسين ، ولا يزال أصل اللحية عند الذقن أسود

أو هو كستنائى اللون . وكان اسمه يعقوب ولم يكن يُعنى بتسريح شعره ، فكان الإهمال ظاهرا فى لحيته حتى لقد تحسبها جزازة نعجة تلبّد صوفها وتشبّك ثم نبشت أطرافها . على أن وجه الرجل كان بالاختصار مضحكا لبروز الأنف وجحوظ العينين وبروز اللحية على تلك الصورة ، وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لا ينفك وجهه ضاحكا . وكان قد ربّى فى بيت غيطشة قبل أن يكون ملكا.. فلما تولى الملك قرّبه اليه وكان يثق فيه ويعهد اليه بأموره ويُسّر اليه بكثير من آرائه . وأهل القصر يحسدون يعقوب على ذلك التقرب وخاصة لأنه ليس قوطيا . ولم يكونوا يعرفون أصله ولا كيفية وصوله الى ذلك المنصب وقد تعجبوا من أمره ..

أما غيطشة فقد كان يحبه ويقربه ، ولما دنا أجله أوصى أولاده به وأوصاه بهم وخاصة ألفونس ، فقد أوصاه بالاعتماد على يعقوب فى كل ما يهمه . وكان ألفونس قد تعود احترامه والثقة به من عهد والده ، ويعقوب يتفانى فى خدمته . وقد لا يظهر لمن يراه لأول وهلة انه ذو رأى أو همّة لما يبدو فى وجهه من ملامح المجون مع خفّة الروح ، ولكنه كان فى مقام الجد من أكثر الناس حكمة وهمّة

فلما وصل ألفونس الى غرفته استقبله يعقوب ضاحكا ، وفتح له باب الغرفة .. فدخل ألفونس ولم يكلمه على خلاف عادته من مازحته ومداعبته ، فأدرك يعقوب انه فى شغل هام .. فوقف

لا يخاطبه في شيء لئلا يقطع عليه مجرى أفكاره أو يثقل عليه بكلامه
أما ألفونس ، فكان أول شيء فعله عند دخوله الغرفة أن خلع
قبعته ونزع سيفه وعلقه بالحائط ، وجلس على كرسى من الخشب
بجانب نافذة تطل على مغارس طليطلة عن بعد .. وأرسل بصره في
ذلك الفضاء والنهار لا يزال صحوا والجو صافيا.. وقد لبث برهة
لا يتكلم ، ثم حوّل بصره فجأة وصاح : « يعقوب ! » فإذا هو
بين يديه . فقال له : « هل جاء عمّي الى هنا في أثناء غيابي ؟ .. »
قال : « كلا يامولاي انه لم يأت .. ألم تجده في الكنيسة ؟ .. »
فتذكر ألفونس الصلاة ، فتبادر الى ذهنه أن عمّه كان في جملة
المصلّين لأنه مطران « متروبوليت » . ثم عاد فتذكر أنه — لما
بين عائلته وبين عائلة الملك من التباعد — ذهب ليصلّي في كنيسة
أخرى . فقال ليعقوب : « أتظنه سار الى الكنيسة ؟ ولماذا لم
تذهب أنت أيضا للصلاة .. ؟ »
قال يعقوب : « كنت مشغولا بأمور البيت ، وقد صلّيت هنا ..
ألا يكفي ذلك ؟ »
قال ألفونس وكأنه قد تذكر أمرا كان قد ذهب عن باله :
« سامحني ، فاني نسيت وصيّة والدي أن لا أسألك عن الصلاة ..
ما رأيك في عمّي المطران ؟ اني في حاجة اليه .. ! »
فقال يعقوب : « قل وأنا أستقدمه على عجل ، ولو كان في
روميّة » قال ذلك وتبسّم ، فأدرك ألفونس أنه يلمح الى ما بينهم
وبين روميّة من التنافر . فاستحسن منه هذا المجنون وقال له :

« لا أظنه بعيدا بهذا القدر .. التي به »

فخرج يعقوب الى غرفة الخدم ، فبعث خادما يفتش عن المطران في الكنيسة ، وآخر يفتش عنه في بيته ، وآخر في مكان آخر من مظاته ، ورجع وهو في همٍّ من أمر الفونس .. ولكنه لم يجرؤ على استطلاع أمره . فلما وصل الى الغرفة أخبر الفونس بما فعله ، وظل واقفا وهو يداعب أطراف لحيته بين أصابعه وينتظر أمره ، فلم ينتبه الفونس له لاستغراقه في هواجسه وقد تراحمت الأفكار في مخيلته ، وأكثرها وضوحا أمر الملك ، وكيف استبد رودريك به واستخف بشأنه . وكيف أنه بعد أن كان مطمح أنظار وجهاء المملكة أصبح شبيها بأحقرهم .. وفكر في وسيلة لاستلاب المثلث منه ، فاذا هو قاصر عن كل شيء . لا مال عنده ولا رجال ، ولا شيء يقاوم به .. ثم تذكر فلورندا وانه عاهدها على استرداد المثلث من رودريك ، فكيف يرجع عن عهده عاجزا مقهورا ؟ .. فتجسّم لديه المصاب وثقل عليه الفشل ، وندم على ما فرط منه بين يدي حبيبته من القسم . فضاقت صدره ، وصغرت نفسه ، وغلب عليه اليأس .. فتناثرت الدموع من عينيه بالرغم منه ، والدمع يفرج الكرب ان عّزت على المرء وسائل التخلص من الضيق

وكان يعقوب لا يزال واقفا ، فسمع تنهد الفونس ثم لحظ من بعض الحركات أنه يبكي . فأدرك أنه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه في خلوة ، فانسى - ولم يشعر به الفونس - حتى جلس على كرسيه بجانب الباب ، وقد اشغل خاطره بالفونس ، فعزم

على استطلاع أمره من المطران بعد مجيئه ، وقد كانت له عليه
دالة كبرى ..

— ١٤ —

المطران أوباس

ولم تمض برهة حتى عاد أحد الرسل وأنبا يعقوب بقدم
المطران ، فتذرع بذلك لمخاطبة ألفونس .. فدخل عليه وأخبره
بمقدم عمته . وكان ألفونس قد فرغ من بكائه وذهب بعض
انتقاضه .. فلما علم بمقدم عمته ، لم يصبر عن الابتسام لما كان له
من الثقة فيه لأنه اشتهر بسداد الرأي والتعقل مع محبته لألفونس
وكان اسمه أوباس « عباس » وهو طبعاً مثل ألفونس يعتبر
رودريك مختلساً ، وكان قد بذل جهده في عدم انتخابه فلم يفلح ،
لأن حزب الأساقفة الرومانيين غلبه على رأيه : ولأنه المطران
الوحيد من أمة القوط ، أما سائر أساقفة طليطلة فهم من الرومان
أو الذين ينتمون لروميّة . ولذلك غلب رأيهم .. وكان أوباس
— منذ تولى رودريك — قد اعتزل الأعمال الا عند الضرورة .
وكان في ذلك اليوم قد صليّ صلاة العيد في منزله ، ثم خرج
بعد الصلاة للجلوس في حديقة المنزل لأنه لم يكن يطيق أن يرى
رودريك في ذلك الموكب بدلاً من ابن أخيه . فلما جاءه الرسول
يدعوه الى ألفونس ، لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعاً

وكان أوباس حيوى المزاج ، طويل القامة ، طويل الأطراف ، عريض المنكبين ، عريض الجبهة ، بارز الوجنتين والفكين ، واسع الصدر ، أسمر اللون ، أسود الشعر غزيره ، وخاصة شعر لحيته فقد كان مرسلا على صدره الى أسفل منطقته ، وأصحاب هذا المزاج فى الغالب فيهم قوة الارادة مع علو الهمة وقوة البدن وعظم الهية . وهم عظام فى كل شئ : فى الحرب ، أو فى التجارة ، أو فى السياسة ، أو فى أى شئ يقومون به (١) ، فهم يمتازون غالبا عن أصحاب الأمزجة الأخرى ويفوقونهم فى كل شئ . وكان أوباس مع ذلك بطيء الخطوات ، كثير التفكير ، قليل الكلام ، جمهورى الصوت ، وكان قوله سديدا ورأيه صائبا ..

ولم تمض برهة حتى سمع ألفونس خطوات عمه ، وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها ، فوقف لاستقباله .. فلما دنا من باب الغرفة تقدم اليه وقبل يده فباركه ، ثم تقدم يعقوب فقبل يده فباركه وهو يتسم له ، وكان أوباس قلما يتسم لأحد

دخل أوباس الغرفة مع ألفونس ، فأسرع ألفونس للحال وأغلق الباب التماسا للخلوة .. فنزع المطران قلنسوته ، فاسترسل شعر رأسه الى كتفه ، وكان غزيرا جدا ولم يخطه الشيب مع أنه فى نحو الخمسين من عمره . ونظر أوباس فى وجه ألفونس ، فرآه يتسم ولكنه تبين الدمع فى عينيه وأثر الانقباض فى أساريره ، فأثر منظره فى نفسه ، فقال له : « مالى أراك كاسف البال يا بنى؟ »

(١) علم الفراسة الحديث

قلم يمسك ألفونس نفسه عن ارسال دمعتين أخريين وهو لا يزال مبتسما ، ولكنه تجلد وقد ارتاح الى رؤية عمه ، فقال : « لا أظننى أشكو اليك أمرا لا تعرفه .. بل أظنك تشكو مثل شكواى أيضا ... »

فقال أوباس : « فهمت مرادك يا ولدى .. ولكن الأمر الذى تشكو منه قد أصبح قديما ، فلا بد من أمر حدث لك فجدة أحزانك .. »

فقال الفونس : « صدقت يا عمّاه .. وأما ما جدّد أحزاني فهو أنى وقفت بين يدي ذلك الوحش الكاسر في هذا الصباح ، وقفة خادم بين يدي سيده . وقفت وقد استصغرت نفسى حتى حسبتنى ذبت حياء ، ولو طال بى الوقوف فانى لا أدرى ماذا كان يصيبنى . ولما خرجت من القصر رأيت رجال العاشية لا يعباون بمرورى بعد أن كانوا اذا مررت يتسابقون الى تقبيل يدي .. »

فقال أوباس : « وما الذى دعا الى وقوفك هذا الموقف ، وعهدى برودريك قلّما يدعوك اليه ؟ »
فقال ألفونس : « لأنى تأخرت عن موكبه في هذا الصباح ، قلم أدركه الا وهو راجع من الكنيسة »

قال أوباس : « ما كان أغناك عن هذا التأخير ، اذن لم تكن لتسمع تعنيفا ولا تتحمل لوما حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . وما الذى أخّرك عن الاحتفال ؟ »

فلم يخجل الفونس من أن يقصّ على عمّه سبب تأخيره لأن عمّه مطلع على ما بينه وبين فلورندا من المحبة المتبادلة ، وهو الذى وضع عربون الخطبة بينهما ، فقال له : « سبب تأخيري أنى زرت فلورندا فى هذا الصباح بعد أن طال غيابى عنها .. وأنت تعلم انقطاعى عن ذلك القصر وضواحيه منذ ابتليت بمصيبة أبى . وكنت أحسب فلورندا قد تغيرت ، فزرتها لأتحقق من أمرها .. فطال الحديث حتى نسيت الموكب فلم أتبّه الا وهم عائدون من الكنيسة ، فأسرعت لأكون معهم ، ولم أكن أظن أن الملك يراقب حركاتى الى هذا الحد . فلما دخلت عليه استبقانى الى ما بعد خروج المهنئين وعنتفنى تعنيفا لم يكن شديدا ، ولكنه وقع على رأسى وقوع الصاعقة .. »

قال ذلك وكاد يشرق بدموعه .. فلم ييال أوباس بدموع ألفونس لاستصغاره مثل هذه الظواهر — ظواهر الضعف البشرى — فظل ساكنا ينتظر تمة الحديث . أما ألفونس فلما رأى عمه لا يزال مصغيا ، استطرد فى الكلام فقال : « ومما زادنى ألما أن ذلك القس الهرم كان يحاول الايقاع بى فى الشرك ، فقد نبّه رودريك الى علاقتى بفلورندا .. وكنت أقرأ سوء القصد من خلال عينيه الغائرتين ومن وراء ألفاظه المختلطة .. »

فقال أوباس : « أراك يا ألفونس مضطرب العواطف كثيرا ، ولا فائدة من ذلك .. ولا عبرة بلفظ تسمعه أو إشارة تراها فانها

حركات طائفة في الهواء ، وما هي من الحقيقة في شيء .. فخفف
عنك وارجع الى صوابك وابحث في الأمر بحثاً معقولاً »

- ١٥ -

رباطة الجأش

فَعَجِبَ أَلْفُونِس لِقَوْلِ عَمِّهِ وَشَعَرَ بِصَغَرِ نَفْسِهِ وَضَعْفِهِ ، وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَسْتَطِعِ السَّيْطِرَةَ عَلَى عَوَاطِفِهِ ، فَقَالَ : « كَيْفَ لَا نَعْبَأُ بِالْأَقْوَالِ ..
وَكَيفَ اسْتَطِيعَ الصَّبْرُ عَلَى الْإِهَانَةِ وَالْإِحْتِقَارِ .. أَتَرْضَى يَا عَمَّاهُ
أَنْ نَكُونَ أَرْقَاءَ لَذَلِكَ الْمُخْتَلَسِ ؟ .. » قَالَ ذَلِكَ وَالْحَدَّةُ بَادِيَةً
فِي صَوْتِهِ ..

فَأَجَابَهُ أُوْبَاسُ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ : « لَا .. ! »
فَقَالَ أَلْفُونِس : « فَكَيْفَ تَقْبَلُ هَذِهِ الْمَعَامَلَةَ ، وَتَقُولُ أَنَّهَا
حَرَكَاتٌ طَائِفَةٌ فِي الْفُضَاءِ ؟ إِنَّنِي لَا اسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ ..
وَأَنْ الْمَوْتَ خَيْرٌ لِي مِنَ الْحَيَاةِ مَعَ هَذِهِ الْإِهَانَةِ »

فَقَالَ أُوْبَاسُ : « لَا أَقُولُ أَنَّ الْإِهَانَةَ حَرَكَاتٌ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَكِنِّي
أَرَى الْكَلَامَ الصَّادِرَ عَنِ الْحَدَّةِ وَالْغَضَبِ بِلَا رُويَةٍ أَشْبَهَ بِحَرَكَاتِ
طَائِفَةٍ فِي الْهَوَاءِ لَا فَائِدَةَ مِنْهَا .. »

فَخَجَلَ أَلْفُونِسُ مِنْ ذَلِكَ التَّوْبِيخِ اللَّطِيفِ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ مُنْدَفِعًا
فِي تَيَارِ الْعَوَاطِفِ ، فَقَالَ : « أَتَلُومُنِي يَا عَمَّاهُ عَلَى غَضَبِي وَقَدْ
قَتَلُوا أَبِي وَاخْتَلَسُوا مَلَكِي ، ثُمَّ ضَيَّقُوا عَلَيَّ فِي ذَهَابِي وَجَحِيثِي

كأنى أحد عبيدهم .. ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك .. ؟ »
قال أوباس وصوته لم يرتفع : « أريد أن تنظر في الأمر بعين العقل والروية لأن الحدة تذهب الرشد وتؤدي الى الخطأ . وربما يخيّل لك اذا رأيت هدوئى وصبرى انى أقل منك استنكارا لأحوال هؤلاء .. ولكننى أفكر كثيرا وأقول قليلا . وسترى متى سكن جأشك ودار الحديث بيننا ، انى قضيت العامين الماضيين وأنا أسعى فى الأمر الذى لم يخطر ببالك الا اليوم .. وأنت انما ذكرته على أثر انفعالك وغضبك بعد أن قابلت خطيبتك وعنتقتك على ضعفك .. وأما أنا فانى لا أندفع بالغضب ولا أغضب للكلام الفارغ ، ولكننى أنظر بعين الحقيقة . وقد كنت أتوقع منك هذه الحميّة فى أول يوم خرج فيه هذا المثلّك من يدك ، بغض النظر عما قد يلحق بك من الاهانة أو ما قد تسمعه من التعريض أو التوبيخ .. »

فلما سمع ألفونس كلام عمّه تهيبّ واتعظ لما آتسه فيه من الرزاة والجد وقوة العزيمة ، وشعر بصغر نفسه لما تحمّله عمّه من الضيق فى السنتين الماضيتين وهو لم يشكّ ضيقا ، فأراد أن يصلح ما بدر منه من دلائل الضعف ، فتحمّس وقال : « لقد أصبت يا عمّاه .. انى تهاونت فى الأمر ولم أكن أحسبك على هذا العزم ، أما الآن فأشر علىّ .. أشر علىّ بالذى أفعله لاسترداد ما اختلسه منا هذا الرجل »

وكان أوباس منذ شرع فى هذا الحديث ، قد أخذت علامات

الاتقباض تبدو على محياه ، فازداد هية وجلالا واستغرق في الأفكار ، وقد أرسل بصره من النافذة الى الفضاء . وكان من ينظر الى وجهه يتبين استغراقه في الهواجس من ثبات بصره على لا شيء ، كأنه ينظر الى صور تمثلت في مخيلته وفيها الخوف والغضب والفرح والنشاط

وكانت ظلال تلك العواطف تتجلى في عينيه البراقتين ، ولو أحسن الفونس الفراسة لقرأ أفكار عمه في عينيه وأسرته ، وكفى نفسه مؤونة الاستشارة والمداولة . ولكنه لم يكن على شيء من ذلك ، فلما فرغ من كلامه صبر لسماع ما يقوله عمه . فاذا هو ما يزال غارقا في الهواجس وهو يعث بأطراف جدائل شعره ، كأنه لم يسمع شيئا من ابن أخيه .. فتهيب ألفونس من منظره ، ولم يجسر على أن يشوش عليه أفكاره ، فظل صامتا مضت لحظات قليلة وكلاهما صامت ، ثم بدأ أوباس الحديث فقال : « هل أدركت يا ألفونس المشروع العظيم الذى تعرض نفسك له ، وفهمت الأمر الذى تطمح اليه أنظارك ؟ .. » قال ألفونس : « كيف لا ؟ .. انى ألتمس أمرا هو حق لى لا ينازعنى فيه أحد »

فقال أوباس : « فهمت ذلك .. ولكن هل دبرت الطريقة التى تستطيع أن تستعيد بها زمام الحكم ... » قال ألفونس : « أعرض عليك رأى ، وأنت صاحب الرأى » قال أوباس : « قل .. »

- ١٦ -

فلسفة التاريخ

وعندئذ قال ألفونس : « لا يخفى على عمى العزيز أن القوة التي ساعدت رودريك على تسنم ذروة الملك إنما هم الرومان وخاصة الأساقفة . وأما رجال القوط أهلنا وأهل عشيرتنا فانهم لا يريدونه ، وهؤلاء جماعة كبيرة .. إذا اتحدوا هم ورجالهم وأتباعهم تألف منهم جند كبير يتغلب على جند رودريك ، فلا يصعب علينا إذ ذاك استرداد الحكم من يده ، أما بالتنازل ، وأما بالقتال » ..

فابتسم أوباس ابتسامة متكلفة دلت على استخفافه برأى ذلك الشاب الذي بدا كأنه قليل التجربة ، ثم قال : « صدقت يا ولدى ان القوط على عهدنا ، ولكن هل تظن اذا دعوتهم الى الحرب ينهضون ؟ لا أظن أن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حد الكلام . ولا لوم عليهم ، فهم يخافون على أرواحهم وأموالهم .. على أن أكثرهم لا يرون بأسا من بقاء رودريك وغيره من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم في المذهب .. فانهم جميعا تابعون لكنيسة رومية ، وقد تغلب الأساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم .. حتى نسوا جنسيتهم »
وكان أوباس يتكلم بصوت هادئ وتأن ، ولم يبد الهياج في

عينيه الا عندما وصل الى هذا القول ،على أن الرزاة ظلت غالبية على حركاته . ولكنه سكت هنيهة وألفونس ينظر اليه ويتوقع بقية الحديث ، فقال أوباس وهو يجدل شعر لحيته بين أنامله : « سامح الله ريكارد .. فانه هو الذى جرّ علينا هذا البلاء »

فلم يفهم ألفونس معنى هذا اللوم لأن ريكارد ملك من ملوك القوط حكم اسبانيا زمنا طويلا في أواخر القرن السادس للميلاد ، وكان من رجال الحرب والسياسة ، فقال ألفونس : « ما الذى ارتكبه ريكارد يا عمّاه حتى استحق هذا اللوم ، والذى أعلمه أنه هو الذى حفظ لنا مملكة الأسبان ودفع الافرنج « الفرنك » عنها » (١)

قال أوباس : « صدقت يا ولدى انه نجّانا من الفرنك ، ولكنه ألقانا فيما هو أعظم خطرا منهم .. »

قال ألفونس : « وما هو ذاك .. ؟ »

قال أوباس : « ألا تعرفه .. ألا تعرف ان ريكارد هو الذى

أضاع جنسيتنا .. وحل جامعتنا ؟ »

فلم يفهم ألفونس ما يهدف اليه ، فقال : « كلا يامولاى .. انى

لا أعرف ذلك ، ما هو ؟ »

قال أوباس : « ألا تعلم يا ألفونس أن ريكارد هو الذى جعل

مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) هو مذهب حكومة اسبانيا ؟ »

قال ألفونس : « نعم .. ألا تظنه فعل حسنا ؟ »

فقال أوباس : « نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة أيضا ، وقد رينا في حبها ، ولا بأس في ذلك ، ولكنني أنظر في الأمر من وجهه السياسى .. انظر فيه من حيث جامعتنا القومية .. جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون ، وكانت هذه البلاد في حوزة الرومان فأخذوا الملك من أيديهم بالقوة وتسلبوا عليها . ولا يخفى عليك أن مذهب أسلافنا الذى جاءوا به الى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية ، بل هو مذهب الأريوسى نسبة الى آريوس الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية (١) ، ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مائتى سنة ونحن على مذهب آريوس .. وأهل البلاد على مذهب كنيسة رومية ..

« ولا أخفى عنك أن ملوكنا القدماء لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يتبينوا علاقة الدين بالسياسة . ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترداد سلطانهم بطريق الدين ، فجعلوا يدسون أنوفهم فى مصالح الدولة رويدا رويدا ، ويثون مذهبهم بين الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض قرن .. فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة أجداده ، واعتنق المذهب الكاثوليكي وجعله مذهب المملكة فتم النفوذ لرومية ، حتى أصبح مجمع الأساقفة الذى يجتمع فى هذه المدينة يدير أمور الملك كما يشاء . وربما أتوا بالأوامر من رومية نفسها .

(١) جين - تاريخ المملكة الرومانية

ولا تزال الكاثوليكية ديانة هذه المملكة الى اليوم ، ولم يبق للآريوسية أثر الا قليلا جدا . ولا ريب عندي أن الذين استبدلوا مذهبهم في أول الأمر انما استبدلوه موافقة لرأى ريكارد ، لا عن اقتناع بالبرهان ، لأن مذهب آريوس أقرب الى منطق العقل من سائر مذاهب النصرانية .. »

فلما وصل أوباس الى هنا ، أحس بأنه استطرد في الكلام بين يدي ذلك الغلام ، وقد تحقق من ذلك مما بدا على وجه ألفونس من دلائل الاستغراب ، لما غرس في ذهنه منذ طفولته من ذم الآريوسية ، حتى انه كثيرا ما سمع ذمها من عمه نفسه ، وأدرك أوباس ما جال في خاطر ابن أخيه ، فاستدرك قائلا : « لا يغرب عن ذهنك يا ولدي أنى لا أحبب اليك الآريوسية دون سواها ، فاننا لا نفضل مذهباً على مذهبنا الحالى .. ولكننى أخاطبك بلغة السياسة لا الدين ، لأبين لك نتائج الخطأ الذى ارتكبه ريكارد - سامحه الله - لأنه باعترافه المذهب الكاثوليكي أضاع الجنسية القوطية ، لأن الدين - يعزى - أثبت الجامعات وأشملها .. اذ قد يجتمع القوطى والفندالى والرومانى واليونانى والسكسونى والعربى وغيرهم في بلد وهم أخلاط ، فاذا اعتنقوا مذهباً واحدا ضاعت جنسياتهم الأصلية بتوالى الأزمان وصاروا أمة واحدة .. »

« وهناك جامعة أخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب أعنى بها جامعة اللغة .. فهذه أيضا شاملة ، ولكنها في الغالب تابعة للدين .. »

ألا ترى أننا بعد أن اعتنقنا المذهب الكاثوليكي أصبحت اللغة اللاتينية هي الغالبة في كنائسنا ومجالسنا لأنها لغة ذلك المذهب ، وأخذت لغتنا القوطية في الانقراض أو الضياع ؟ فلو ظللنا على الآريوسية واستبقينا لغتنا وعممتناها في الشعب ، وحولنا أهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكي الى مذهبنا الآريوسي لكانت لغتهم لغتنا ، ومذهبهم مذهبنا وصاروا من أنصارنا . ولكننا غفلنا عن ذلك فانعكس الأمر ، وأصبح أولئك الرومان بعد أن أخرجونا من مذهبنا ولغتنا ، يحاولون اخراجنا من سلطتنا بما اكتسبه الأساقفة الرومانيون من النفوذ في أمور الدولة ، حتى لا ترى في أوروبا كلها مجعاً دينياً له على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لمجمع طليطلة هذا على حكومة اسبانيا (١)

« وأول من أحس بهذا الخطر من ملوك القوط والدك – طيب الله ثراه – فانه سعى في انتقاذ حكومته من نفوذ رومية ، حتى كآتى سمعته يصُرح برغبته في الخروج عن مذهبها أو سلطانها الكنائسي، وكان معظم أساقفة أسبانيا ممن تثقف وتشرَّب حبها وحب اسقفها الأكبر ، فأنكروا رغبة والدك ، وما زالوا حتى حققوا أغراضهم التي أتاحتها التصريح بها ، لأنها تؤلّنى كما تؤلّك . ونصّبوا رودريك هذا وهو روماني الغرض وان ادعى أنه قوطي الأصل .. ففعلوا ذلك افساداً لما كان والدك قد أسّسه »

(١) كيزو – تاريخ تمدن أوروبا

~ ١٧ ~

رأى أوباس

وكان ألفونس يسمع كلام «أوباس» باصغاء وقد تلذذ بسماعه لذة عظيمة لما آتسه فيه من الفلسفة والحكمة ، مما لم يكن يخطر له على بال من قبل ، فلما بلغ الى خروج المثلثك من يد أبيه لم يلبث أن سأل قائلاً : « كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وأبناء غيطشة أحياء ؟ .. »

وقال المطران : « حجتهم في ذلك أن حق المثلثك عندنا انتخابي وليس وراثيا (١) اذ لو كان وراثيا لكنت أنت أولى الناس بهذا الأمر.. على أن كونه انتخابيا لا يقضى بحرمانك منه ، وكان يجب أن ينتخبوك لأنك ابن الملك ، وقد فعلوا ذلك غير مرة . ثم لولا ما ظهر في خلال انتخابهم رودريك هذا من الأغراض القومية التي مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا ... »

ثم استأنف أوباس الحديث كأنه أفاق من غفلة وقال : « أرانى خرجت من دائرة الموضوع الأصلي . وخلاصة ما قدمته لك أن الذين تعدهم قوطا وترجو أن ينصروك كى تتغلب على هذا الرجل قد ضاعت منهم جامعتهم الجنسية في الجامعة الدينية واللغوية ، فرما كانوا أقرب الى نصره أولئك منهم إلينا ، فمثل هؤلاء لا يعتد بأقوالهم ولا يعتد على أحزابهم »

(١) رومى : تاريخ اسبانيا - الجزء الثانى

فلما سمع ألفونس نتيجة البحث خاب أمله لأنه انما كان يتوقع
شد أزره بأهل عشيرته ؛ فلما تحقق من ضياع أمله أحس بضعف
عزيمته وظل مطرقا لا يبدى حراكا ولسان حاله يقول : « عجزت
عن الحيلة .. »

فلما رآه أوباس مطرقا أدرك ضعف عزيمته فأراد أن يسبر
غوره ، فقال له : « كأنك يئست من النجاح .. ؟ »

قال : « كيف لا ، وقد فرغت يدي من الرجال فضلا عن
فراغها من المال ، ولم يكتف هؤلاء باختلاس المثلث بل أخرجوني
منه صفر اليدين . فهل تعلم أين ذهبوا بأموال والدي ؟ .. »

فقال المطران : « ان أموال والدك قد أخذت بحق لأن الملك
« رسيسويت » الذي تولّى هذا العرش منذ نحو ستين سنة ،
سُنّ قانونا يقضى برجع أموال الملك وكل ما يقتنيه الى خزينة
المملكة (١) . فلا ينبغي لنا أن نبالغ في القاء التبعة على عدونا
بالباطل . أما كيف نبلغ ما نتمناه ، فانه اذا أعجزتك الحيلة
للووقوف عليه فأخبرني لأرى رأيي وأرجو أن يكون سديدا .. »

فاستغرب ألفونس تواضع عمه ، وأشار بيديه وعينيه بما قد
يعجز عنه لسانه من تفويض كل الأمر الى عمّه ، لأنه أكبر عقلا
وأوسع تجربة ، فأصلح أوباس مجلسه استعدادا لحديث طويل ،
والتفت الى ما حوله كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وان كان على
ثقة من انفرادهما هناك . ثم وجهه كلامه الى ألفونس قائلا :

« اعلم يا بنى أن الانسان اذا عزم على أمر لا بد من النظر في عواقبه قبل الاقدام عليه والا كانت العاقبة وخيمة عليه ، أنت تعلم أن الناس في اسبانيا طبقات ، منها :

(١) طبقة الاشراف وهم أرباب الأموال والمناصب ، ومنهم حكام الولايات ، وحكام المدن ، وأصحاب العقارات وغيرهم

(٢) رجال الأكليروس

(٣) طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وموظفى الحكومة

(٤) أهل الحرف وهم من أواسط الناس وسكان المدن

(٥) الخدم والعبيد وهم كل مابقى من أهل المملكة .. وهؤلاء هم القسم الأكبر ومنهم الفلاحون وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب

« فاذا شئنا أن تنهض لاسترداد الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانة ببعض هذه الطبقات . فلنبحث في أيها أقرب إلينا ..

« فالأشراف اما رومانيو الأصل أو قوطيون ، فالرومان طبعاً ضدنا . وقد بينت لك حال القوط ، فهم قد أضاعوا قوتهم في مذهبهم الجديد . فالأشراف لا فائدة لنا فيهم وكذلك أهل البلاط . أما الأكليروس فأنت تعلم انهم علّة هذا التغير . وأهل الحرف بالنظر الى اقامتهم الطويلة في المدن ، قد أضاعوا الحماسة اللازمة للقيام بمثل هذا الانقلاب . وزد على ذلك أن كلا منهم منصرف

الى عمله وتجارته ويخاف ضياع أمواله القليلة.. اذ لا يخفى عليك أن بلاد أوروبا كلها تقريبا مؤلفة من المدن والحقول ، فأهل المدن لا يكادون يهتمون بما هو خارج حدود مدنها (١) . وكل مدينة تهتم بنفسها ، ونحن لا يكفيننا الاستعانة بأهل مدينة واحدة لأن رودريك صاحب جنود وأعوان ، يستجد علينا بحكامه في الولايات فتذهب جهودنا عبثا ..

« بقى علينا النظر في الطبقة الأخيرة من هذا الشعب وهى طبقة الخدم والعبيد ، فهؤلاء هم الجانب الأكبر ولا تستغنى عنهم سائر الطبقات . ومع ذلك فانهم مستبدون بهم استبدادا عظيما ، ولا يخفى عليك أن معظم هؤلاء العبيد انما دخلوا في الرق على أثر الحروب ، وهم رجال أشداء ولا سيما بعد أن تعودوا العمل ، وعانوا الشقاء لاشتغالهم في الحقول ، فان عقارات الأشراف ويوتهم وأموالهم كلها فى قبضة هؤلاء العبيد . ومع ذلك فانهم مظلومون يقاسون من أسيادهم عذاب الذل - وناهيك بعذاب الرق - وأنت تعلم أن هؤلاء الأرقاء لا ينقصون عن أسيادهم من حيث المواهب الطبيعية ، ولكنهم تعودوا الخضوع لهم والخوف من أصواتهم حتى أصبحوا أطوع لهم من ظلمهم . فكل ما للعبد فهو لسيده ، لا يستطيع أن يعمل عملا الا بأمره ، حتى الزواج . وكل ما اكتسبه العبد بالقصد أو بالاتفاق أو بالتجارة أو بالجرب - حتى الأولاد الذين يولدون له - فانها كلها

(١) مونتسكيو

لسيده .. وله أن يبيع العبد أو أمتعته أو أولاده بدون معارضة
« على أن أولئك الأسياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية
مكافأة لهم على عمل عظيم قاموا به ، غير أن هذه الحرية قلما
تتميز عن الاستعباد ، فإن العبد ولو عتق فانه يظل تحت أمر
سيده ، فإن عمل عملا فلسيده نصف ما يكسبه من ذلك العمل ،
وإن أراد أن ينتقل من خدمته وجب عليه أن يرد له كل ما معه
من الأسلحة أو الأثاث ، ولا يعد ذلك العبد من زمرة الأحرار
الأصليين إلا في الجيل الرابع من أولاده (١) . والخلاصة فاني
لا أطيل عليك الكلام لأنك تعلم كثيرا من أفعال هؤلاء الأرقاء ،
ولكنك قلما فكرت فيما يقاسونه من العبن والظلم ، وربما لم
يخطر لك على بال أنهم من جبلة مثل جبلتنا ، فقد شببت وأنت
تراهم على هذه الحال »

- ١٨ -

الوسيلة

فلما بلغ أوباس الى هذا الحد وقف وتنحنح وتفرس في ألفونس
ليرى أثر أقواله فيه ، فرآه منصتا بكل جوارحه لسماع ما يقوله
عمه ، فعاد أوباس الى حديثه فقال : « فالأمر الذي أوجّه التفاتك
اليه يا ولدى هو أن أقوى طبقات الشعب هم أولئك الأرقاء

المظلومون ، وهم أكثر عددا وأقوى أبدانا وأصبر على الشقاء .
فإذا اتخذناهم أعوانا لنا في هذه المهمة قلبوا المملكة رأسا على
عقب . وقد لا نحتاج الا الى تظاهرهم بالتعاون معنا ، فان
اتحادهم يرعب الملك وحكامه وأشراف مملكته ، فنال المراد بغير
حرب أو سفك دماء .. ولكن ما الذى يجمعهم ، أو كيف يمكننا
أن نجعلهم حزبا مؤيدا لنا .. ؟ »

وكان ألفونس يرهف السمع لحديث عمه ، وقد رأى الصواب
يتألق في كل كلمة من كلماته . فلما وقف أوباس عند هذا الاستفهام
ارتبك ألفونس فلم يحر جوابا لأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال .
أما عمه فانه لم يوجه اليه هذا السؤال وهو يتوقع منه جوابا ،
فقال : « اعلم يابنى ان الوسيلة التى يجب أن نتخذها لجمع كلمة
هؤلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا انما هى أفضل الوسائل
وأشرفها ، بل هى فضيلة تبقى لنا ذكرا مدى الدهور ، ويحسدنا
عليها كل من ملك هذه البلاد قبلنا ، وننال عليها الجزاء الحميد
من الله سبحانه وتعالى .. أتعلم ما هى .. ؟ »

فلم يهتم ألفونس بالجواب هذه المرة لأن ملامح عمه كانت
تشير الى أن الجواب آت . ثم قال أوباس : « ان الوسيلة يابنى
لجمع كلمة هؤلاء انما هى أن نهبهم الحرية ونجعل لكل من
ينضم الينا منهم حقا فى الظفر بحريته بعد أجل معين .. واذا نال
تلك الحرية كان كسائر الأحرار دفعة واحدة .. لا يقاسمه أحد فى
جهده أو كسبه ، على أن يكون ذلك مرتها برجوع المثلثك

إليك ، وأنت متى توليت عرش أسبانيا هونت الاعتاق وسهلت الطريق اليه بوسيلة ترغّب أولئك المظلومين في نصرتك .. »

فانبهر الفونس بما سمعه من عمه وأحسّ بما بينهما من التفاوت في الإدراك والقوى ، وخيّل اليه أن الأمر قد تم له على ما يروم حتى أصبح كأنه يرى زمام الملك ويهم بالقبض عليه .. ولم يكن ألفونس بليد العقل الا بين يدي عمه لما له من السلطان على عقله ورأيه . فلم يتماسك ألفونس فتناثرت من عينيه دمعتان من دموع الفرح ، وانحنى على يد عمه ليقبّلها فاجتذب أوباس يده ، وهو لا تهزه عاطفة فرح أو غضب ، ولكنه اصطنع ضحكة وألقى يده على كتف الفونس ، وقبض عليها بقوة .. فأحسّ الفونس بشدة تلك القبضة وتوقع أن يسمع شيئاً بعدها فاذا بأوباس يقول : « رأيتك اقتنعت بما سمعته ، ولم تعمل فكرك للبحث فيما يحول دون عملنا هذا من الحواجز »

فأجفل ألفونس وخشى أن تضيق آماله بعد أن أوشك أن يتراءى له أنه ظفر برغبته ، وفكر فيما عسى أن تكون تلك الحواجز التي قد تقف في سبيل ذلك المشروع . ولكنه قبل أن يتوصل الى الجواب ، سمع عمه يقول : « لا أظنك تجهل ما يحتاج اليه مشروعنا هذا من الأموال للانفاق على الجند ، وابتياح الأحزاب ، وانشاء المعاقل واغراء الأعداء .. »

- ١٩ -

سر جديد

فلما سمع ألفونس ذلك عاد اليه اليأس لأنه لا يجد المال في يديه ولا يدى عمه ولا سائر أهله . واستغرب اغتراره برأى عمه الأول وتخيّله وصوله الى الغرض المقصود مع أن مسألة المال لم تكن لتخفى عليه ، وقد كان منذ هنيهة يشكو الى عمه خروجه بعد موت أبيه صفر اليدين . على انه انما اغتر بذلك لشدة اعتقاده بسداد رأى أوباس ، وقد نشأ هذا الاعتقاد فيه منذ طفولته الأولى لأنه ما برح منذ أخذ يدب على الأرض يرى عمه يأتى الى أبيه بلباس الكهنة ، والكل يحترمون رأيه ويهابونه ، فشب على استسلامه له ، فاذا قال أوباس قولاً سلّم هو به واعتقد صوابه بلا روية ولا تبصر . كذلك كان شأنه معه فيما دار بينهما فى ذلك اليوم . فلما سمع ألفونس ذكر المال تحقق أنهما يتداولان عبثاً ، فبدأ أثر القنوط على وجهه ، وظل ساكتاً ، وفى سكوته ما يغنى عن الجواب

أما أوباس فلما رأى ان ابن أخيه قد أسقط فى يده وكاد ان ييأس ، ابتسم ابتسامة أخرى وقال : « هل يئست يا ألفونس ؟ ما أسرع ما ترجو وما أسرع ما تقنط . لا تيأس يا بنى انى لا أدع ثقتك العمياء فى عمك تذهب هباء . انى لم أقض هذين العامين نائماً .. نعم انى أخاطبك على سبيل المداولة ولكننى — فى

الحقيقة - أعرض عليك مشروعا رتبته وسبرت أغواره ودبرت كل شئونه ، ولولا ذلك لم أرض بالخوض فيه معك » . قال ذلك ونهض فنهض ألفونس معه ، وهو لا يدري معنى ذلك النهوض ولكنه أصبح شديد الميل الى استطلاع تنمة المشروع ، وأصبح فكره مضطربا قلقا يريد أن يرى ما دبّره عمه من الوسائل للحصول على المال . على انه لم يجسر على سؤاله فظل صامتا في انتظار الجواب .. أما أوباس فانه تناول قلنسوته فوضعها على رأسه فظنه ألفونس بهم بالخروج . ثم ما لبث أن سمعه ينادى : « يعقوب .. » وما عثم أن رأى يعقوب داخلا يهرول ولحيته وأنفه يسبقانه حتى وقف بين يدي أوباس ، وفي وجهه ابتسامة تدل على ما في نفسه من الاطمئنان . فلما دخل جلس أوباس وأشار الى ألفونس أن يجلس ففعل ثم قال ليعقوب : « اجلس .. » فأظهر يعقوب البغته وقال : « حاشا - يامولاي - أن أجلس بين يديك أو يدي سيدي (وأشار الى ألفونس) وانما يكفيني أن تأذن لي بالوقوف »

فضحك أوباس ، ويندر أن يضحك لغير يعقوب ، ومد يده اليه حتى أمسك باحدى شعبتي لحيته وشده بلطف حتى أقعده على طنفسة في أرض الغرفة ، ثم تظاهر بالاجفال وأرجع يده ومسح أطراف أنامله بمنديله وهو يقول : « متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب ؟ أما آن لك أن تغسل ؟ .. »

فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغته وذهبت

عنها ملامح المجون وبدا الجذ في عينيه وقال : « سيادتكم أعلم منى .. ولكننى أرجو أن يكون ذلك قريبا »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب ولا سيما بعد أن رأى ذلك التغير في وجه يعقوب ، ولكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول : « وأنا أرجو ذلك أيضا .. ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة فهل تدفعها ؟ .. »

قال : « نعم انى لا أدخر مالا ولا ولدا ولا نفسا في سبيل غسلها كما تعلم .. »

فلم يزد الأمر لدى ألفونس الا غموضا وابهاما ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى ، ولا لتلك الألفاظ مغزى ، وشق عليه أن يتحول موضوع المداولة من الجذ الى الهزل ، وهو لا يعرف أن عمه يميل الى المزاح الا قليلا ، وأكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب .. فحمل كلامهما محمل المزاح ، وظل ساكنا يتوقع العودة الى الموضوع الأصلي

أما أوباس فقال : « انى أعلم ذلك يايعقوب وقد آن لى أن أسعى في غسل لحيتك ، فهل أنت واثق من المال مهما كبر مقداره ؟ .. »

قال : « نعم يا سيدى وأنت تعلم ذلك ... »
فقال أوباس : « قد كنت أعلمه ولكن هل حدث تغيير أو تبديل ؟ .. »

فقال يعقوب : « كلا يامولاى ، نحن على ما نحن عليه .. »

فأطرق أوباس مدة طويلة لا يتكلم واستغرق في الأفكار، كأنه يحل معضلة ويفكر في أمر طرق ذهنه في تلك الساعة ، ثم وقف فوقف يعقوب وألفونس فقال للأول : « أحب أن أراك الليلة في منزلى » ..
فأشار بيديه وعينه وشفتيه أن : « سمعا وطاعة » وخرج وأغلق الباب وراءه

- ٢٠ -

كتاب فلورندا

فتوقع ألفونس بعد خروج يعقوب أن يسمع من عمه ما يزيل ذلك القلق عنه فلما رآه قد جلس ، جلس هو الآخر وأصاخ بسمعه وهو ينظر اليه كأنه ينصت لما يقوله فسمعه يقول : « طب نفسا يا ألفونس ، ان المال تحت يدي عند الطلب ولا بد من جلسة أخرى أشرح لك فيها التفاصيل ، وأرتب الخطة التي يجب أن نسير عليها في هذا العمل الخطير »
فقال ألفونس : « ولكننى لم أفهم علاقة ذلك بخادمنا هذا وبلحيته » ..

فقال أوباس : « ستعرف السر في ذلك في هذه الليلة ان شاء الله . هل تأتى معى الآن الى منزلى فنتناول الطعام معا ؟ لا يل الأفضل أن تبقى هنا وأسير أنا وحدى لأخلو بنفسى ، وأرسم

الخطّة التي يجب اتباعها في هذا المشروع » قال ذلك ونهض وسار الى الباب وهو يمشى الهوينى على عادته ، وألفونس من ورائه ليودعه عند خروجه . وقبل وصولهما الى باب الغرفة سمعا قرعا عليه ، ثم دخل يعقوب وفي يده كيس صغير من الحرير الأرجواني مسطح الشكل كأن فيه كتابا ، وقد عقد بشريط من الحرير الأزرق . فلما رأى ألفونس الكيس خفق قلبه لعله أنه من فلورندا ، وكثيرا ما كانت ترسل اليه الكتب فيه ، فأسرع الى الكيس وتناوله وسأل يعقوب عمّن حمله اليه ، فقال : « أحد خدم القصر الملكي »

وكان قد شرع في فضّه قبل أن يسمع الجواب. فلما فتحه أخرج منه قطعة من الخشب مربعة الشكل ، قد كسى سطحها بالشمع وكتب عليها حفرا بقلم من حديد — وهذه من وسائل المكاتب في تلك الأيام قبل أن يخترع ورق الكتابة بأجبال (١) — فتناولها وتحول نحو النافذة وقد نسي وداع عمه وأخذ يتلوها بنفسه ، ولم يكد يصل الى آخرها حتى ارتعشت أنامله وتغيّرت سحنته. وكان أوباس قد توسّم في الكتاب شيئا جديدا فتغافل عن ألفونس ريثما يقرأ مكتوبه ، لكنه ما لبث أن رآه يقلّب تلك الصحيفة ويعيد تلاوتها وهو يوجهها نحو النور الداخلى من النافذة ويتفرس في الكتابة بعينه ، كأنه يشك في كلماتها ، وقد امتنع لونه وارتعدت أنامله وظهر الغضب في أسرته ، فظل أوباس ينظر اليه

(١) دائرة المعارف البريطانية « باليوغراف »

ثم أغلق الباب ليخلو بالفونس ثانية . فشعر ألفونس بالباب وهو يغلق فانتبه ، ونظر فإذا عمه يمشى نحوه بكل هدوء وسكينة ، وكان نظره اليه قد خفّف ما قام في نفسه على أثر تلاوة ذلك الكتاب ، وقد حاول التجلد تشبها بما كان عليه عمه من سعة الصدر ، ولكن التأثير كان قد غلب عليه . وتقدم نحوه عمه ويده تلك الصحيفة فقدّمها له وهو يقول : « ويلاه لا تنجو من شر الا وتقع في شر أشد منه وكل مصائبنا من ذلك المختلس السافل .. » فمد أوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة وتفرس فيه ، فإذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بألفاظ قوطية ^(١) حفرا في الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه :

« حبيبى ألفونس

« ان الأمر الذى خفته من انتقالى الى هذا القصر قد أوشكت على الوقوع فيه ، فأنا في خطر من برائن الأسد الا اذا أسرع الى انقاذى . أنت تزعم أنك تحب فلورندا فأسرع الى انقاذها قبل أن تفوت الفرصة .. والا فإن ما بقى من حياتها لا يتجاوز ساعات قليلة ، اذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر . فإذا لم يكن لى نصيب من النجاة فانى أستودعك الله وأطمئنك أنى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر . أذكرنى بين يدي أهلى . وموعدا الأعماد السماوية فى أحضان الآباء القديسين

« كتبته فلورندا المسكينة »

وما أن فرغ أوباس من قراءته حتى بدا عليه التأثر أيضا ، ولكنه كان أثبت من الفونس جأشا وأصبر على الطوارئ ، وقد أحس أنه مسئول عما قد يصيب فلورندا من سوء ، وهو الذى وضع عربون الخطبة بينها وبين الفونس ، ولكن الفونس لم يعد يستطيع صبرا فقال : « اعذرني يا عمّاه فقد نفذ صبرى ونسيت كرسى الملك وأنت الذى باركت عربون الخطبة بيننا ، فأنت مطالب باتمام العقد فضلا عما أنت مكلف به من ذلك بواجب القرابة . ومهما يكن فى الأمر من شيء فانى أطلب اليك أن تمدنى برأيك » ..

فالتفت اليه بهدوء ورزائة ويده على لحيته يسرحها بأصابعه وقال : « طب نفسا يا ولدى ، اننى سأخرج فلورندا من قصر الملك وهى بخير ان شاء الله » .. ثم أطرق وأعمل فكره وهو يصعد بحاجبيه ، ثم يقظهما بما يدل على استغرابه وحيرته ، ثم قال : « انى لأعجب من أمر هذا الرجل وانشغاله عن أمور رعيّته بما لا يرضى الله ولا عبيده ، وأعتقد أن ذلك من الأدلة القاطعة على قرب سقوطه وذهاب ملكه ، لأن الله لا يؤيد ملكا يخالف وصاياه » . وكان الفونس غارقا فى بحار الهواجس وقلبه ينتقد غيرة على فلورندا . وحين تشاغل عمّه عنه بمناجاة نفسه أخذ يعيد النظر فى كتاب فلورندا فوقف بصره على قولها : « انى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر » وفكّر فيما ينطرى تحت هذه العبارة من المعانى المثيرة للغيرة . ثم سمع عمّه ينادى : « يعقوب .. »

فدخل وقبعته في يده وقال : « لييك يا مولاي .. »
فقال أوباس : « هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يمكننا
أن نثق في أمانتهما اذا كلّفناهما بمهمة ولو كانت ضد هذا الطاغية
صاحب كرسي طليطلة اليوم »

فقال يعقوب : « أنا يا سيدي .. »

فقال أوباس : « اننا ندخرك لأمر آخر ، ولكننا نحتاج الى
شابين أو ثلاثة أنت تثق في أمانتهما ونشاطهما وبسالتهما ، لأن
الأمر الذي سنكلفهما به يحتاج الى الاقدام والشجاعة والأمانة »
فأطرق يعقوب وقد أمسك بطرف لحيته وجعل يفتله بين السبابة
والابهام ، حتى أصبح مثل طرف الحبل لما يتخلل الشعر من
الأوساخ .. فعل ذلك وهو مستغرق في التفكير : ثم حرك أنامله
بغثة فأعاد اللحية الى ما كانت عليه ، والتفت الى أوباس وفي
وجهه أمارات البشر وقال : « قلّما أثق بأحد من هؤلاء وان يكن
معظمهم نشأوا في بيت مولاي وعاشوا على مائدته ، لأن الانسان
أضعف من أن يضحّي بنفسه في سبيل الوفاء والأمانة . ولكنني
أعرف اثنين فقط أظنهما أهلا لهذه الثقة »

فقال أوباس : « ومن هما ؟ »

قال يعقوب : « هما أجيلا وشنتيلا »

فقال أوباس : « وكيف اخترت هذين وليس أحدهما ممن
ربّي في بيت الملك ؟ .. »

فقال يعقوب : « اخترتهما لاعتقادي بقدرتهما على هذه المهمة

ولأنهما لا يزالان طامعين في العلى .. اذ لا يخفى على مولاي انهما كانا من طبقة العبيد ، وقد حررهما أخوك قبل وفاته وألحقهما بحاشيته لما آسنه فيهما من الكفاءة والشهامة . وقد ظهر لى بعد تحررها من العبودية أنهما يطمعان فى الرقى ، شأن من يذوق طعاما لا يعرفه فاذا استطابه زاد فى اشتهاه فيطلب المزيد منه . وأما من تعود طعاما حلوا فقلما يستزيد منه . وهذان الشابان ولدا فى مهد العبودية ، ونفساهما من أنفس الأحرار ، وقد لمس الملك المرحوم عظم نفسيهما فى حديث يطول سرده فمنحهما الحرية ، وألحقهما بحاشيته ، وهما الآن يتطلعان الى التقدم ، فاذا كان فى المهمة التى تنتدبهما لها ما يطمع فى ذلك ، استماتا فى سبيلها والا اعتذرا عنها ، وهما لا يخونان ... »

فقال أوباس : « أراك بارعا فى فلسفة الأخلاق .. فاذا كان الغروب ، تعال الى منزلى وهما معك »

قال ذلك وحثول وجهه الى الفونس ، ففهم يعقوب أنه يطلب خروجه فخرج.. أما الفونس فكان قد عاد الى هواجسه ، فلمّا أقبل عنه اليه قال له : « بماذا نجيب على هذا الكتاب ؟ » قال أوباس : « أكتب اليها أن تكون على أهبة السفر فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وانك ستنتظرها فى القارب بجانب القصر »

فتناول الفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليه

أيضا (١) وكتب اليها ويده ترتجف ما معناه :
« الى مليكة القلب فلورندا »

« لبنيك يا حبيبتي .. اني موافيك في القصر في الساعة الثانية
من الليلة القادمة ، فتهيئي للخروج بما تستطيعين جملة ، واشرفي
من النافذة المطلّة على النهر ، فاذا رأيت نورا مثلثا فاعلمي أنني
في انتظارك . تشددي وقوى قلبك ولا تخافي
« كتبه محبّك الذي يفديك بروحه »

وطوى الكتاب وخاطه ، وجعله في الكيس الأرجواني وختمه
ودفعه الى يعقوب ليعيده الى الرسول الذي جاء به ، ويوصيه
بالاحتفاظ به لئلا يطلع عليه أحد . فتناول يعقوب الكتاب وخرج

- ٢١ -

كتاب آخر

وكانت الشمس قد تجاوزت الأصيل فأخذ ألفونس يتأهب
للخروج مع عمّه الى منزله للتشاور هناك فيما يفعلونه ، ومع
شدة ما أصاب ألفونس من البغّة فانه ظل مستغريا ما سمعه عن
يعقوب من الأسرار الخفية ، وكان الطقس قد تبدّل فغامت
السماء واشتدّ البرد .. فلبس ألفونس قباء من الفرو السميك
والتف عمّه بردائه الأكليريكي وكان البرد قلما يؤثر فيه . وفيما

(١) دائرة المعارف البريطانية

هما يتأهبان للخروج وكل منهما يفكر في أمر على حدة ، ففتح الباب بغتة ودخل يعقوب وفي يده اسطوانة من جلد بلون القرمز ، فعلم أوباس أنه فيها كتابا من رودريك . وكانت كتبه الى عماله وأمرائه تكتب على الجلد وتلف وتوضع في أسطوانة من جلد العجول مدبوغ بلون القرمز ، فلما وقع نظر ألفونس على تلك الاسطوانة تقدم لاستلامها ، فاعترضه عمه وتناولها وقال ليعقوب : « من جاء بها ؟ »

قال يعقوب : « جاء بها شرذمة من فرسان الملك ، وقد سألتني رئيسهم عن سيدى ألفونس .. هل هو هنا ، فأردت استمهاله لأعود اليه بالجواب ، فابتدرني قائلا : أخبرنى حالا فانى مأمور بتسليم هذا الكتاب اليه على جناح السرعة حيثما كان . فقلت : هو هنا . فدفع التى الكتاب وقال : انه ينتظر .. »

فنظر أوباس في خاتم الاسطوانة فاذا هو خاتم الملك نفسه ففضضه وأخرج الكتاب ، فاذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الأوامر ، وكانت الرسالة ملفوفة على نفسها فنشرها وقرأ ما فيها ، وألفونس واقف الى يساره ، فاذا هى أمر رسمى من رودريك اليه يقول فيه ما معناه : « من رودريك ملك القوط

الى الشجاع الباسل عزيزنا ألفونس : سلام .. وبعد فقد بلغنا أيها العزيز أن بعض العبيد والموالى فى كوتيتة ... قد تمردوا وتضامنوا على مقاومة حكومتنا هناك ، فاذا جاءك كتابى

. ٨٣

هذا فأسرع الى مقر جنودنا في طليطلة ، فان فرقة من الجند في انتظارك لتذهب تحت قيادتك الى تلك المدينة لاختماد الثورة ، ولا بد من العجلة ، ويدلك على استعجالنا أننا كتبنا هذا الأمر في يوم العيد الذى لا يجوز العمل فيه ، فان كنت واقفا فلا تجلس ، وان كنت ماشيا فلا تقف قبل انفاذ أمرنا هذا ، والسلام «كتب في قصر طليطلة في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٧١٠» ..

وما جاء ألفونس على آخر الكتاب حتى اسودت الدنيا في عينيه وصاح لشدة هياجه : « لا أذهب الى مكان .. لا أذهب .. » فالتفت أوباس اليه لفظة الاستصغار، وقال له : «كيف لا تذهب؟ وهل تستطيع ذلك؟ .. ألا ترى انه كتب اليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة ، فاذا عصيت أمره سببت لنفسك البلاء .. » قال ألفونس : « وأى بلاء أسببه لنفسى ؟ .. »

فقال أوباس : « اذا تخلّفت عن المسير اتهمك بالعصيان وأمر بالقبض عليك ، فهل عندك من الرجال ما تدفع به قوة الحكومة الآن ؟ وعندئذ تكون النتيجة ايقاع الأذى بك وبنا جميعا لأن المجمع المقدس يجد مسوغا لذلك بعصيانك . فالحكمة تقضى علينا باللين والمسايرة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ... »

ولم يكن ألفونس يجهل ذلك ، ولكن غضبه لفلورندا ولخروجه من طليطلة وهى في ذلك الضنك أغلق ذهنه . فلما سمع كلام عمه قال له : « ولكن ما العمل ؟ كيف اجتمع بفلورندا ؟ .. »

فقال : « أترك أمرها اللى .. فانى أتولتى انقاذها الليلة وأخفيها
فى مكان ثم أكتب اليك حيثما تكون ، وسنرى ما تأتى به
الأقدار .. ولا تجزع ، بل أبشر بما ترجوه من وراء سفرك هذا
من تمهيد السبيل لمشروعنا ، وتوكل على الله ، وعسى أن تكرهوا
شيئا وهو خير لكم »

فالتفت ألفونس الى يعقوب وقال له : « قل لحامل الرسالة
اننى ذاهب بعد قليل ... »

فقال : « قلت لك يامولاي انهم كوكبة من الفرسان ، وقد
علمت أنهم مكلفون أن لا يعودوا الا بك »

فقطع أوباس كلام يعقوب وقال لألفونس : « اذهب يابنى .
اذهب الآن وسأتولى أنا كل شيء فى غيابك ، ولكن أنصح لك
أن تصطحب يعقوب وتعتمد عليه وسوف يطلعك على أمور
تهمك .. »

فقال يعقوب : « سمعا وطاعة .. » وأسرع الى ثيابه فلبس
منها ما يصلح للسفر ، وكذلك فعل ألفونس ، وخرجا وألفونس
يتجالد وقد ألقى كل حملة على عمته ..

- ٢٢ -

عود الى القصر

فلندع ألفونس يتأهب للسفر ولنعد الى قصر رودريك ، الى

حيث تركنا فلورندا في غرفتها تفكر في أمرها بعد أن فرغت من الصلاة وألقت حملها على الله ، وكان رودريك قد خرج من عندها وهو يضمر لها الشر العاجل . وكان أول ما عمل أنه لقي الأب مرتين في غرفته يتلو بعض الصلوات ، وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك الى قصر فلورندا ، وتحقق انه لن يعود من هناك الا وهو على نيّة التخلص من ألفونس أو ابعاده . فلما لقيه عائدا آنس الغضب والانفعال في عينيه وجبينه ، حتى لقد يعجب من يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة ، وهو اذا غضب لا يبالي أن يقتل المئات ، ولكن الحب .. الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل .. الحب يذل الأسود ويأسر الجبابرة ، وهو الذي يبعث على الشفقة والعطف . فاذا رأيت رجلا في خلقه جفاء وخشونة فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد . نعم ان حب رودريك لم يكن خالصا من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره على القلب ، لأن سبب الحب واحد ، ولكنه يظهر في الناس مختلفا باختلاف أخلاقهم وأحوالهم . ولا يبعد أن يكون رودريك قد همّ بقتل فلورندا وهي تعنفه وتقاومه ، ولكنه أمسك طمعا في استرضائها واستبقائها . فتحمل من آثار الكظم ما ظهرت علاماته في وجهه حتى خيّل لمرتين - حينما رآه - انه في أشد حالات الغضب ، فاستقبله ضاحكا.. فتجلد رودريك وحيّاه وهو يحاول عبثا اخفاء انفعاله ، فلم ير خيرا من أن يشاغل الأب بالحديث ، فقال له وهو يظهر الاستخفاف : « يظهر ان لذلك الغلام مأربا

في بعض أهل القصر »

فأجاب الشيخ وهو يتلجلج : « كأني بالملك لم يفهم اشارتى الى ذلك في هذا الصباح .. »

فقال رودريك : « بلى فهمت .. ولكننى .. » وسكت فأدرك القس أنه يضر شيئاً فظل ساكناً وهو ينقر بسببته على شفته الغائرة ، وعيناه تنظران الى الملك كأنه يتوقع تنمة حديثه . أما رودريك فلم ير بأساً من اطلاع مرتين على قصده ، ولا عجب فهو مستودع أسرارهم ، الا سر حبه فلورنذا فانه كان يكتمه حياء من الناس وخوفاً من زوجته .. ثم هو يعلم مقدار سيطرة القسس على النساء ، فخاف أن يقع حبه لدى القس موقع الاستهجان فيطلع الملكة على ذلك فتقف في سبيله . على أنه أراد اطلاع مرتين على ما بقى من عزمه فقال : « أرى أن أسعى في إبعاد هذا الشاب عن هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر وأهله .. » فطأطأ الشيخ رأسه استصواباً كأنه رأى الجواب في تلك الإشارة أهون عليه من الكلام .. ثم قال : « وإذا أبعدته فقد ننتفع بخدمته وتخلص منه . ولكن الحيئة لا تموت اذا ظل رأسها سالماً .. »

فعلم رودريك أنه يشير الى أوباس ويود إبعاده .. فقال : « ان إبقاء رأس الحيئة بين أيدينا أسلم عاقبة لنا ، ولا سيما اذا كان الذنب بعيداً » ففهم مرتين اشارته وسكت

فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب ، وبعث به الى الفونس .

كما تقدم وصبر حتى أنبأوه بتنفيذ أمره ، وأن ألفونس جاء الى المعسكر وتهيأ للسفر . وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وأقبل الظلام وكان اقباله زاد الملك تعاميا عن فظاعة ما نواه ولم يعد يستطيع صبرا الى اليوم التالي ، فتناول طعام المساء مع زوجته وأكثر من تعاطى الخمر على تلك المائدة ليدارى ما ثار في نفسه من النيران الشيطانية

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفه ، ودارت الخمر في رأسه ، وتحول توا الى غرفته ، والقس لا يزال على المائدة مع زوجته . وعندما دخل رودريك الغرفة ، أغلق الباب وراءه ، وفتح الباب الآخر وسار في الدهليز نحو غرفة فلورندا

أما فلورندا فكانت بعد اعمال الفكرة قد كتبت ذلك الكتاب الى ألفونس ودفعته الى العجوز ، فأرسلته مع خادم تعتقد في اخلاصه ، وعادت وليست تنتظر الجواب ، فشغلها الانتظار عن كل تفكير . فقضت في الانتظار ساعة ظنتها شهرا أو سنة ، فكانت تارة تطل من الباب ، وأخرى من النافذة المشرفة على النهر ، وآونة تدعو خالتها وتستفتيها في سبب التأخير ، وهي تهوّن عليها . حتى عاد الرسول بذلك الجواب فخفق قلبها سرورا ، وأول شيء فعلته انها قبّلت الايقونة وشكرتها على اجابة صلواتها، وأخذت تجمع ما خفّ حمله من الحلّى ونحوها ، والعجوز تساعدتها حتى غابت الشمس . وعند ذلك تركت فلورندا كل شيء وتحولت الى النافذة وجلست اليها ، وأرسلت بصرها الى

مجرى النهر تنتظر ظهور النور المثلث مع علمها ان الموعد المحدد لا يزال بعيدا . ولكن القلق أوهمها أنه قريب . وكان الطقس قد برد وتلبّدت الغيوم فأغبرت السماء وعصفت الرياح وأومض البرق وقصف الرعد ، ولم يمض قليل حتى تساقطت الأمطار . ولكن ذلك كله لم يشغلها عن التفرس في النهر وركبتها ترتعدان أملا وفرحا .. وكانت كلما لاح برق ظنته مشعال حبيبا . وقد تفرج الغيوم فيقع بعض ظل الكواكب في مجرى النهر فتحسبها قورا مثلثا ، وربما كانت عشرين كوكبا فتظن تعددها ناتجا عن تكسر سطح النهر بالأمواج ، أو تتوهم ان السبب في ذلك هو اعتراض بعض أغصان الحديقة بينها وبين النهر ، وبخاصة الأغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة

- ٢٣ -

تجربة أخرى

وفيما هي تعلّل نفسها بقرب الفرج ، وقد وجّهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر ، اتبّعت بغتة قسّمت وقع أقدام رودريك في الدهليز ، فخارت قواها وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها .. وأحسّت على الفور بما يحرق بها وكانت في غفلة عنه ، فجلست على البساط وجعلت تتضرع الى الله أن يساعدها وينقذها هذه المرة . ولم تجد الا

خالتها فقالت لها : « أليست هذه هى خطوات الملك ؟ .. » ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز ثم عادت وهى تقول : « الملك يدعوك الى تلك الغرفة .. »

فصاحت فلورندا : « ويلاه ما هذا المصاب ؟ .. يا الهى .. » ولطمت وجهها وأخذت فى البكاء

فتقدمت العجوز اليها وجعلت تخفّف عنها وهى لاتدرى بماذا تعزيها هذه المرة .. على انها لم تر خيرا من الرجوع الى العزاء الأكبر وهو - الدين - فقالت : « توكل على الله فهو الذى أنقذك فى المرة الماضية وسوف ينقذك الآن ، وما ذلك على الله بعزيز .. »

وكانت فلورندا من أهل الايمان الوطيد ، فتضرعت الى الله أن يعينها هذه المرة أيضا ، والتفتت الى خالتها وقالت لها : « أتوسل اليك يا خالة أن تصلّى من أجلى وتطلبى الى الله أن ينقذنى من هذه التجربة »

فقالت : « سأظل هنا جاثية أمام هذه الايقونة الى حين رجوعك لأنى لو صحبتك ما نفعتك ، ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده »

فاطمأن بال فلورندا لهذه العبارة .. ومشّت كالشاة وهى تساق الى الذبح .. مشّت وهى تقدم قدما وتؤخر أخرى حتى دخلت تلك الغرفة . وكان رودريك جالسا فى صدرها جلوس من لا يهمه التهوض ، ورأت فى وجهه من دلائل الغضب ما لم تراه فى المرة

الماضية ، وقد احمرت عيناه واربد وجهه من أثر الحمر، وتتابع
أنفاسه واشتدت حتى أصبح شخيرا . فظنت فلورندا لأول وهلة
أنها ترى هذه الملامح في وجهه بسبب نور المصباح وهو ضئيل .
ولكن حين وقعت عينها عليه أسرع قلبها بالخفقان .. ولكنها
استعانت بالله وتجلدت وتقدمت حتى وقفت على بضعة أذرع منه
وأطرقت . وكانت قد صفرت شعرها ومشطته وغيّرت ثوبها
تأهباً للسفر . فرأى رودريك فيها ما زاد شغفه بها ، وتضاعف
ذلك الشغف حين نبّه الحمر غرائزه ، فخطبها وهو لا يزال
جالسا وقد مد ساقيه وبسط ذراعيه على الوسائد في الجانبين ،
فقال : « هل حَدَّثتك نفسك بشيء جديد ..؟ »

فظلت ساكنة ، ولكنها بالغت في الاطراق ..

فأعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيه كأنه يتحفز للنهوض فقال :
« أجيبى يا فلورندا ... يظهر أنك أدركت السعادة التى أدعوك
اليها . وبخاصة اذا علمت أنى أنقذتك من يدى ذلك الغلام الذى
كان يغريك على حبّه وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك .. »

فلما سمعت ذلك خافت أن يكون قد دبّر شرا لألفونس
فرفعت بصرها اليه ، وتفرست فيه كأنها تستكشف مبلغ ظنها ،
ولكنها ردت بصرها عنه لأنها توسمت في عينيه معنى ارتعدت له
فرائصها . رأت شيئا لو سئلت عنه ما استطاعت أن تسميه بغير
« الشر » ، ولكنها عادت الى الاطراق وفي خاطرها أن تسمع منه
ما يظهر الحقيقة ، فاذا هو قد وقف بسرعة وتقدم نحوها ، وقال

وهو يلعب شاربته بين الابهام والسبابة ثم يسرح لحيته بأصابعه :
« لماذا لا تجيئينى كأنك تخجلين من الندم بين يدي الملك .. لقد
سامحتك على ما مضى » .. قال ذلك ويمناه مرفوعة كأنه يهم أن
يثلقيها على كتفها تحببا

أما فلورندا فلما رآته يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها
تتحاماه ، ونفرت منه كأنه ذئب كاسر يهم بافتراسها . فتراجع
رودريك وأظهر الاستغراب وهو يقول : « ما بالك تنفرين كأنك
تخافين الأذى ، وأنا انما أتقرب اليك وأبغى رضاك ... »

وكانت فلورندا لا تزال في ريب من أمر ألفونس ، فأرادت أن
تتحقق من ظنها .. وكانت الأمطار قد اشتد تساقطها ، واختلطت
أصواتها بأصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف
وقصف الرعد ، وفلورندا في غفلة عن كل ذلك لشدة ما قام في
نفسها من الخوف ، على انها لما أرادت أن تخاطبه تنبهت ، فوجدت
كل ذلك يحول بين صوتها المنخفض وأذن رودريك ، فقالت
بصوت عال لكنه مرتعش : « قد قلت لمولاي الملك ان هذا
الموقف ليس موقفي ، وان الله قد جعل نصيبي سواه ... »

فقال لها : « كأنك لم تفهمي كلامي . قلت لك ان الغلام الذي
تقولين عنه انه نصيبك قد مضى ولا سبيل اليه ... »

فلما سمعت قوله ، توهمت أنه قتله .. فصاحت في ذعر وهي
ترتعش وقد أحست كأن شخصا صب ماء يغلي على جسمها :

« ماذا تقول ؟ .. ماذا فعلت بألفونس ؟ .. ماذا ؟ .. ماذا ؟ .. هل قتلته ؟ .. »

- ٢٤ -

الاستنجاد

فلما رأى رودريك ما أصابها خاف أن يقضى عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسه ولو ساعة ، فقال : « ما هذه البغته يا فلورندا .. ماذا فعلت بألفونس .. لا .. لم أقتله ولكنه بين يدي وحياته طوع ارادتي اذا شئت قتلته بكلمة واحدة وأنا لا أخطو لذلك الا خطوة واحدة.. يظهر أنك لاتزالين تجهلين من هو الذى يخاطبك ومن هو ذاك الذى تقولين انه نصيبك . نعم انى لم أقتله بل اكتفيت بإبعاده ، ولكن اذا بقيت على اصرارك فانى أقتله . واذا ظللت على غيئك بعد قتله أقتلك أنت أيضا ، وأنا الآن لا أسترضيك ولا أستعطفك بعد ما رأيته من وقاحتك ، واعلمى ان هذه الساعة هي الحد الفاصل بين تمنعك وبين ما أريد . » قال ذلك بصوت عال ومشى مسرعا الى باب الغرفة وأغلقه ثم رجع وهو يقول : « فاخترى اذن الباب الذى تريدينه واخرجى منه . » ثم ألقى بنفسه على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنه ثور يخور ، وقد زادت عيناه احمرارا وأوداجه انتفاخا أما فلورندا فلما سمعت تصریحه بالمنكر ، وثبت لديها قرب

الخطر ، التفتت الى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع أو تستنجد برفيق .. فعلت ذلك وهي لا تعلم لماذا فعلته ، وهمت بالجواب . فقطع رودريك كلامها قائلاً : « عمن تبحثين ؟ اننا في غرفة ليس معنا ثالث . وليس على وجه الأرض من يستطيع أن يحول بيني وبين ما أريد .. فاقبلي طائعة ، فانه أحفظ لحياتك وأدعى الى سعادتك » ..

وكانت فلورندا حين سمعت قوله : « وليس معنا ثالث » قد تذكرت ما كانت تقرأه وتسمعه من آيات الكتاب المقدس ، وأن من يتوكل على الله لا يفشل ، وان الله موجود في كل مكان . وقد تقدم أن فلورندا كانت من أقوى الناس ايمانا ، فأحست للحال باطمئنان وكأنها محاطة بزمرة من الملائكة يحرسونها ، وتشجعت ونظرت الى رودريك وهي تنغرس فيه ، وقالت : « تزعم أننا منفردان وأن الجو خال لك ، وقد فاتك أن الله موجود في كل مكان ، لا يدع لأحد سلطانا يغلب سلطانه ، ثم انى سمعتك تهددنى بالقتل .. فاقتل ، ثم اقتل .. اقتلنى فانى لا أبالى بحياتى . ولكن أتوسل اليك أن لا تمس ألفونس بسوء .. آه يا الفونس .. » قالت ذلك وقد خنقتها العبرات ، وأطلقت لنفسها عنان البكاء

فلما سمعها رودريك تبكى لم يزد الا حنقا ، وبخاصة بعد أن سمع ذكر ألفونس . على أنه لما رأى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبيبها ورغبتها في بقاءه ، تراءى له أن يعرض عليها استبقاءه فقال : « اذا كانت حياة ألفونس تهمك بهذا المقدار ، فانى اكراما

لعينيك أبقيه وأرقّيه وأجعله من أسعد أهل طليطلة .. ولا يكلفك ذلك الا أن تقلعي عن عنادك »

فابتسمت استخفافا بذلك الرأي ، وقالت : « ان الأمر الذي يرضيك منى أن أبذله انما هو أثمن ما لدى في هذا العالم .. أثمن من حياتي .. بل أثمن من ألفونس .. من الفونس نفسه ، لأنى بدون ذلك الاكليل المجيد ، بدون تلك الجوهرة الثمينة ، لا أستحق نظرة من ألفونس ولا من سواه .. بل أنا لا أساوى شيئا . وهل تظننى - لولا ذلك - أستطيع مخاطبة الملك بهذه الجرأة ؟ » ..

فرأى رودريك أنها تطيل الجدال ، وهو لا يجد ما يدفع به حجتها ، ولا هو يريد الاقتناع بقولها ، لأن ميوله البهيمية غلبت على عقله وارادته ، وقد يكون - وهو يجادلها ويراودها - مقتنعا بأنه يلتمس أمرا منكرا ، وأنها محقة في توبيخه . ولكنه لا يملك عنان شهواته .. وفي هذا الموقف الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة .. لأن الناس يتشابهون في ميولهم الجسماية ، وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة . ولكنهم يتفاضلون بقوة الارادة على كبح الشهوات والعمل بما يقتضيه الضمير في مثل ذلك الموقف .. وأقربهم الى الفضيلة أقواهم ارادة . فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم . ولكنهم يفضلونهم بالقدرة على ضبط عواطفهم برهة قد لا تزيد على بضع دقائق . فاذا استطاعوا

ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر وعاشوا في راحة وسعادة ،
يدل على ذلك أن الذين يعجزون عن كبح شهواتهم فيستسلمون
لأهوائهم لا يلبثون أن يتدموا حين لا ينفع الندم

- ٢٥ -

اليأس

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الارادة ، فلما سمع تقرير
فلورندا أدرك خطأه .. ولكنه تجاهل وتعامى وتصامم وعاد الى
المغالطة فأظهر الغضب ووقف بغتة ، وقال لها : « أراك تريدين
المدافعة بغير فائدة ، ولم يبق لى صبر على أقوالك.. ألا تشعرين
بما تعرضين نفسك له من الخطر ؟.. ومع ذلك فما لا يمكن أن
قتاله برضائك لا بد منه برغم أنك » قال ذلك ودنا منها وقبض على
ذراعيها ويده ترتعش ، فاقشعر بدن فلورندا وأحست كأنه مسك
ذراعيها بقبضة من حديد فصاحت : « ويلك يا ظالم .. تبا لك
يا فاسق .. ألا تخاف يوم الحساب ، ألا تخاف الله .. قبَّح الله
ملكا يتولَّى انصاف المظلومين وهو أكبر الظالمين . ولعن الله رجلا
يزعم انه أقيم لكبح جماح المتمردين ، وهو لا يقوى على كبح
شهواته » . ثم أرسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الأخرى ،
وقالت : « اليك أتوسل أيها المخلص الحبيب .. وأعوذ بك من
هذا الظالم الخائن »

وكان رودريك في أثناء ذلك يحاول أن يمسك بيدها الأخرى وهي تحاول التخلص منه ، فاقترب منه من وجهها فاشتتت رائحة الحمر ، فهتت أن تقول شيئا ، فاعترض قولها رعود قاصفة ، توالت بضع ثوان أعقبها صوت صاعقة انقضت بالقرب من ذلك المكان فارتج لها القصر من أساسه ، ونفذ وميض البرق من شقوق النوافذ كأنه حراب من نار . فكان لتلك الحركة تأثير شديد على نفس رودريك شغله لحظة عن فلورندا ، وتولاه الرعب لأنه توهم لأول وهلة أن القضاء يتهدده .. كما يفعل بعض الذين يربون في مهد الدين ، فيعتقدون أن الأقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم وأن الطبيعة لا تعمل عملا الا وهي تتعمد به خيرهم أو شرهم ، اما ثوابا على حسنة ، أو عقابا على سيئة . وربما اعتبر بعضهم العمل الواحد تارة ثوابا وطورا عقابا تبعا لما يوحيه اليه ضميره . والضمير يندر أن ينخدع الا أن يكون قد مات بتوالي ارتكاب المنكرات أو غلب عليه تيار الشهوات ، كما أصاب رودريك لما سمع قصف الرعد وانقضا الصاعقة ، فانه تهيّب لأول وهلة، وامتقع لونه واختلج قلبه.. ولعله ندم وعوّل على الرجوع عن قصده . على أن ذلك الحاطر لم يمر في ذهنه الا مرور البرق الى ما كان عليه

وأما هي ، فانها اغتنمت تلك الفرصة ونزعت يدها من يده ، وقد اعتبرت انقضا تلك الصاعقة نصيرا لها عليه ، اجابة لصوت دعائها ، فالتفت اليه وهي تقول : « ألا تعلم أن في الكون

من ينتصر للضعيف على القوى .. ألا يستطيع ذلك الجبّار أن ينزل عليك وعلى قصرِكَ صاعقة تذهب بكما الى الفناء العاجل؟» فأفحم رودريك لما رأى الأقدار تزيد حجة فلورندا عليه ، ولكنه اعتبر نفسه في موقف انتقام ، ولم يزد الا تماديا في غرضه فتقدم اليها وقبض باحدى يديه على كتفها ومد يده الأخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها بقدمه ... فتشددت هى وجذبت نفسها من بين يديه ، فأفلتها بالرغم عنه لأنه لم يكن قد أمسكها بكل قوته.. فلما أفلتت منه اشتد غضبه ، فهجم عليها هجوم الثور وهو لا يبالي بما يكون من أمرها

فلما رآته فلورندا قد هجم عليها والشرر يتطاير من عينيه لفرط غضبه أيقنت بالخطر العاجل ، فعولت على الالتحار قبل وصوله الى ما يريد ، فجثت على ركبتها ورفعت بصرها الى السماء كأنها تستغيث .. وهى لاتزال الى تلك اللحظة تعتقد ان العناية الالهية لاتتخلّى عنها .. ولكنها لما رأت رودريك يكاد يصل اليها ، أسرعت هى فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمت أن تخنق نفسها وهى تقول : « الموت .. الموت خير من العار .. اليك أسلّم روحى يا مخلّصى الحبيب » . قالت ذلك وضغطت على خنجرتها فانجس الدم فى وجهها وجحظت عيناها ، فعمد رودريك الى رفع الضغط فأمسك يديها وشدهما فأبعدهما عن عنقها ، وكانت قد خارت قواها فسقطت ، وقد استرخت عضلاتها واستلقت على ظهرها لا حراك بها ..

- ٢٦ -

رشؤها بالماء

فلما شاهدها رودريك في تلك الحالة تنبّهت فيه الحاسة البشرية لحظة ، وعمد الى تلطيف ما بها فجثا بجانبها وأمسك يدها وأنهضها يريد اجلاسها لتصحو من غيبوبتها .. فاذا هي لا تزال مغمضة العينين مسترخية الأعضاء فخفق قلبه وتحرك ضميره ، وتوهم انها ماتت أو كادت تموت ، فتركها وأسرع الى الباب لعله يجد ماء فيرشها به . ففتح الباب وتوجه الى حجرة فلورندا ، فاستقبلته العجوز وهي خارجة من الحجرة وقد بغت منذ سمعت فتح الباب ، لأنها كانت لا تزال الى تلك اللحظة جاثية تصلّى وهي تطلب نجاة فلورندا من هذا الخطر . وكانت وهي مستغرقة في الصلاة لا تسمع شيئاً مما حولها ، وقد أقفلت النافذة المطلّة على النهر لتجنب عنها العواصف ، فلم تنبّه لقصف الرعد وهبوب الرياح الا كما يشعر الراقد بصوت يسمعه بين اليقظة والنام . ولكنها حين سمعت فتح الباب تنبّهت كأنها استيقظت من نوم ، وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغته بادية على وجهه وقال : « التي بكوب من الماء .. اسرعى حالا .. » قال ذلك وعاد الى الغرفة ، فتبعته العجوز بالكوب وركبتها ترتعدان من الخوف على فلورندا . فدخل رودريك وهو يقول للعجوز : « رشها بالماء » .. فلما رأت العجوز فلورندا ، صاحت : « فلورندا ..

ما الذى أصابك ؟.. » وأسرعت فرشتها بالماء فأفاقت وجلست للحال وهى تنظر الى ما حولها ، فلما رأت رودريك صاحت : « ويلاه انى لا أزال حيّة ، ولا يزال هذا الشرير أمام عيني .. كنت أحسب أنى نجوت منه بالموت .. »

أما رودريك فأغضى عن ذلك ووجهه خطابه الى العجوز قائلاً : « أرايت ما الذى فعلته فلورندا بنفسها لطيشها وغرورها ؟ .. أعرض عليها السعادة فترفضها .. »

فلم تجد العجوز جواباً غير البكاء لأنها توهّمت أن نجاة فلورندا مستحيلة ، على انها لم تجد سبيلاً غير التزلف ، فجثت أمام رودريك وقالت ودموعها تتساقط : « أتوسل الى مولاي أن يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشأنها ، فان فى قصره وتحت أمره مئات مثلاً »

فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها ، فرفضها بقدمه وهو يقول : « ابعدى عني يا عجوز النحس .. وانت أيضاً؟ » فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذى حددته لهما ألفونس ، فقالت فى نفسها : « لعل مع ألفونس رجالاً يصعدون الينا فينقذونها من بين يديه بالقوة » فهرولت الى الحجرة وفتحت النافذة قليلاً فعصفت الريح فى وجهها وبثّلتها المطر ، ونظرت الى جهة النهر فلم تجد نوراً مثلاً ولا غير مثلاً ، فأغلقتها وعادت الى الصلاة ..

أما رودريك ، فأقفل الباب وعاد الى فلورندا وهى لا تزال

جالسة على البساط في الغرفة ، وقد استراحت وعادت اليها قوتها
وتصاعد الدم الى وجهها ، فعاد اليه الاشراق ، ولكن الكآبة ظلت
غالبة على محياها . فدنا رودريك منها وهو يمد يده الى منطقته
ثم أخرجها وهو قابض بها على خنجر يبرق فرنده كأنه يقطر سما
ويده الأخرى شيء كالخاتم يلمع ثم مد يده اليها وهو يقول :
« لقد نقد صبرى يا فلورندا فما أنا أعرض عليك السعادة لآخر
مرة فاما أن تقبليها ، وهذا خاتمي عربون على ذلك ، واما أن أغمد
هذا الخنجر في صدرك في هذه اللحظة .. أجيبي حالا .. »
فنهضت للحال وتصدّرت له وهي تقول : « اغمده .. اغمد
خنجرك في صدري وأرحني من هذه الحياة ، وياحبذا الموت الذي
ألقي به وجه ربّي بريئة طاهرة .. اقتل يا رودريك .. اقتل »
فقال لها : « أمعني الفكر ولا تظني اني أقول ذلك لمجرد
التهديد ، انّى فاعله حالا . وان تعقلت وحققت رغبتى أخذت
هذا الخاتم عربون محبتي لك ، وكنت أسعد بنات طليطلة »
قالت : « وانت لاتظن اني أقول ما أقوله مزاحا .. فاني لا أرهب
الموت فداء عن العفاف والطهر .. الموت خير لى ، الا اذا رجعت
الى رشذك وندمت قبل فوات الفرصة ، لأنك نادم على أى حال .
فاذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لاينفعك ندمك شيئا . واذا
قتلتني فانك بتندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها الا
اصرارها على العمل بوصية الله .. » ثم حولت وجهها نحو السماء
وقالت : « يا أيها المخلص المجيد .. ربّي والهى .. الا كشفت لهذا

١٠١

الرجل فظاعة ما هو مقدم عليه .. أقشع غشاوة الجهل عن عينيه «
فضحك رودريك ، وقطع كلامها قائلاً : « أظنك تتوقعين
قصف الرعد ووميض البرق جواباً على كلامك كالمرّة الماضية ..
لسنا في عصر المعجزات .. »

- ٢٧ -

خطوات غريبة

وفيما هو يريد اتمام كلامه ، وقد أشهر الخنجر يمينه كأنه
يهم بأن يطعن بها ، سمع وقع أقدام غريبة في دهليز القصر ..
فأنصت فسمع تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهي تسرع ،
فخفق قلبه واقتصر بدنه ، وعاد اليه الاحساس الدينى الذى ربّئى
فيه .. فخیل له أن الله استجاب لدعاء فلورندا ، فأرسل بعض
ملائكته لاتقاذها ، لأنه يعتقد أن البشر لا يستطيعون الدخول
الى قصره فى تلك الساعة .. واذا دخلوه فلا يجرؤ أحد على
الوصول الى هذه الغرفة والأبواب موصدة والأوامر صارمة
قضى رودريك وفلورندا لحظات قليلة فى حيرة ، وهما واققان
وأبصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون ، وفلورندا
ترتعش تخشعا وبغته . وأما رودريك فانه رد الخنجر الى مكانه ،
ومشى الى الباب وهو لا يزال يسمع خطوات القادم تقترب ..
وقبل الوصول الى الباب سمع قارعا يقرعه قرعا عنيفا ارتجت له

جوانب القصر وارتعدت فرائص رودريك ، ثم أسرع الى فتحه .
ولا تسل عن دهشته واضطرابه لما رأى أوباس داخلا وهو على
ما يعرفه فيه من الهيبة والرزانة ورباطة الجأش.. دخل والماء يقطر
من أردانه ..

أما فلورندا فتوهمت لما رآته أنه ملاك يلبس ثوب أوباس
وظلّت واقفة وقد ملكت البغته كل جوارحها حتى جف ريقها في
حلقها وأمسكت أنفاسها

أما رودريك فلم يسعه عند رؤية أوباس الا اظهار الدهشة من
جرأته الى هذا الحد ، فقال له : « ما الذى جاء بك الى هنا في
هذه الساعة ؟.. وكيف دخلت هذا القصر بغير استئذان ..؟ »
فأجابه اوباس ، وهو لا يبالى ، كأنه يخاطب غلاما : « أما
الذى جاء بى فهو أمر يهم المملكة سأعرضه عليكم . وأما دخولى
بلا استئذان فجلالة الملك يعلم ان أمثالنا لا يستأذنون فى الدخول
على الملوك أو مخاطبتهم ، وهم يخاطبون الله بلا استئذان .. »

ففهم رودريك أنه يعرض بسلطة الاكليروس وبخاصة الاساقفة
فانهم هم الذين أجلسوه على الكرسي . ولكن أوباس لم يكن
منهم للأسباب التى قدمناها . فسأه ذلك التعريض ، ولكنه كان
يشعر أنه ارتكب ذنبا عظيما ، والمذنب يغلب عليه الضعف
والارتباك ولو كان ملكا ولا سيما بين يدي رجل مهيب مثل
أوباس . فعمد رودريك الى تغطية ذنبه بالمغالطة وقد عَوّل على
أن يصرف أوباس ثم يعود الى فلورندا فقال له : « انتظرني في



« اما روبريك فانه رد الخنجر الى مكانه ، ومشى الى الباب وهو لا يزال يسمع خطوات القادم تقترب . وقبل وصوله الى الباب سمع قارعا يقرعه قارعا عنيفا .. »

الدار العامة ريشما آتيك .. »

قال أوباس : « لو كان الأمر الذي جئت من أجله يحتمل الانتظار ما جئتك في هذا الليل تحت سيول الأمطار » قال ذلك ومد يده نحو فلورندا وهو يظهر انه يخاطب الملك وقال : « واذا فتحت النافذة المطلة على النهر تحققت الأمر الذي قلته لك ، ورأيت الأمطار بل الثلوج تتساقط .. فلو لم يكن مجيئي لأمر ذي بال ما عكرت على الملك راحته . انى لا أخرج من هذا المكان الا معك » ..

وكانت فلورندا كلها آذان وعيون لما يقوله أوباس أو يشير اليه ، فلما سمعت ما ذكره عن النافذة أدركت أنه يشير الى الموعد المضروب لانتقادها ففرحت

أما رودريك فالتفت الى فلورندا وأشار اليها أن : « اذهبي الى غرفتك ريشما أعود » وخرج مهرولا وأوباس لا يغيّر مشيته ولا يكثرث بانهماك الملك واستعجاله . فلما وصل رودريك الى آخر الدهليز تأمل الباب ، فرآه مفتوحا فتذكر أنه نسيه بدون أن يغلقه . فلما خرج أوباس عاد الملك وأغلق الباب وراءه كأنه يحاذر أن يختطفوا فلورندا من بين يديه ، ومشى أوباس لا يكثرث بتلك الحركات حتى وصلوا الى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة فجلس ودعا أوباس الى الجلوس ، فقال : « ان الأمر الذي جئت من أجله لا يصح ذكره في هذه القاعة »

فاستغرب رودريك جوابه وقال : « وأين اذن ؟ .. »

فقال أوباس : « في غرفة منفردة على حدة »
فنهض رودريك وقد ساءه هذا التعتت ومشى معه الى غرفة
منفردة فيها مصباح نوره ضئيل . فجلس وجلس أوباس بين
يديه ورودريك لا يستطيع ضربا عن سماع كلامه فقال : « قل
ياحضرة الميتروبوليت »

فقال أوباس : « جئت بك بأمر دعاني الله أن أبلغك اياه .. »
فأنصت رودريك وأرهف السمع الى ما يقوله . فقال أوباس
بصوت هادئ على جاري عادته : « ان الله خَوَّلَكَ سلطانا
على الناس تحكم فيهم وتنصف مظلومهم وتضرب على أيدي
الظالمين ، فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبه » ..
فبغت رودريك لما في خطاب أوباس من التوبيخ وقطب حاجبيه
اشارة الى استهجانه تلك الجسارة وقال : « هل عندك كلام في
غير هذه الشئون ؟ .. »

فأدرك أوباس انفعاله وانه انما يريد تحقيره ورد التوبيخ اليه
فلم يقبل منه ذلك فقال : « لعلك تظن ما أقوله وهما أو ليس
هو بالأمر الهام »

فقال رودريك وقد ظهر الغضب على وجهه : « لا أرى
ما يسوغ لك الاعتراض على أعمالى في داخل قصرى ، فاذا كنت
تعلم أمرا يتعلق بالحكم بين الناس أو بالأمن العام أو بسياسة
البلاد فتكلم به »

فابتسم أوباس باستخفاف وقال : « ألا تعلم أيها الملك أنك

مستول عن كل حركة تتحركها في منزلك أو في الخارج ؟.. وأن الصعاليك أقرب الى الحرية في تصرفاتهم من الملوك ؟.. انك مؤتمن على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ، وقد أعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها.. أفتتخذة وسيلة لسلبها ثم تتولى سلبها بنفسك ، وإذا جاءك ناصح انتهرته واحتقرته ؟.. هذه أشياء لا تتفق وأخلاق الملوك المؤمنين »

فأعظم رودريك تلك الجسارة وازداد حنقا لرزانة أوباس ورباطة جأشه وقال : « هل كان أخوك المرحوم أقرب الى تلك الأخلاق منى ؟.. »

— ٢٨ —

التمتمة

ففهم أوباس أنه يعرض بضيايع المثلثك من أيديهم تحقيرا له ، فلم يصبر على ذلك ، فقال وقد ارتفع صوته ولكنه ظل هادئا : « دعنا من ذكر الأموات فلهم من يحاسبهم وانما نحن نحاسب الأحياء . على انى ما أظن غيطشة اذا كان حيا يفعل مثل فعلتك .. بل أنا أجله عن الاقدام على مثل هذا المنكر »

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال : « دع عنك ذلك كله فما هو من شأنك لأنى أعلم الناس بواجبى .. » قال ذلك وتحول عنه اشارة الى رغبته فى انهاء الحديث

فظل أوباس جالسا وقال : « لو كنت تعرف واجبك ما أردت

السوء بفتاة طاهرة وأنت زوج . وبدلاً من أن تستغفر عن هذه الخطيئة أراك تدافع عنها »

ثم وقف وأتم كلامه قائلاً : « واعلم يا رودريك أن انشغالك بهذه الأمور وإهمالك كلمة الله ووصاياه من أول الأدلة على قرب انقضاء هذه الدولة »

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولته التفت إليه وهو يقول : « أراك تهددني بخروج المثلثك من يدي . انكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرات ، واستعنتم بقوات السماء والأرض »

قال أوباس : « إذا كان لنا مطمع في هذا المثلثك ، فإن قوات السماء تقدر على نزعها من يدك .. »

ولم يتم أوباس كلامه حتى رأى باب الحجرة قد انفتح ودخل الأب مرتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كأنه يريد الكلام ويمنعه التلجلج من شدة التأثر . ثم نطق فخرج كلامه مقطّعا موصّلاً مختلطاً يشبه قوله : « ت .. ؟ ت .. ؟ ت .. ؟ تهدد جلالة الملك .. ب .. باخراج المثلثك من يده .. ؟ يا للوقاحة وق .. ق .. قلة الأدب .. » ولم يتم الأب هذه الجملة حتى امتلأت لحيته باللعب المتطاير من فمه . فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيته وجعل يذرع أرض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم فأدرك أوباس أنه يتهمه زوراً ليقع الشبهة عليه فسكت استخفافاً ..

وأما رودريك فانه سر لهذه التهمة وتظاهر بالغضب والاقتصار وقال : « لا بأس ، يكفى الآن ما سمعناه من خيرٍ وشرٍ » . قال ذلك وتحول من الغرفة فتبعه الأب مرتين . فنهض أوباس وهو لا يبالى بما رآه وانما كان كل همّه انقاذ فلورندا من بين يديه وكان السبب في مجيء أوباس الى القصر، وكيف دخل، هو انه لما دنت الساعة المعينة جاء أجيلا وشتيلا الى منزل أوباس فأمرهما باعداد قارب للنزول به في النهر ، فنزلوا به فتساقطت الأمطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ، ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدوه - بادىء الرأي - مساعدا لهم على اخفاء خطواتهم ، فوصلوا تحت القصر وفلورندا في الغرفة مع رودريك وخادمتها في الحجرة تصلّى ، وقد أغلقت النافذة فصعد الشابان ومعهما أوباس لا يبالون بالأمطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلورندا عند تلك الشجرة الجرداء ، ولم ينتبه لهم أحد من الحراس ولا الحاشية . فأشار أوباس الى شنتيلا أن يتسلق الشجرة ويقرع النافذة ، فتسلق حتى وقف على الغصن المقابل للنافذة فقرعها بطرف حسامه قرعا خفيفا ثم اشتد القرع ولكن أحدا لم يجه ، لأن العجوز كانت قد خرجت بكأس الماء لترش فلورندا .. فنزل شنتيلا وأخبر أوباس بأنه لم يسمع جوابا

فوقف اوباس برهة يتأمل، وقال في نفسه : « لو كانت فلورندا مطلقة السراح لم يكن ليشغلها عن هذه النافذة شاغل ، فلا بد من أن تكون في ضيق ولا بأس عليها الا من رودريك » فتخيّل

أنها في أشد الخطر وأنه ان تأخر عنها قد يقضى عليها ، فأمر الرجلين أن يربط القارب بجانب القصر ، ويمكننا تحت القصر وحين يسمعان فتح الناقذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلورندا وما معها ..

قال لهما ذلك وتحول الى باب القصر العمومي ، وسأل الحراس عن الملك فقالوا انه في القصر ، فدخل ولم يعترض طريقه أحد لأن الأساقفة كثيرا ما يدخلون على الملوك لمهام خاصة ولا سيما ملك طليطلة ، لأن الاكليروس كانوا أكثر تدخلا في شئون اسبانيا مما في سائر ممالك أوروبا تقريبا ، وعلى الأخص على عهد رودريك لأنه انما تولّى الملك بمعوتتهم ..

نعم ان أوباس لم يكن من الذين اتخبوه ولكن الحراس الواقفين بالباب لا يهمهم التمييز بين أسقف وآخر ، اذ يكفيهم النظر الى الثوب الاكليريكي والزي بوجه عام . على ان هبة أوباس تكفى وحدها لاحترامه واطاعة أوامره وبخاصة في تلك الساعة وقد زاده الاهتمام جلالا ووقارا

دخل أوباس من أبواب القصر الواحد بعد الآخر لا يعترضه أحد حتى وصل الى غرفة الملك ، وكان يعرفها جيدا لأنها كانت لغيطشة من عهد غير بعيد : فسأل الحراس عنه فقالوا : « انه دخل غرفته ولا يدخل عليه أحد فيها »

فلم يبال بأقوالهم ، وكان قد نسيها مفتوحة فدخلها فلم ير فيها أحدا ، ورأى باب الدهليز المؤدى الى قصر فلورندا مفتوحا ،

فدخل ولم يكن في الدار أحد من الخدم ، فمشى مشية من لا يهاب ملكا وجعل يبحث بنظره ، فرأى تلك الغرفة مضيئة وسمع لفظا فطرق الباب ثم دخل . وهو انما طرق الباب قبل دخوله مخافة أن يكون رودريك وفلورندا في حالة يقشعر لها بدنه فلا يستطيع امساك غضبه .. والحتر أبى النفس يأنف من التجسس ومباغطة الناس في مخادعهم ، ولو كان في استطلاع ذلك مصلحة له .. فلما دخل الغرفة أدرك من مجرد النظر الى وجه فلورندا أنها مصونة سالمة ، فلم يبق الا أن يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب الى حجرتها وتنجو من هناك ، فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم لغرضين : الأول ، اطلاق سراح فلورندا . والثاني : توبيخه على ذلك الأمر العظيم ، وهو لايبالي أغضبه ذلك أم أرضاه .. ففعل وكان ما كان من غضب رودريك ، وخروجه على تلك الصورة ، وهو ينوى الانتقام وبخاصة بعد أن عاد الى قصر فلورندا ، ولم يجد لها ولا للعجوز أثرا

- ٢٩ -

الانتقام

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، والأب مرتين يتبعه وهو يتمتم ويهز رأسه على مرأى من الملك استغرابا من «وقاحة» أوباس . وكان يظن أن الملك لايفارقه تلك الليلة حتى يتآمروا على الايقاع بأوباس .. ولكنه

ما لبث أن رأى رودريك تحوّل عنه راجعا الى غرفته ، فجلس هو على مقعد في احدى طرقات القصر لا يد للملك - اذا عاد - أن يمر بها فلما أبطأ الملك سار مرتين الى غرفته وأما رودريك ، فانه رجع الى قصر فلورندا وفؤاده يتقد حنقا وكيدا . ولا تسل عن حاله حينما لم يجد أحدا في كل ذلك القصر ، ورأى حجرة فلورندا مشوشة بما حمل منها من الأدوات خفيفة الحمل غالية الثمن ..

رجع رودريك الى غرفته وهو يكاد يتميز غيظا ، وبعث الى قيّم قصره في تلك الساعة فجاءه . فابتدوه الملك بالسؤال عن خرج من ذلك القصر في تلك الليلة . فاهتم القيّم بالأمر وسأل الخدم ، فقالوا : انهم يقيمون في الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود الى فوق مطلقا ، وهم على ثقة بأن ياب القصر لم يفتح في تلك الليلة وانهم لم يروا أحدا خارجا من مكان آخر لأن الظلام كان مخيما ، وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الالتباء لما يحدث في الخارج . فسألوا الحراس فكان عذرهم انشغالهم بالزوابع والعواصف عن كل شاغل . وأخيرا بحثوا في الطريقة التي يمكن الفرار بها ، فاذا هي من النافذة المظلة على النهر ورأوا على نواتئ الأغصان اليابسة تنثا من الفرو تناثر من أهذاب قباء فلورندا

فتحقق رودريك عندئذ أن أوباس ساعدها على ذلك الفرار فحمى غضبه عليه ، وعزم على الايقاع به ، فعاد وقد أنهكه التعب

وأثر الفشل في نفسه ، فأحس كأنه أفاق من سكرة ، وأحب الخلوة فأوى الى فراشه ولكنه ظل يتقلب على مثل الجمر ، ولم يستطع نوما وقلبه يتقد حنقا من اوباس ، فلم يرَ ما يفرج كربته الا باستدعاء مرتين ، وهو مستودع أسرارهِ ، فنهض من الفراش حتى لقي أحد الحراس الواقفين ببابه فأمره أن يستقدم الأب مرتين على عجل ولو كان في فراشه

فذهب الحارس الى غرفة مرتين وطرق بابها ، وكان قد خلع ثيابه وتدثر بقميص النوم وجلس في الفراش وبدأ بصلاة النوم . فوقف الرجل خارجا حتى فرغ الأب من الصلاة ثم دخل عليه وأبلغه أمر الملك باستدعائه . ففرح لعلمه أنه لم يدعه الا للإيقاع بأوباس ، فنهض في الحال وهو لا يزال بذلك اللباس ، وتزمّل فوقه برداء واسع من الفرو . ولم يضع القلنسوة على رأسه وكان شعره منفوشا أبيض كأنه كتلة من القطن فوق رأسه . ومشى حتى دخل على الملك ، وكان رودريك أيضا في نحو ذلك من المظهر الغريب بعد أن تقلّب في الفراش ، وقد اختلطت صفائر رأسه بشعر لحيته وشاربه ، وأثر الغضب والفشل في سحته .. فلما دخل مرتين عليه شعر بارتياح لرؤيته فنهض لاستقباله ، وقبل يده ودعاه للجلوس بجانبه فجلس وهو يقول : « أرجو أن يكون جلالة الملك قد دعانى لأمر يسره »

فقال : « لا أظنك تجهل السبب الذى دعوتك من أجله .. وقد كنت في هذا المساء ترى وتسمع ما كان من أوباس .. »

فرأى مرتين أن يتملق الملك ، فقطع كلامه قائلاً : « انها وقاحة غريبة وليس أغرب منها الا صبر جلالة الملك عليها .. »
فقال رودريك : « انها في الحقيقة وقاحة لم أكن أتوقعها من قوم قد أذقناهم الذل وأخذنا الحكم من أيديهم .. ألا يخاف أوباس من غضبي .. ؟ »

فقال مرتين : « أظن أن جلالة الملك لم ينتبه لفحوى أقواله . وأوباس مشهور بقله الكلام وكثرة التفكير، وإذا قال كلمة يجب التمعن في فحواها لأنه لا يتكلم عن هوى ولا يلقي الكلام جزافا . ألم تسمع قوله لجلالتكم : « اذا كان لنا مطمع في المثلث فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك » انها جسارة غريبة تدل على ما يعده من الشراك والمكايد .. ولا أظنه الا محاولا أن يعقد المجالس السرية ويتعاون مع الأعداء على خلع الملك . ولكنه سيوء — ولا محالة — بالخيبة ... »

وأحس رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لأنه اكتشف بابا لاتهام أوباس ، والقبض عليه وعلى من في منزله لعله يجد فلورندا بينهم ، وقد غلب على خاطره انها فُتت الى هناك اذ ليس لها من الأقارب أحد ، فقال : « ما الرأي يا حضرة الأب في هذا الخائن ؟ »

قال : « الرأي أن تقبض عليه حالا في هذه الساعة قبل أن يتأهب أو يدس الدسائس .. لأنه خرج من قصرك وهو يهددك .. فلا تكن هينا .. والحلم في هذا المقام ضعف .. »

ولم يكن رودريك فى حاجة الى هذا التحريض ، وهو أكثر
رغبة فى ذلك ، ولكنه زاد على رأى مرتين أن يقبض على أهل
بيته أيضا ويسوقهم الى السجن لعلهم يكشفون عن دسيصة
جديدة فقال : « التى بقائد الحرس الملكى »
فخرج مرتين وأمر بعض الحرس باستقدام القائد وعاد الى
غرفة الملك ..

- ٣٠ -

أوباس فى قصره

أما أوباس ، فانه لما خرج الملك من بين يديه ، نهض وسار على
عجل الى منزله لموافاة فلورندا والخادمين ، وتدير وسيلة
لاخراجهما من طليطلة ، فلما وصل الى منزله ، سأل الخدم : « هل
جاء أحد للسؤال عنى » فقالوا له : « كلا .. » فانشغل خاطره
لاعتقاده انهم كان يجب أن يسبقوه الى هناك لو لم يكن أصابهم
سوء أو عاقهم عائق .. فأعبل فكره وعلّل نفسه بقرب وصولهم
حتى مل الانتظار فعّول على الخروج بنفسه للبحث عنهم فى
الطريق الذى كان يتوقع أن يجيئوا منه ، ولكنه ما لبث أن سمع
ضوضاء ووقع حوافر خيول أمام القصر ، فظنّهم جاءوا على
أفراس ، فنهض وأطّل من شرفة القصر والظلام لايزال حالكا ،
فرأى جماعة من الفرسان دنوا من القصر وأحاطوا به عن بُعد ،

ولم يخاطبوا أحدا من أهله . ولم يستطع لشدة الظلام أن يتبين الوجوه ، ولكنه أدرك بفراسته أنهم من رجال رودريك وقد جاءوا لأمر يوجب قلقا . على انه لم يخف على نفسه لرباطة جأشه ولا اعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته ، ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها اذا جاءوا في تلك الساعة فانهم سوف يقعون في الشراك لا محالة ..

وأعمل فكره هنيهة فرأى أن المبادرة الى العمل أجدر به فتحول الى غرفته ، فتزمل بالقباء وخرج الى الباب ونادى أقرب فارس اليه فجاءه وترجل وحيثا باحترام . فقال أوباس : « ما الذى تفعلونه هنا ؟ »

قال : « اتنا مكلفون بالوقوف هنا الى الصباح .. »
فقال أوباس : « ومن أمركم بذلك ؟ .. »

فسكت الرجل وحول وجهه الى جهة أخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة ، فجاء وترجل وحيثا أوباس وهم بتقبيل يده ، فاجتذب أوباس يده بعنف وقال : « من أمركم بالوقوف هنا وما الغرض منه ؟ »

فقال الضابط : « أمرنا به من ينوب عن الملك .. لماذا أقلقت راحتك وخرجت في هذا الليل من فراشك ؟ .. نم مستريحا .. »
فقال أوباس بنغمته الهادئة : « أفصح يا جندي عن الغرض من وقوفكم هنا أو ارجعوا من حيث أتيتم »

فقال وهو يخفض صوته تهيبا من أوباس : « اتنا مكلفون بالقبض على قداستكم حين تهمون بالخروج من هذا المنزل .. »
فاستشاط أوباس غضبا ولكنه ظل هادئا وقال : « مكلفون بالقبض علتي ؟ .. ومن أمركم بذلك ؟ .. »

فقال الضابط : « يعذرني مولاي فاني مأمور ولا يسعني الا الطاعة .. اتنا مكلفون من قائدنا الأكبر بناء على أمر جلالة الملك ، فهل نستطيع مخالفة الأمر ؟ .. »

فقال أوباس : « كلا ، بل أنا أحرضكم على الطاعة دائما » قال ذلك وأعمل فكره في الأمر ، وأراد أن يسرع خوفا من وصول فلورندا في تلك الساعة فقال : « اني خارج الساعة معكم ، ولا حاجة بكم الى الانتظار حتى الصباح »

قال الرجل : « ليس في الأمر يامولاي ما يدعو الى هذا القلق . فلو مكثت في منزلك شهرا ما مسسناك »

قال : « بل أخرج الساعة .. هلم بنا .. »

فأشار الضابط الى فرسانه اشارة يفهمونها ، فتجهروا وأتوا بجواد ركه أوباس ، وساروا به وهو في وسطهم والجميع سكوت لا يجرؤون على الكلام في حضرته

أما هو فكان في أثناء الطريق يفكر في الأمر الذي ساقوه لأجله وقد عزم على الثبات والتعقل . غير أن ذهنه ظل منشغلا بفلورندا

وخشى أن يلتقوا بها في ذلك الطريق ، لكنهم بلغوا القصر ولم يروا أحدا ..

فلما وصل أوباس الى قصر الملك هتم بالترجل ، فأشار اليه الضابط بأنهم مكلفون بمرافقته الى مخفر بالقرب من القصر الى الصباح ، ثم قال الضابط : « ولهذا السبب قلت لقد استكم أن تبقوا في منزلكم الى الصباح ، وأردنا بذلك الحرص على راحتكم » ..



ولكن أوباس رأى أنه أحسن صنعا باخلاء الطريق لفلورندا ولو سبب له ذلك بعض الضيق ريشما يلقي الملك ويرى ما يريد . فدخل غرفة في بيت بجانب القصر وظل الحرس بالباب قضى أوباس بقية ذلك الليل يذرع تلك الغرفة ذهابا وإيابا ، وهو يفكر فيما عسى أن يكون غرض الملك من تلك الدعوة على هذه الصورة . وخطرت له خواطر كثيرة وتهم شتى ربما يتهمه بها رودريك ، ولكنه ستر بما توهمه من نجاة فلورندا ، وأما هو فلم يكن ليخاف موقفا أو يهاب خطرا في سبيل الحق والحرية .. والرجل الحر لا يفرعه موقف ولا يتهيب من سؤال ، وهو محترم حتى من أعدائه ، الا انه قد يكون في خطر من دسائس الدسائسين أو استبداد الظالمين

- ٣١ -

البلاغ

وانفجرت الأمور في عيني أوباس بطلوع الفجر وتبدد جيوش
الظلام ، رغبة منه في الاطلاع على سر هذه الدعوة . ولكن النهار
انقضى جانب منه ولم يطلبه أحد فازداد قلقه .. واستدعى رئيس
الحراس ، وهو الضابط المنوط به هذا العمل ، فمثل بين يديه ..
فقال له أوباس : « وماذا عسى أن يكون آخر هذا الأسر ؟ »
فقال : « لا أدري - يامولاي - فعسى أن يكون خيرا . وأنا
لو عرفت سر ذلك ما أخفيت عنه سيادتكم »

قال أوباس : « اني في حاجة الى الذهاب لمنزلي ، فاذا لم يكن
ثمة ما يدعو للسرعة في المقابلة ، فأرى أن يطلقوا سبيلي لأذهب
الى منزلي ، ثم اذا أراد الملك مني أمرا جئت اليه .. »



فنظر الضابط الى أوباس وفي عينيه خبر يتردد بين كتمان
واظهاره . فأدرك أوباس ذلك فيه فقال : « ما الذي تضره ؟ ..
قل .. »

فقال : « انك اذا ذهبت الى منزلك لا تجد فيه أحدا »

فبغت أوباس وقال : « وكيف ذلك ؟ .. »

فقال الضابط : « لأنهم قبضوا على كل من كان في ذلك المنزل

من الخدم والعبيد ، وهم في السجن الآن وأبواب المنزل مغلقة »
فلما سمع أوباس قوله تحقق من عزم الملك على الفتك به
جهارا ، ولولا رزاقته لبدت البغته على وجهه . ومما زاد قلقه
خوفه على فلورندا ، وقد تبادر الى ذهنه أنهم لم يقبضوا على
أهل منزله الا لأنهم رأوا فيه فلورندا .. على انه لم يبال
بالوقوف على التفاصيل ، فنظر الى الضابط وقال بسكينة وتعقل :
« لا ينفعهم ذلك شيئا .. » ثم تحوّل الى الداخل فخرج الضابط
الى مكانه ..

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل أوباس وعائلته ، ولكنه
كان كأكثر رجال الدولة مندفعاً مع التيار الأكبر يرى الحق ويقول
ولكنه لا يفعله . شأن الدول في أدوار انحلالها وتقهقرها ، فأنها
لا تخلو في أثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء ، يشعرون بما
أصاب دولتهم من الخلل وينتقدون أعمال حكومتها فيما بينهم
وهم خارج المناصب ، ويزعمون انه لو أتيح لهم الوصول الى
تلك المناصب لأدخلوا في الحكومة اصلاحا كبيرا . فاذا تولى
أحدهم الحكم رأى نفسه مندفعاً — برغمه — مع تيار الأحوال
العامة كما فعل أسلافه . واذا حاول مقاومة ذلك التيار عرّض
نفسه للخطر . ويندر أن يطول بقاؤه على عزمه القديم وهو في
منصبه لعجزه وهو فرد عن مقاومة مجرى الأحوال . والدولة انما
بلغت تلك الدرجة من الانحطاط بتوالى الأجيال . والبدن اذا
ابتلى بالضعف من الهرم لا يرجي عوده الى الشباب . الا أن

يكون المصلح في أكبر المناصب ، فقد يأتي باصلاح ذى بال ولكنه يذهب بذهابه ..

وقد كان في طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المتسرب الى الدولة ، ولكنه لم يكن لهم سبيل الى مناصبها الكبرى . وأما صغار المستخدمين فليس لهم الا التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط ..

رجع أوباس الى مقعد في تلك الغرفة ، جلس عليه واستغرق في الهواجس حتى مضى بعض النهار . فلما رأى الخادم آتيا اليه بالطعام تحقق أن بقاءه سيطول هناك ، وزاد قلقه فرفض أن يأكل ورد الطعام ، واستقدم الضابط ، وقال له : « انى لا أستطيع أن أتناول طعاما قبل أن أعرف سبب هذه المعاملة ، فهل لك أن تستطلع ذلك من أحد ؟ »

فقال : « أرى يامولاى أن تكتب كتابا أحمله الى مجلس الملك لعلنى آتيك بالجواب الشافى .. »

فأخرج أوباس من جيبه لوحا مشمعا كتب عليه بالمسماز ما معناه : « حملنى جندك الى هذا المكان بلا ذنب اقترفته ، والملك يعلم أن رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هذه الصورة ، وانما هم تحت سيطرة الكنيسة ، فلا أدري سبب هذا السجن . الا أن يكون ذلك من جملة ما نخر في حياة هذه الدولة »

فحمل الضابط الكتاب وسار به الى القصر . ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول : « ان الأب مرتين قادم لمقابلة قداستكم »

فلم يسر أوباس لذلك الخبر الا على رجاء. أن يعلم منه سبب ذلك الأسر، وقد علم أنه آت بأمر الملك . فظل أوباس جالسا فدخل مرتين مهرولا وهو يتمتم كأنه يتلو بعض الأدعية حتى وقف بين يدي أوباس فحيّاه ، وهّم كأنه يريد تقبيل يده لارتفاع رتبته الكهنوتية . فلم يبال أوباس بكل ذلك بل ظل ساكنا . فجلس مرتين على كرسى تجاه مقعد أوباس وهو يتسم ووجهه يتهلل فرحا - ولا يفرح الانسان بشيء أكثر من فرحه بفوزه على عدوه ..

وتنحّض الأب مرتين مرارا ومسح وجهه ولحيته غير مرة استعدادا للكلام كأنه يهم بالتلفظ ، ولكن عقدة لسانه كانت تحول دون الافصاح الى أن فتح الله عليه ، فقال وهو يقطع الكلام :. « قد بعثني جلالة الملك لأبلغ قداستكم أنه يعلم امتيازات الكهنة ، وانه لايجوز سجنهم أو محاكمتهم الا في مجالس كهنوتية ، ولكنه انما أمر بالقبض عليك مؤقتا ريثما يجتمع مجلس الأساقفة وهم ينظرون في أمرك ... »

فلما سمع أوباس قوله زاد استغرابا ولم يفهم المراد تماما لأن مجمع الاساقفة انما يجتمع مرة في السنة أو مرتين (١) ولا يجتمع غير اجتماعاته المعينة الا للنظر في أمور في غاية الأهمية ، كانتخاب الملك أو البحث في خطر يهدد المملكة أو غير ذلك .. واجتماع هذا المجمع يقتضى مكاتبة أساقفة الأقاليم والمطارنة ، مما يستغرق

أياما عديدة.. فأطرق أوباس وأعمل فكره في هذا الأمر ولم يجب وكان الأب مرتين قد ثبتت بصره في أوباس ليستطلع ما يبدو منه ، وكان يتوقع استيائه وغضبه ليشفى ما في نفسه ، لأن من يعتمد اهاتك اذا لم ير قوله قد أغضبك شعر بالاهانة ترجع اليه ويشق ذلك عليه . فلما رأى مرتين أن أوباس لا يزال كما كان ولم تظهر عليه علامات الاضطراب ، ولا احتد ولا أجاب باعتراض ولا استفهام توهّم أن ذلك ناتج من عدم ادراكه لخطر الأمر الذى يترتب على ذلك الاجتماع فقال : « ولا يخفى على قداستكم ان جمع الأساقفة يقتضى زمنا طويلا، وأما الآن فلأن أكثرهم جاء الى طليطلة لتهنئة جلالة الملك بعيد الميلاد فان الانتظار لا يطول في جمع المجمع .. فلا تضجر »



فظل أوباس هادئا ولم يقل شيئا لأنه كان قد أدرك ذلك من تلقاء نفسه ..

فلما رآه مرتين لا يزال ساكنا رابط الجأش ، جاشت أحقاد صدره واشتد غيظه .. فأراد أن يلح له بالتهمة الموجهة نحوه فقال : « ويسوءنى يا حضرة الميتروبوليت أن تصدر منكم أقوال تدعو الى اساءة ظن الملك بكم كما فعلتم في مساء الأمس .. فهل يليق بمثلكم أن يهدد جلالة الملك بالخلع ؟.. ولولا وجودى وسماعى ذلك القول بأذنى ما صدقت ، ثم انكم لمحتّم بمثل ذلك أيضا في كتابكم اليه الآن »

- ٣٢ -

توقع المصيبة شر من وقوعها

أدرك أوباس أنهم يريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك فاستعظم التهمة ، ولكن باله ارتاح لاطلاعه على حقيقة الخبر ، والانسان يكون أكثر قلقا أثناء انتظار الخبر مما هو بعد سماعه ، ولذلك قالوا : « توقع المصيبة شر من وقوعها » . فلما وقف أوباس على سر الأمر لم ير فائدة من الكلام مع مرتين في هذا الشأن فضلا عن أنه يشفى غله بذلك الكلام . فوقف بهدوء ورزانة وقال : « صبرا الى يوم الاجتماع . وكأن رودريك لا يريد أن يبقى عندي شك في قرب سقوط دولته فزادني بعمله يقينا بدنو أجلها ... » قال ذلك ومشى ولم يترك للأب مرتين فرصة للجواب ..

أما مرتين فانه نهض بنهوض أوباس وقال وهو يظهر الشفقة عليه : « ألا تزال تقول ذلك ؟ !.. يا للعجب .. كيف يطيعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته ، وأنتم تعلمون أن الكنيسة هي التي نصبته باجماع أساقفتها !.. »

فأدرك أوباس أنه يريد أن يستدرجه في الحديث ليضاعف التهمة عليه ويشفى غليله منه ، فتركه يتكلم وتحول عنه وولّى وجهه الى نافذة تطل على الحديقة

فلما رأى مرتين ذلك منه ضحك وهرب مسرعا نحو الباب وهو ينادى الضابط ، فلما حضر بين يديه قال له : « يأمرك الملك أن تحتفظ بهذا السجين لأن أمره ذو شأن .. واحذر أن يفلت منك » ..

فأشار الضابط برأسه أن : « نعم.. » وخرج الأب مرتين ظافرا منتصرا لولا ما ساءه من رباطة جأش أوباس وتأنيه وصبره . وكان يود أن يرى منه حدة أو غضبا ليوسعه تأنيبا ويشفى غليله منه أما أوباس فإنه عاد الى التفكير ، وهو لا يزال مشغولا على فلورندا .. فتذكر الفونس وخروجه بالأمس لقيادة الجند فأراد الاستفهام عن مقره ، فعاد الى الباب واستدعى الضابط فوقف بين يديه ، فقال له : « هل علمت بخروج الأمير ألفونس من طليطلة ؟ » ..

قال : « علمت أن فرقة خرجت من طليطلة بالأمس . ولا أدري اذا كان الأمير معها أم لا .. »

فرجع أوباس أن ألفونس سافر مع تلك الفرقة .. ولكنه ظل مشغول الخاطر بفلورندا لا يدري ما آل اليه أمرها ، وخشى ان تكون وقعت في الأسر في جملة أهل منزله ، وانهم انما قبضوا عليهم من أجلها .. وودّ لو استطاع استطلاع أمرها من أحد ، وحديثه نفسه أن يسأل الضابط ، ولكنه خشى عاقبة ذلك .. ولم يخذعه ما بدا من رقة الضابط وحسن ظنه ، لعلمه ان الذين يطابق ظاهريهم باطنيهم قليلون ، وأقل منهم الذين يثبتون على

عزمهم فيما يدعوههم اليه ضميرهم .. فخشي اوباس اذا كاشف الضابط بحديث فلورندا أو تظاهر أمامه بالاهتمام بها أن يبوح بذلك لدى أحد فيتخذوه حجة عليه مع اعتقاده أن الضابط مخلص له ، ولكنه عوّل على سوء الظن واعتبار الناس كلهم جواسيس عليه ..

قضى أوباس في سجنه بضعة أيام وهو ينتظر اجتماع المجمع ، وفي ذلك الحين لم يتوقع الى سبيل للاستفهام عن فلورندا ، ولا اتفق له سماع شيء عنها فترجح لديه انهم قبضوا عليها وعادوا بها الى قصر الملك .. فلما تصور ذلك اقشعرّ بدنه ونسى الخطر الذي يهدد حياته ..

- ٣٣ -

الموكب

أصبح أهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزينت الشوارع ، وبخاصة الشارع الكبير الذي يصل بين قصر الملك والكنيسة الكبرى . واشتغل العبيد بكنس الشوارع وتنظيفها ، ووقف الحرس صفين في القصر والكنيسة ، وفي أيديهم الحراب وعليهم الملابس الرسمية التي يلبسونها في الاحتفالات الكبرى . فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا الى الشارع الكبير وأطلوا من النوافذ وأشرفوا من أسطح المنازل يتوقعون مشهدا جميلا

أو منظرا ذا بال ، وكان يومها صحوا تجلت فيه الشمس على أبنية
طليطلة ونهرها وبساتينها

وفي الضحى عج الشارع بالضوضاء ، فالتفت الناس فاذا هناك
فرقة من فرسان الحرس الملكي بملابس الجنديّة خرجوا من قصر
رودريك ، يأمرّون المارة باخلاء السبيل لموكب الملك، وعلى بضعة
عشر مترا ورائهم زمرة من الشمامسة بالملابس الزاهية يتخللها
الوشى المذهب ، بعضهم يحملون صلبانا قائمة على عمد ، والبعض
يحملون الشموع ، وقلما يظهر نورها لطلوع الشمس ، على أن
أكثرها قد انطفأ لهبوب الرياح لأن طقس الشتاء في طليطلة — وان
كان صافيا — فانه لا يخلو من الريح لوقوعها على جبل ، وبعضهم
كان يحمل أغصانا من الزيتون وآخرون في أيديهم المباخر يتصاعد
منها البخور وهم يترنمون بأناشيد لاتينية . وبعد حملة الشموع
فرس عليه رودريك بتاجه وحوله الأساقفة بملابسهم الرسمية
ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الاكليروس ..
ووراء ذلك كله كوكبة من الفرسان . فلما رأى أهل طليطلة ذلك
الموكب علموا أن الأساقفة قادمون للاجتماع ، ولكنهم استغربوا
اجتماعهم في ذلك الحين ، وما هو بوقت الاجتماع . لأنهم كانوا
يجتمعون اجتماعهم السنوى في وقت معين من العام . فاشتغلت
الخواطر واضطرب الناس لأن المجمع لا يجتمع في غير ميعاده الا
لأمر غاية في الأهمية

وكانت المجامع الدينية في اسبانيا ثلاث درجات : (١) المجامع الكبرى ، (٢) المجامع الاقليمية ، (٣) المجامع الأبرشية (١) . فالأولى تجتمع بأمر الملك في طليطلة للنظر في الأمور الهامة المتعلقة بالمملكة ، كاتتخاب الملك أو المصادقة على قانون أو نحو ذلك ، مثل اجتماعه في ذلك اليوم للنظر في التهمة الموجهة الى أوباس . والمجامع الاقليمية تجتمع في الأقاليم بأمر الأساقفة مرة أو مرتين في السنة ، والمجامع الأبرشية يحضرها رؤساء الأديرة والقسس والشمامسة ونحوهم.. فلما رأى أهل طليطلة الاهتمام بجمع هذا المجمع ، خافوا أن يكون هناك ما يتعلق بحرب أو عزل أو تولية أما الموكب فظل سائرا حتى وصل الى الكنيسة فتنحى الفرسان الى الجانبين ، ثم انقسم الشمامسة بشموعهم وصلبانهم ومباخرهم الى قسمين ، دخل كل قسم من باب جانبي . وترجل الملك والأساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الأوسط وكان خدمة الكنيسة قد نهضوا منذ طلوع الشمس واشتغلوا بالتنظيف ، ووضعوا المقاعد والكراسي بالترتيب اللازم في هذا الاجتماع ، وأناروا الشموع وفتحوا الأبواب ، ووقفوا ينتظرون الموكب ويمنعون كل من أراد الدخول من العامة أو سواهم ممن لا يخول لهم حضور المجامع . والذين يجوز لهم حضورها هم : (١) أساقفة طليطلة والأقاليم المشتركة معها (٢) المطارنة الميتروبوليت (٣) رؤساء الأديرة (٤) الشمامسة والخوارة ،

(٥) بعض رجال البلاط الملكي (٦) الملك
فلما دخل الموكب الى الكنيسة اتخذ كل منهم مجلسه . وكانت
المقاعد قد رتبت صفوفًا متعاقبة ، جلس الأساقفة على الصفوف
الأولى منها بترتيب الأعمار . ووراءهم الأساقفة الصغار ، وهؤلاء
جلسوا بحسب الأعمار أيضا ، وجلس وراءهم القسس ،
والشماسة وقوف بين أيديهم . وفي وسط القاعة أمام تلك
المقاعد كرسى خاص بكاتب سر المجمع . وهناك عرش مزخرف
أعدوه للملك ، وإلى جواره عدة مقاعد لمن يشهد الاجتماع من
خاصة الملك . أما الأب مرتين فكان ينبغي أن يجلس — بوصفه
قسيسا — بين القسس ، وربما كان في مقدمتهم جميعا لكبر سنه ،
ولكنه فضّل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يخفى على القارىء

— ٣٤ —

افتتاح الجلسة

فلما استقر كل واحد في مجلسه ، أغلقت أبواب الكنيسة وساد
السكوت على تلك القاعة الكبرى . وظل السكوت سائدا برهة
لا ينطق واحد بكلمة ، ثم تكلم رئيس شمامسة الكنيسة من على
كرسى بجانب الهيكل فقال باللاتينية Oremus أى « فلنصل »
وكان لقوله صدى قوى .. فلم يكذب ينطق بتلك الكلمة حتى خثر
الجميع سجّدا على ركبهم ، وقد أخذ كل منهم يصلى لنفسه

بصوت منخفض . ثم قطع صلواتهم أكبر الأساقفة سنا بصلاة
قالها بأعلى صوته فأصغوا له . ولما فرغ منها صاح الجميع :
« آمين » . ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية *Surgite fratres*
أى : « انهضوا أيها الأخوة » فنهضوا وعاد كل الي مجلسه ،
وعند ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الايمان (نؤمن
بإله واحد الخ) على ما تقرر في مجامع القسطنطينية وختم التلاوة
بعبارة تدل على الاعتراف بالمجامع المسكونية الأربعة (١)

ثم وقف شماس عليه ثوب أبيض فأصبع وبين يديه كتاب ضخيم
على حمالة بجانب مجلس كاتب السر ، وقد فتح الكتاب في مكان
اختاره ، وكان الأساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك
الشماس ليعرفوا منه موضوع الاجتماع ، لأن ذلك الكتاب هو
قانون المملكة ، وكان من عاداتهم اذا التأم المجمع أن يقرأ الشماس
فقرات من ذلك القانون ، تتعلق بالغرض الذي اجتمعوا من
أجله ، فاذا هو يتلو مواد متعلقة بانتخاب الملك وبمن يسعى في
افساد نيات الشعب عليه أو يتعمد خلعه ونحو ذلك . فأدرك
الجمع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب

فلما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد ، وقف كاتب الجلسة
ووجه حديثه الى الحضور قائلاً : « ربما تستغربون ما تلوناه على
مسامعكم ، والأحوال على ما يترأى لكم هادئة ، ولكننى أبلغ
قداستكم أننا اجتمعنا للنظر في تهمة موجهة الى أخ من اخواننا ،

(١) يومى - الجزء الثانى

وللأسف انه أسقف من الأساقفة . وربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع أنه مقيم في طليطلة . ولاشك أنكم عرفتموه » فلما قال الكاتب ذلك ضج الأساقفة وتهامسوا في شأن أوباس، وأكثرهم لم يستغرب اتهمه بخلع رودريك ، لما يعلمونه من علاقته بالملك السابق وطعمه في الملك لأبنائه . ثم قال الكاتب : « وسنستقدمه كي يقف بين أيديكم وقفة المتهم .. فاما أن يرىء نفسه أو يجرى عليه القصاص »



فلما فرغ الكاتب من كلامه تكلم أحد الأساقفة الجالسين في المقعد الأول وقال : « لا بد لكل تهمة ممن يوجهها وممن توجه اليه ، وقد علمنا أن المتهم هو أخونا الميتروبوليت أوباس، ولكننا لم نعلم من يتهمه بذلك ... »

فأجاب الكاتب : « أنكم ستعلمون ذلك متى حضر » فسكت الجميع ولبثوا ينتظرون قدوم أوباس وسماع محاكمته، وإذا بأحد الشمامسة بتوجه نحو غرفة تؤدي الى باب سرى ، فتوجهت أنظار الأساقفة الى تلك الجهة . ثم ما لبثوا أن رأوا أوباس داخلا بحشيته المعهودة ، وقامته المعتدلة ، وجلال محياه ، وهيبته ، وليس على وجهه شيء من دلائل الاضطراب أو الوجع . فلما وصل الى الساحة الوسطى أمام مجلس الأساقفة أجال نظره فيهم ، ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الأب مرتين انتباهه كأنه لم يكن موجودا هناك

- ٣٥ -

المحاكمة

وقف أوباس هناك وقفة قاض وليس وقفة متهم . وقف وهو ينظر الى من حوله نظره الى أناس ضعفاء ، ولم يهمه عددهم ولا ما في أيديهم من السلطة والنفوذ ، وخصوصا الملك ، لأن أوباس كان يعده غلاما غرا ، وزاد احتقارا له بعد ما شهد من أمره مع فلورندا . والرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم وان كان الناس قد تعودوا احترام أهل المناصب والغنى والنفوذ ، ولكنهم لا يزالون في أعماق نفوسهم يفضلون رجال الفضيلة ولا يعدون احترامهم لغيرهم الا خوفا من الظلم أو التماسا للنفع . على أن منهم من يبالغ في اطراء أهل النفوذ حتى ينخدعوا عن أنفسهم ويزداد ضررهم . فاذا كثر أولئك المتملقون في بلاط ملك ضعيف اغتر بنفسه واثقاد لأهوائه وعمل بمشورتهم - والمتملقون لا يصلحون للشورى - فتسوء الأحوال ، ويسود أهل الفساد ، وتؤول البلاد الى الدمار والعياذ بالله

وكان أوباس ممن لا يدعون الا للحقيقة ولا يخفيه الا الخروج عن جادة الحرية . ولم يكن يشعر انه حى لنفسه رغبة في الحياة الدنيا أو طمعا في مناصبها أو ملاذها . ولكنه كان يرى نفسه - منذ أن اعتزل العالم وانتظم في سلك الكهنة - انه انما يعيش عبدا

لمبدأ يراه مجسما في مخيلته ، ويستغرب تغافل الناس عنه - كان يرى نفسه أسيرا للحق عبدا للحقيقة وحرية الفكر ، لا يعرف المداهنة ولا المراوغة ، فلا تعجب اذا رأيته واقفا في ذلك المجلس لا يهاب أحدا منهم ، اذ كان يرى الحق أعظم منهم وأشد هيبة فلما وقف أوباس وقف الكاتب ووجه خطابه نحوه قائلا : « أبلغ سيادتكم أننا استقدمناكم الى هذا المجمع يا حضرة الميتروبوليت لتهمة موجهة اليكم ، وكل واحد منا يتمنى أن تكون باطلة وتبرأ ساحتكم .. انكم متهمون بالمؤامرة على خلع جلالة الملك ... ولا يخفى على سيادتكم أن مثل هذه التهمة لا تمس جلالة الملك فقط ، بل هي تتناول هذا المجلس كله ، لأنه هو الذى انتخبه وأقره ... »

وكان الأب مرتين في أثناء كلام الكاتب شاخصا بعينه متظاولا بعنقه . قلما سمعه يقول ذلك أشار باطباق جفنيه وهز رأسه أن : « أحسنت » لأنه حسب أن ذلك يزيد نقمة الأساقفة وسائر أعضاء المجمع عليه ..

أما أوباس فلم يكن يعبا بما يبدو من أحد ، فلما فرغ الكاتب من كلامه استولى السكوت على الجلسة وتظاولت الأعناق لسماع ما يقوله أوباس ، فاذا هو يقول بصوت هادىء : « سمعت كلامك وما تقوله من أمر اتهامى ، ولكنى لا أجيب عليه قبل أن أعرف الرجل الذى اتهمنى .. »

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى رأسه كأنه يقول : « جلالة الملك نفسه » ..

فقال أوباس : « وما هي أدلتك على هذه التهمة ؟ » فأراد الأب مرتين أن يقلد أوباس في رباطة جأشته وتأثيه .. فظل جالسا والتفت الى الأساقفة لفتة الاستخفاف والتهكم وأخرج شفثيه من غورهما وزمهما ، وأصعد حاجبيه وهز رأسه كأنه يقول لهم : « استمعوا قول هذا الغبي كيف يطلب من الملك شاهدا على قوله .. » أما الكاتب فلم يسعه الا أن يلتفت الى رودريك كأنه ينتظر جوابه على قول أوباس .. فأشار الملك الى الأب مرتين أن يجيبه فوقف مرتين وقد نسي التاني ورباطة الجأش وعاد الى فطرته العجولة . فلما رآه الأساقفة يهم بالكلام أصاخوا بسمعهم لما يقوله لئلا يفوتهم ألفاظه بالتمتمة فلا يفهمون ما يريد - وهم سيبنون حكمهم على جوابه - أما هو فقال : « أطلب الأدلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها ؟ يكفي أنكم منذ كان الملك السابق حيا لا تزالون تسمعون في خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع الى الأريوسية ، وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعا . فأخذتم تبذلون كل رخيص وغال في مقاومته ولكنه مؤيد من الله والكنيسة . ومن عجيب أمرك أن تطلب الشهادة على صدق قول جلالتك » . ولم يبلغ الى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامه المتقطع . فالتفت أوباس الى الحضور وهو يبتسم وقال : « بل من الغرائب

استغراب طلب الدليل على تهمة موجهة نحو أسقف له مكاتته الدينية بين الناس .. تهمة أقل ما يقال فيها أنها مختلفة .. نعم مختلفة ولو قالها جلالة الملك ، لأن الحق فوق الملوك والأساقفة .. ثم لا أدري ما الذى يستوغ هذه التهمة .. كيف يقال انى تأمرت على خلع هذا الملك ؟ ومع من تأمرت ، وأين ، وكيف ؟ .. وهل تكون المؤامرة أو التواطؤ الا بين جماعة . فمن هم شركائى فى التهمة ؟ .. انه قول غير معقول ، لا أقول ذلك فرارا من العقاب لأن العقاب لا يهمنى »

- ٣٦ -

التصريح

فلم يصبر الملك على ما قال اوباس .. فأجابه بنفسه وقد حملق عينيه وقطب حاجبيه : « يا للعجب من هذه الوقاحة ، كيف تنكر هذا الأمر . وقد سمعتك بأذننى هذه وأنت تهددنى بقرب انقضاء هذه الدولة ، وانه يهون عليكم اخراج هذا الأمر من يدى . هل تنكر ذلك ؟ وقد سمعه الأب مرتين أيضا . فهل من دليل أوضح من هذا ؟ .. »

وكان الأساقفة وهم يسمعون الأقوال يميلون الى التصديق لأسباب ، منها ان أكثرهم يكرهون أوباس لحريته وصراحته وتمسكه بالحق ، ولأنه قوطى . فاهيك بالقرائن التى تساعد على

اثبات التهمة لأن أهل طليطلة كلهم يعرفون كراهية بيت غيطشة
أجمعين لرودريك ، وكل من يقول بقوله وبخاصة الأساقفة ،
لبواث تقدم بيانها . فلما سمعوا شهادة الملك نفسه وشهادة قسه
مالوا الى الحكم على أوباس ، وزد على ذلك انه كان يمكنهم الحكم
عليه بدون محاكمة .. ولكنهم اجتمعوا ذلك الاجتماع ليقتضوا به
شبه واجب عليهم . فلما فرغ الملك من كلامه وجّهوا أبصارهم
نحو أوباس ليسمعوا قوله . فرأوه لا يزال على ثباته ورباطة
جأشه . وقبل أن يشرع في الجواب اعتزضه أحد الأساقفة قائلاً :
« انى لأعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة
الملك ، انما كان تنصيبه بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة
والكنيسة . والذين يدعون الحق لأبناء غيطشة أو غيره من أعضاء
عائلته في الملك انما هم مخطئون .. لأن الملك في اسبانيا الآن
انتخابى كما لا يخفى على سيادتكم ولا يجلس على هذا العرش
الا الذى ينتخبه هذا المجمع المقدس . فهل تنكرون أن جلالة
الملك منتخب على هذه الصورة ؟ .. »

فلما سمع أوباس ذلك أدرك أنهم يحاولون ايقاعه ، فلم ينال
وعزم على أن يجول في الموضوع الى آخره ، فقال وقد وجه
خطابه الى الأسقف : « ان هذا السؤال يا حضرة الأسقف خارج
عن موضوع التهمة ومع ذلك فانى أجيبك عليه . نعم ان هذه
المملكة أكثر ممالك أوربا خضوعاً للكنيسة . وأساقفتها هم الذين
ينصبون الملك كما ذكرت ، ولا أنكر أن جلوس هذا الملك كان

بانتخاب هذا المجمع ، فانتخابه كان قانونيا وان كنت لا أعتقد أن المجمع توخى كل الطرق القانونية لنقل الصولجان من الملك السابق اليه ، مما لا أخوض فيه الآن . ولكنى لا أخفى عنكم أيها السادة اننى أرى الكنيسة قد تمادت بسلطتها في هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدها . أقول ذلك وأنا من أعضاء الكنيسة ، ولا أظن أحدا منكم يقول هذا القول ولو كان يؤمن به لأنه يغير مصلحته »

وكان الأب مرتين حينما سمع تعريض أوباس بالمجمع في الانتخاب أشار الى الكاتب أن يدون ذلك القول أمامه ليطلبه به .. ففعل

أما الأسقف الذى كان الكلام موجها اليه فأجاب قائلا : « يظهر انك تنكر فضل الكنيسة على المملكة ، وهل يحفى عليك أن الكنيسة الكاثوليكية هى التى حفظت النظام والتمدن في هذه القارة . وقد جاء أجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم وأكثرهم وثنيون فتغلبوا على المملكة الرومانية وتفشوا في مدنها ، قبائل رحّلا لا علم عندهم ولا تمدن ، فجمعتهم الكنيسة في أحضانها وهذبت أخلاقهم وجعلتهم أمما وممالك ، وهى التى حفظت لهم العلم والحكمة ، وهى التى دربتهم في كل شئونهم السياسية والادارية والاجتماعية .. ولولاها لكنت أوروبا فوضى لا علم فيها ولا نظام »

فهم أوباس بالجواب ، فدق الكاتب خرسا أمامه إشارة الى التماس السكوت فسكتوا ، والتفتوا فرأوا الملك يهم بالكلام فأصغوا . فقال الملك وهو جالس على عرشه وصدره يتقدمه وشعره مرسل على كتفيه من تحت تاجه : « لا حاجة بنا الى الخوض في مسائل لاعلاقة لها بالموضوع .. يكفي ماقد سمعتموه من كلامه الآن من استهجان أعمال المجمع في انتخاب الملك ، وانكم لم تنتخبوه بطرق قانونية .. فمن يصرح بمثل ذلك في مجلس القضاء ، هل يستغرب اتهامه بالمؤامرة ؟ »

فالتفت أوباس الى رودريك قائلاً : « لا علاقة أيها الملك بين استحسناني الانتخاب أو استقباحه وبين مؤامرة تزعمون أنى دبرتها لخلعكم . نعم انى أشك في الطرق القانونية التى اتخذت في الانتخاب ولكننى لم أبن عليها مؤامرة . أو على الأقل ان السبب فى وقوفى هذا الموقف هو اعتقادكم أنى فعلت شيئاً من ذلك .. »

فاعترضه الأب مرتين قائلاً : « وكيف لا يعتقد جلالته ذلك . وقد سمعه من فمك كما سمعته أنا .. يا للعجب .. » قال ذلك والتفت الى الملك وقال : « يظهر ان أمر المجادلة طال والتهمة صريحة واضحة »

— ٣٧ —

التحامل

فالتفت الملك الى الأساقفة وقال : « قد سمعتم بما قاله هذا

فأما أن يكون الملك رودريك قد جلس على عرش طليطلة بغير حق أو أن أوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق» قال ذلك وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى نزل عن عرشه ومشى وهو لا يعي، ثم عاد الى كرسيه وجلس بعنف

ففهم أوباس انه يعرض بتجريده من رتبته الكهنوتية قصاصا له فقال : « لا تظن أن هذا التهديد يضعف من عزمي في قول الحق لأنني لست أسقنا بهذه البدلة ولا أنت ملك بهذا التاج ، وإنما الأعمال بالنيات ومهما أردتم بي من القصاص فذلك لا يقل شيئا من اعتقادي ، ولكنه يزيد ذنبك يا رودريك أمام إلهي العظيم لأنه سبحانه وتعالى يعلم السبب الذي من أجله تقمت على وسقتني الى هذا المجمع . وأنت تعلم وهذا الأب المحترم أيضا يعلم السبب الذي تقمتا من أجله على حتى سقتما الى هذا الموقف . ولست أهاب موقفا أراني فيه محقا ولو لم ينصفني الناس فإن الله نصيري وهو المطلع على القلوب ... »

فلما سمع الملك تعريضه بحديث فلورندا خاف أن يخرجه فيخرج به ويذكر اسمها وقصتها .. فتظاهر الملك بالغضب ووثب من مجلسه وصاح فيه : « ويلك !.. أمثل هذا الكلام تخاطب ملك الأسبان ؟.. » ثم التفت الى المجمع وقال لهم : « اذا صبرتم على أقواله فما أنا أخلع نفسي أو هو مخلوع من ساعته .. » قال ذلك وتشاغل باصلاح منطقته المذهبة

فقال أوباس وهو لا يزال رابط الجأش : « لا بأس أيها الملك اذا

فأنا خلعت هذا الثوب ، غير أن ذلك لا يغسلك من الرجز الذي
تعمدت الانغماس فيه ، ومن أجله سمعت توييخى فسائك الحق
وثقل عليك ، فأردت الانتقام مني ، ولكن الله هو المنتقم .. »
فقاطعه رئيس الأساقفة قائلاً : « أدعوك يا حضرة الميتروبوليت
ياسم الكنيسة أن تسكت » فلم يسمع أوباس غير الاذعان
واستولى على الجلسة الصمت برهة ، والكل مطرقون ، وربما
تهامس البعض بكلام لا يسمع له طنين . وكان الأب مرتين في أثناء
ذلك يجيل عينيه في الأساقفة يتأمل ما يبدو في وجوههم .. فإذا
وقعت عيناه على عين أحدهم أشار بحاجبيه وشفتيه إشارة
الاستهجان وهو يومئ الى أوباس كأنه يقول : « أنظر ما أوقع
هذا الرجل .. وما هذه الجرأة التي ارتكبتها في مثل هذا الموقف
المقدس ! » ..

أما أوباس فكان واقفا وقوف رجل برىء الساحة واسع الصدر
يرسل بصره الى الأساقفة بلا إشارة ولا ملاحظة ، ولكن يظهر من
رباطة جأشه وما يتجلى في وجهه من الهيبة والسرور أنه غير
مبال بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة ، لا اعتقاده أنه سيق
اليها زورا وبهتانا . على أنه تذكر ما دار بينه وبين ألفونس قبل
سفره وما تواطأ عليه من أمر الملك ونحوه ، فرأى التهمة تصدق
عليه من هذه الناحية .. ولكنه راجع ما صدر من أقواله في تلك
الجلسة ، فلم ير فيها ما يمنع انكاره حق الملك على رودريك . وفيما
هو يفكر في ذلك وقعت عيناه على صورة كبيرة معلقة على أحد

جدران الكنيسة ، تمثل السيد المسيح واقفا بين يدي نيلاطس للمحاكمة فتذكر قبوله الصلب دفاعا عن الحق فزاد استمساكا به أما رودريك فكان قد عاد الى كرسيه ، ولما رأى المجلس ساكتا خشى أن يعودوا الى البحث فيما وجَّهه أوباس من التهمة اليه فالتفت الى رئيس الأساقفة.. وقال وهو يظهر الهدوء كمن له سلطان يستطيع أن يدير آراء المجمع كما يشاء : « لقد كفانا ما سمعناه واذا رأيتم المسألة تحتاج الى نظر بعد كل ما بدا لكم من الأدلة الصريحة فاني أحل هذه الجلسة ونؤجل البحث الى جلسة أخرى .. »

فوقف الأب مرتين وقال بلهجته المعروفة ، موجها خطابه الى رودريك : « لا يتبادر الى ذهن مولاي من سكوت سيادتهم انهم يشكثون في حديث جلالة الملك أو يخامرهم أدنى ريب من ثبات التهمة على أخينا الميتروبوليت بعد الشهادة الصريحة التي نطق بها مولاي ولم ينكرها هو .. بل انه أيدها بما فرط منه من العبارات الصريحة التي تدل على غضبه من هيئة الحكومة الحاضرة ومن كان السبب فيها ، كأنه قال بصريح العبارة : « ان هذا المجمع قد خان البلاد باتخابه جلالة الملك .. » قال ذلك وهو يمضغ الكلام مضغا ثم يقذفه من فمه ، كأنه ينثر تبنا يتطاير على غير نظام فيقع على الثياب والوجوه .. والناس يطبقون أجفانهم لئلا يقع على عيونهم فيؤذيها .. !
أما أوباس فلما سمع قوله وما فيه من اثارة الخواطر عليه وجَّه

خطابه الى رئيس الأساقفة قائلاً : « قد سمعتم ما قاله الأب مرتين — ولا أضمن أنكم فهمتموه — وكأني بكم تتوقعون انكارى ذلك خوفاً من العقاب . كلا .. انى أشك فى قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم ، ولو خيّرْت فلربما اخترت سواء .. وأما الدعوى التى سقتمونى من أجلها الى هنا فما هى فى شئ من ذلك .. ان رودريك هذا الذى تسمونه ملكا انما جمعكم لمحاكمتى واتهمنى بهذه التهمة لأنى نصحت له أن يرجع عن جريمة همّ بارتكابها . ولولا خوفى من تدنيس هذا المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها . ولو فعلت ذلك وأنصفتمونى لبدأتهم برفعهم هذا الجانى بأيديكم .. »

فضج المجمع وهاج غضب الملك وخشى زيادة التصريح ، فتظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ، ولم يدر ماذا يقول ، فأثّقه الأب مرتين من تلك الورطة بقوله ، مخاطباً كاتب الجلسة : « يرى جلالة الملك أن أخانا الميتروبوليت قد تهور فى أقواله وخرج عن طوره الى الخلط والهذر ، كأنه جن لفرط ما خشيه من سوء العاقبة ، فلم يعد يفقه ما يقول . ولذلك فجلالة الملك يأمر بانتهاء الجلسة حالا وتأجيل المحاكمة الى جلسة أخرى ، ولا يجوز بعد صدور هذا الأمر أن يتكلم أحد فى هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية .. »

فنزل كلام الأب مرتين بردا وسلاما على رودريك ، ولم يسع الكاتب الا العمل بالاشارة ، لأن للملك الحق فى بدء الجلسة

وانهائهما دون سواء . ولم يكثرث أوباس بذلك بعد أن قال ما قاله-
ولو بالتلميح .. ثم وقف رئيس الأساقفة فتلا الصلاة الختامية ..
وانقضت الجلسة فخرجوا الى منازلهم الا أوباس فانهم ساقوه
تحت الحراسة الى مخفر آخر ، وأوصوا الحراس أن يشددوا عليه
الرقابة ..

- ٣٩ -

الفونس ويعقوب

فلنتركه وشأنه ولنعد الى ألفونس وما كان من أمره بعد ذهابه
بأمر الملك ، فقد خرج من منزله ومعه يعقوب ، وسارا الى مقر
المعسكر في بناء كبير بضواحي طليطلة وحولهما الفرسان الذين
جاءوا بأمر الملك فأوصلوهما الى المعسكر وعادوا
فلما دخل الفونس استقبله الجند بالاحترام فترجل ومشى ،
ويعقوب يسير بين يديه وليس معه من الخدم سواء ، وقد استغربوا
منظره بما ذكرناه من اهماله لحيته وثيابه ، حتى وصلوا الى غرفة
خاصة بالقائد الكبير ، فاذا بخادم واقف هناك ويده كتاب
عرف ألفونس من منظره الخارجي أنه من الملك ، فخفق قلبه لفرط
ما غاظه الكتاب الماضي .. فدخل ولم يطلبه حتى جلس في صدر
الحجرة ، فاستأذن الرسول من يعقوب في الدخول على الفونس
فلما أبلغ يعقوب ذلك لألفونس ، قال له : « لا حاجة الى دخوله

هات الكتاب منه » فأخذه منه وجاء به الى ألفونس وهو يقول :
« لا تغضب يامولاي . لعل فيه أمرا بالرجوع الى منزلك »
فتناول ألفونس الكتاب وهو صامت ، ثم فضّته فاذا هو من
الملك يقول فيه :

« من رودريك ملك القوط الى القائد الباسل ألفونس
« أما بعد ، فقد سبق أن كتبنا اليك بالذهاب الى كوتية.. ولم
نعين لك المدينة التي تنزل فيها ، فانزل مدينة استجة Astigia
من كوتية بتيكة وأقم برجالك في إحدى القلاع ريثما أكتب اليك
عن الجهة التي تذهب اليها . وقد أرسلت اليك مع هذا كتابا تدفعه
الى كونت بتيكة ليشترلك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة .
والسلام

كتب في قصر طليطلة »

فلما فرغ ألفونس من قراءة الكتاب أمر يعقوب أن يأتيه من
الرسول بالكتاب الآخر ، فجاءه به ودخل عليه وأغلق الباب وراءه
وقدم له الكتاب وهو يتفرس في وجهه . فلما رأى ما يبدو عليه
من الانقباض واليأس أراد أن يخفف عنه فعطس عطسة ارتج لها
المكان ، فانتبه ألفونس ونظر الى يعقوب فاذا هو ينظر اليه
ويضحك ويهز رأسه ويحك ذقنه بأفامله : فاستغرب ألفونس ذلك
منه وكاد ينتهره لو لم يسبق الى ذهنه ما آتته من احترام عمه
أوباس له واعتماده على أقواله . وتذكر السر الذي توسمه في
سيرته فابتسم به ، وقال : « ما الذي يضحكك يا يعقوب ؟ ..

هنيئاً لقلبك » قال ذلك وتنهّد

فتنهّد يعقوب تنهّداً سمع له صغيراً ، وقال له : « بل هنيئاً لك أنت ، كيف يخدمك الحظ على أهون سبيل ؟ »
فهز ألفونس رأسه وقال : « تبا لهذا الحظ .. دعنى وشأنى »
قال ذلك ونهض وهو يقول : « لا يليق بنا البقاء هنا ونحن منكفون بالذهاب الليلة ، ولا بد لى قبل كل شيء من استدعاء القواد وإبلاغهم الأمر بالاستعداد ، فامض الى قائدى الخمسمائة واستقدمهما الشئ .. »

وكان الجند الأسباني في عهد القوط مؤلفاً من فرق ، كل فرقة ألف جندي يسمى قائدها رئيس المعسكر *Propositus Ostis*
تحتّه قائدان كل منهما يرأس خمسمائة واسمه *Quingentenarus*
وتقبّس الخمسمائة الى مئات اسم قائد كل مائة *Centenarius*
قائد المائة . وكل مائة تنقسم الى عشرات اسم قائدها *Decanus*
أى قائد العشرة فالقائد الغام يبلغ أوامره الى قائدى الخمسمائة وهما يتوليان تدير الجند

فخرج يعقوب ثم عاد وأخبر ألفونس أن القائدين قادمان ، ثم جاءا وقد لبسا ملابس السفر وشعرهما - مثل شعور سائر القوط - مسترسل على أكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح النعم في قيافتهما . فلما دخلا سلّما على ألفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان أبوه حياً ويحترمانه من أجل ذلك ،

وقد سترهما توليته قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من حسن أخلاقه وطيب عنصره ، وكافا من أهل الغيرة على عصبية القوط لم يرضيا يرودريك الا مع الجماعة فاذا خلوا تحدثا بما كان من تحوّل النفوذ الى العنصر الروماني بعد تولي رودريك ، ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدي أحد حتى ولا ألفونس نفسه لأنه أصبح مثلهم في ذلك فلما رآهما ألفونس تذكر أنه شاهدهما من قبل ، ولكنه استغرب تأهبهما للسفر قبل أن يصدر لهما الأمر بذلك فقال : « أراكما بملايس السفر ؟ .. »

- ٣٩ -

ومبا

فتكلم أحدهما ، واسمه « ومبا » ، وكان طويل القامة شديد سواد العينين والشعر ، وقال : « لقد وردت إلينا الأوامر بذلك من جلالة الملك تعجيلا للرحيل ، فالجند الآن كله على أهبة السفر ، ولم يبق الا أن يصدر الأمر من مولاي ألفونس » فلما سمعه يذكر اسمه استأنس به وشعر براحة اليه وقال : « نغادر هذا المعسكر الآن ، فأرجو أن تتوليا تدير الجند في وحيله واقامته الى أن نبلغ مقصدنا .. » فأشار بإحناء الرأس أن : « سنفعل » . ثم تكلم ومبا ، وكانت

له جرأة وتقدم على رفيقه قائلا : « ألا ينبئنا مولاي عن الجهة التي نحن ذاهبون إليها ؟ »

قال ألفونس : « اتنا ذاهبون الى استجة على نهر السنجيل في كونتية بتيكة ، فهل تعرف الطريق إليها ؟ .. »

قال : « أعرفها جيدا ، فان الطريق إليها نحو الشمال والغرب الى مريدة على نهر أناس ، فنعبه ونسير شمالا شرقيا الى قرطبة ، ثم ننحدر شمالا شرقيا الى استجة على نهر السنجيل ، وقد عرفت هذه المدينة وصلّيت في كنيستها ، وأقمت في قلعتها ، وعبرت على جسرهما ، وعرفت أديرتها وأسواقها .. »

قال ألفونس : « بورك فيك ، لقد ألقيت الأمر اليكما في تدبير هذه الحملة في أثناء المسير ، ولكنني أوصيكما بأمر يهمني كثيرا ، وذلك أنني لا أريد أن يعتدي الجند في أثناء الطريق على أحد من الفلاحين ، ولا يأخذوا لأحد مالا أو زرعا ، ولا يسيثوا لأحد في معاملة .. فاذا فعل أحد ذلك كان جزاؤه عندي الجلد أو القتل . واذا كان من أرباب الرتب جردته من رتبته وأملاكه وأهنته ، فاني أريد أن يسير هذا الجند بكل هدوء وسكينة .. » فلما سمع ومبا ذلك ظهر الاعجاب في عينيه البراقنتين وقال : « بورك فيك وفي أصل أنت فرعه ، لقد عودنا المرحوم أبوك مثل هذا العدل والرافة ... »

فلما سمع قوله عض على شفته وأطرق ، وكأنه يقول له : « ليس هذا وقت التصريح » .. ثم أتم كلامه قائلا : « وأوصي

الكهنة المرافقين لهذه الحملة أن يوصوا الجند بهذه النصايا ، ولا يخفى عليكم أن جندنا أكثر ما يحسنون الحرب مشاة ، فلا تتعبوا المشاة بالمسير ولا تحمّلوهم أحمالاً ثقالاً . ويكفيهم ما يحملونه من الأدرع والأسلحة من السهام والحراب (١) »
فلما فرغ الفونس من كلامه ، لم يزد ومبا على إشارة الطاعة ثم قال : « ألا يأمر مولاي بحاشية من الأعوان والموالي تسير في خدمته خاصة ؟ »

فأراد ألفونس أن يصرح له بالتخفيف عن الموالى ، فوقعت عيناه على يعقوب ، فرآه يشير إليه إشارة خفية أن لا يفعل فاتبه ، وقال : « لا أحتاج الآن الى أحد فان معى خادمى هذا ، وهو يدبّر لى ما أحتاج اليه واذا احتجت الى سواء طلبت .. »
فخرج القائدان فرحين بمرافقة ألفونس . أما هو فلما خلا بيعقوب قال له : « رأيته تشير الى فى أثناء الكلام ... »
قال : « خفت أن يسبق لسانك الى قول تؤاخذ عليه ونحن بين يدي الأعداء ، فاحتفظ بكل ما دار بينك وبين مولانا ونبراسنا أوباس لنرى ماذا يكون . واسمح لى أن أتمم ما كنت قد بدأت به من قبل . اعلم يا مولاي أنك موثق باذن الله لأن الأمر الذى كنت لا تستغنى فى الوصول اليه عن بذل الأموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه عفوا .. »

قال ألفونس : « وماذا تعنى ؟ .. »

قال يعقوب : « أعنى أن المشروع الذى فكرت فيه مع مولاي الميتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم ، قد أصبح السبيل للشروع فيه مبهدا منذ الآن . هذه فرقة من الجند الآن تحت أمرك فقرّبها منك وحبّبها اليك ببذل المال .. المال .. » قال ذلك وتلمّظ كأنه يتلذذ بطعام شهى
فقطع الفونس كلامه قائلا : « ومن أين لنا بالمال يا يعقوب ..؟
ما أهون ابداء الرأى فيه وما أصعب العمل به .. ا »
فوضع يعقوب كفه على صدره وأحنى رأسه وأطبق جفنيه ،
ولسان حاله يقول : « المال عندى وعلى احضاره .. »

— ٤٠ —

الخمر

فتذكر ألفونس مثل ذلك الوعد بين يدي أوباس فى ذلك الصباح ، فتأقت نفسه الى استطلاع سر هذا الرجل فقال : « لقد ذكرتني بوعدك السابق ، ولا يخفى عليك انى شديد الرغبة فى معرفة حقيقة أمرك ... »
فتحوّل وجه يعقوب الى الجد مع بعض الانتباض وقال :
« فليأذن مولاي بتأجيل ذلك الى وقت آخر . وأما المال فانى سأبيّن له سبيل الحصول عليه بعد وصولنا الى استجة والأمور مرهونة بأوقاتها . طب نفسا وقر عينا وكن على يقين انى على قبح

خلقتى وقذارة مظهرى لا. أخلو من حسنات نافعة . والآن لا بد لنا من الركوب لأنى أسمع قرع الطبول ايذانا بالمسير » قال ألفونس : « التى بالفرس فأركبه وتول أنت أمر الخدم وتدير ماقد نحتاج اليه من الطعام ونحوه ...وكن أنت نائبا عنى فى كل ذلك ، ولا تدع أحدا يأتى التى من الخدم ، فاذا احتاج أحد منهم الى شىء فليتصل بى بواسطتك .. »

فخرج يعقوب وأحضر فرسا من أحسن أفراس الحملة وعليه سرج ثمين ، وكان هو بلبس القواد وقد زينت شبابه وجماله . وقبل الغروب أذن بالرحيل فأقلعت الحملة فحترت فى طريقها قبل خروجها من ضواحي طليطلة بمرتفع مطل على طليطلة . فالتفت ألفونس الى المدينة وهى على مرتفع أيضا وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى فوجّه نظره الى قصر رودريك على ضفاف التاج ، ولما وقعت عيناه على قصر فلورندا خفق قلبه خفقانا سريعا وهاج به الوجد ، وتذكر ما كان من لقائه اياها فى ذلك الصباح ، وما آلت اليه حاله فى ذلك المساء ، ونظر الى السماء والغيوم تتكاثف وتلبد أشبه بما يتكاثف على قلبه من سحب الهيام والشوق ، وخيّل له ان الطبيعة تشاركه فى ذلك الشعور.. والمرء مفطور على تفسير حوادث الطبيعة بما يوافق شعوره ، وتعليلها بما يلائم اعتقاداته وأوهامه.. ويغلب فيه أن يراها مسخرة له لاتأتى بحركة الا خيره أو شره ، وأنها تفعل ذلك عمدا بعناية خاصة ، فاذا أمطرت السماء وهو مسافر توهم أنها تفعل ذلك لتعوقه ، واذا

كان يـرجو الغيث لزـرع أو نحوه ، قال انـها تمـطر خـدمة له . فلا غـرو اذا تـوهّم ألفـونس أن السـماء تـعـبس وتـتـقـطـب غـيومـها شـعـورا بفـراق حـبيـبـته ، والمـحـب كـثير الأوهـام سـهل التـطـبـيق لكـل ما يوافـق احـساسـه من جـهة حـبيـبه ولو كان ذلـك مـخـالفا للنواميس الطـبـيعية ولم تغـب الشـمس حـتى أظـلـمت الدنـيا وتـساقطت الأمطار وهبـت الـريـاح ولم يـعد المسـير ممكـنا لـهم . فأمر ألفـونس بالنـزول هـناك فنـصبوا الخيام .. وفـي جـملـتها خـيمة له ، نصـبوها بـسرعة ، وجاء يعقوب فاستدعاه اليها ودخل هو معه . وكانت لـيلة باردة ، قاسى فيها ألفـونس من هـول الوحشة والشوق مـثل ما قاسـته فلورنـدا فـي تـلك اللـيلة من العذاب ، وألفـونس غافل عن حاله لاعتقاده أنها على موعـد معه ، ليأتى لاتقـاذها فـي ذلـك المساء ، وقد وکل فـي ذلـك عمه اوباس ..

فلما دنا الوقت المعين لاتقـاذ فلورنـدا تصورها ألفـونس خارجه من قصر رودريك مع أجيلا وشتيلا في القارب الى منزل أوباس ، وتوهّم أنها أصبحت في مأمن هناك ريثما يبعث بها اليه حيثما يكون . ثم تذكر بغـتة أن أوباس لا يعلم المكان الذى هم ذاهبون اليه ، ففطن الى السبب الذى من أجله غيّر الملك خطة مسيره ، والتفت الى يعقوب ، وكان جالسا في أحد جوانب الخيمة وقد تـزمل بـقـباء كـثيف وتـلمـلم وتـجمّع من شـدة البرد ، والرياح تهب والـرعـود تقـصف ، وقال له ولم يحاذر أن يعلو صوته لعلمه بأنشغال الآذان بقصف الرعد عن سماع حديثهما : « هل علمت

السبب الذى من أجله غيرَ الملك خطة مسيرنا ؟.. »
فرفع يعقوب رأسه وقال ولحيته ترتعش من البرد : « أظننى
عرفت ، وعرفت أشياء أخر لولا البرد الشديد لكنت أقصمها
عليك .. »

قال : « وماذا عرفت ؟.. قل لى واذا كنت تشكو البرد فإليك
بقدح من الخمر فاشربه فيدفئك » . قال ذلك وأشار الى خُرج
كان فى الخيمة يعرفه يعقوب ثم قال : « وأعطينى قدحا فاشربه أنا »
فتشبّد يعقوب ووقف وهو يرتعد من شدة البرد . ومشى حتى
أخرج الوعاء ، وصب منه الخمر فى قدح من الفضة — كان هناك —
ودفعه الى ألفونس فشربه ، وتناول قدحا آخر صب فيه لنفسه
وشرب ، ثم صبَّ قدحا آخر لألفونس وآخر لنفسه ، حتى اذا دبت
الخمر فى عروقه فأذهبت الرعدة ، ملأ القدح وتناوله ووقف بين
يذى ألفونس ورفع يده والقدح فيها ، وهو ينظر الى ما حوله
كأنه يحاذر أن يراه أحد وقال : « اشرب هذه الكأس تذكارا
للسرِّ الذى بيننا ونرجو أن ينجح سعينا فيه .. وتذكارا للأمنية
التى هى فى خاطر مولاي ألفونس ويظن أن يعقوب غافل عنها —
وان كان لا بد له من أن يكشفه بسرّها — اذ لا غنى له عن
خدمته فى الحصول عليها .. »

قال ذلك وشرب وهو يتنسم وألفونس ينظر اليه وقد استغرب
تعريضه بالسّر الآخر ، وما هو الا سر حبه فلورندا ، فأراد أن
يتحقق من ظنه فقال : « وأيّة أمنيّة تعنى يا يعقوب ؟.. »

فضحك يعقوب وقال : « لقد لعبت الخمر برأسى فأعذرني اذا حسرت خجابه التهييب ونطقت بالواقع . الأمنية يامولاي في قصر رودريك ، وهى التى جعلت ذلك الظالم يبعث بك فى هذه المهمة ولكن لا بد من الانتقام والرجوع بالنصر المبين .. » قال ذلك وضحك وهو يمسح لحيته من آثار الخمر ، وكانت قد تلوثت بنقط تساقطت عليها وهو يشرب القدر الأخير . ثم خطا خطوة الى ألفونس وانحنى نحوه وهو يقول : « قد توهم رودريك أنه قد نفذ غرضه بارسالنا الى استيجة ، وفاته أنه يخدم غرضنا ، اذ لا بد لنا من الذهاب الى هذه المدينة للمشروع الذى عزمنا عليه » فاستغرب ألفونس قوله وضجر من الأحاجي والأغاز ، وقال له : « لقد أضجرتنى يا يعقوب بإشاراتك وألغازك ، لماذا لاتصرح لى بما فى نفسك ؟ .. »

فانقبض وجه يعقوب مرة أخرى وقال : « قلت لمولاي ان موعدنا فى ذلك قريب ان شاء الله ، وأرجو أن لا يلح على فى الأمر فان الاحاح مضر . اصبر يامولاي وسأطلعك على كل شئ قريباً . واعلم أن رودريك هو الذى عجل بكشف هذا السر حين أرسلنا الى هذه المدينة »

فندم ألفونس على الحاحه وضجره ، وأصبح ليعقوب عنده منزلة رفيعة لما آسنه فيه من الحمية ، فأراد أن يصرف عنه ذلك الاتقباض فقال له : « ما رأيك فى المهمة التى أنفذنا رودريك فى قضائها ؟ .. »

قال : « أظنها ثورة نشبت في بعض المدن من أمثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا أخفى عن مولاي بعدما تعاهدنا عليه ، ان أهل هذه البلاد في غاية الضتك من استبداد حكامهم ، وكانوا يشكون من ضغط الرومان عليهم .. فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان ، فاذا هم تحت النيرين معا ، وقد أصبحوا أرقاء لا حرية لهم ولا منزلة ولا عقار ولا مال . فلما لمسوا ضعف هذه الدولة كثر تمردهم وهياجهم (١) وقد سهل هذا الأمر عليهم خطأ ارتكبه ملوك القوط المتأخرين مع جماعة اليهود ، فأكرهوهم على نبذ دياتهم واعتناق النصرانية فأصبح اليهود عوناً عليهم .. »

.. فقطع الفونس كلامه قائلاً : « ولكن اليهود قد اتقروا من أسبانيا الآن ولم يبق فيها يهودى كما لا يخفى عليك .. » قال : « أعلم ذلك يا مولاي وأعلم أيضا أن ملوك القوط قبل المرحوم والدك قد أسرفوا في اضطهاد اليهود ، وخيروهم بين القتل أو النصرانية أو الهجرة ، فهاجر بعضهم وتنصّر الباقون ، فاختفت اليهودية ، ولكنها لم تندثر.. وهب انها اندثرت فاليهود لا يزالون موجودين » . ثم التف بعباءته لفا شديدا وهو يقول : « أرانا خرجنا من الموضوع قبل الأوان ، وخلاصة الأمر ان المهمة التى نحن ذاهبون من أجلها ، مهما يكن من أمرها فانى ضامن اخمادها بدون أن نجرّد سيفنا أو نرمى نبلا.. طب نفسا واصبر

حتى نصل استجة فيكشف لك كل شيء . ثم تحوّل الى
مجلسه الأول وهو يقول : « وقد آن وقت النوم .. ألا يرغب
مولاي في ذلك ؟ »

فابتدره الفونس قائلا : « وقبل الذهاب الى النوم اسقنا كأسا
أخرى واشرب مثلها وهي خاتمة الحديث »
فصب له قدحا وشرب مثلها وتوسدا ، وألفونس يعد نفسه
بالاطلاع على أسرار كثيرة بعد وصوله الى استجة

— ٤١ —

الفلاحون

وناما تلك الليلة نوما عميقا على أثر ما عانياء من التعب بالرغم
من البرق والصواعق وشدة هبوب الرياح . وأفاق يعقوب مبكرا
وخرج لاعداد ما يحتاج اليه ألفونس ، ولم تشرق الشمس حتى
كانوا على أهبة الرحيل ، فقوضوا الخيام وركبوا حسب النظام
الموضوع ، وألفونس ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان .
أما ألفونس فقد كان يمشى ويلتفت الى طليطلة وكان بعضها لايزال
ظاهرا ، وبعد هنيئة عبروا الجسر فوق نهر التاج وكان عبورهم
آخر عهد ألفونس بمرأى تلك المدينة لأنها توارت وراء التلال
سارت الحملة بأثقالها وأحمالها نحو الجنوب الغربى ، وقد صحا
الجو وأشرقت الشمس وأرسلت أشعتها على البساتين والغياض
والأودية والتلال ، وألفونس يعجب لما يقع بصره عليه من البقاع

الخصبة وفيها أصناف الأشجار والمغارس ، ولكنه استغرب لخلو
المزارع من الناس ، ولم يكن يتوقع أن يرى فيها غير العبيد أو
من جرى مجراهم من الفلاحين والحراثين ، وكان الأشراف
وأصحاب الضياع يعاملونهم معاملة الأرقاء ، وهم يقيمون في المدن
ويندر من يقيم منهم في المغارس . وكانت أوروبا في ذلك العصر
مؤلفة من المدن والضياع . فالمدن مقر الحكام والأشراف ، أما
الضياع فكانت عبارة عن المغارس يقيم فيها الفلاحون ويعملون
في الأرض . وهم والأرض وما عليها من الدواب والماشية ملك
للأشراف (١)

وكان ألفونس قلما يخرج من المدن ، ولم يكن يهيم التفكير
في حال أولئك الفلاحين .. ولكنه بعد ما دار بينه وبين أوباس
بشأن المثلث وما عزموا عليه من تحرير أولئك الأرقاء والاعتماد
عليهم في تحرير المملكة ، أصبح همه دراسة حال البلاد وأهلها .
فاذا هم يمشون في أرض لا يظهر أهلها عناية بزراعتها واستثمارها ،
وقلما شاهدوا فيها أحدا من الناس . فلما تكرر ذلك المنظر
حواله التفت الى يعقوب ، وكان راكبا جوادا وراء جواده ، فلما
رأى ألفونس يلتفت اليه ساق جواده حتى حاذاه ونظر اليه نظرة
مستفهم . فقال ألفونس بصوت منخفض : « كنت أتوقع أن أرى
المزارع أهلة بالناس وقد قطعنا مسافة طويلة في أرض عامرة ولم
أشهد أحدا ... »

(١) كيزو - تاريخ مدن أوروبا

فقال : « ان الناس كثيرون ولكنهم تعودوا اذا رأوا جندا مارا
أن يختفوا من وجوههم .. فرارا مما قد يكلفونهم به من الأعمال
الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها . ولم يخطر لهم أن
جنودا يمكن أن يسيروا مثل سيرهم هذا لا يتعرضون لأجد منهم
في شيء . والجند لم يسر بهذا الهدوء الا بأمر مولاي »
فتأثر ألفونس من ذلك القول وتمثل له الخطأ الذي ترتكبه
الحكومات الظالمة في تكليف رعيتهما فوق طاقتهم فتعود الخسارة
عليها وعليهم ..

قضى ألفونس وحملته في الطريق بضعة أيام قطعوا في أثنائها
سهولا خصبه ، وجبالا فيها كثير من مناجم الفضة والذهب ،
وأودية يسيل فيها الماء فيستقى الغياض والبساتين ، وأرض الأندلس
من أحسن البلاد خصيا وعمرانا وانما تحتاج الى من يتعهدا
بالغرس ويظللها بالعدل ، فضلا عما كان فيها من المدن العامرة .
وكانت أول مدينة كبرى مروا بها هي مريدة ، فقطعوا نهر أناس
وساروا بضعة أيام أخرى الى قرطبة فعبروا نهرها وساروا الى
استجة ..

- ٤٢ -

استجة

وكانت استجة مدينة أهلة بالسكان على الضفة اليسرى لنهر

سنجیل حولها سور متین علیه الأبراج من صنع الرومان . ولا بد للقدام إليها من قرطبة ان يعبر على جسر فوق ذلك النهر ، فلما دنوا من المدينة فی الضحی بعث ألفونس رسولا بكتاب رودريك الى حاكمها ، فعاد الرسول ومعه نفر من جند المدينة وبيد كبيرهم أمر بتسليمهم القلعة الكبرى المشرفة على النهر من يمينه ، والنهر بينهم وبين المدينة ، وهي قلعة كبيرة بنيت لاقامة الجند . فاحتلوها وسار ألفونس الى غرفة فيها .. هي أحسن غرفها وأوسعها ، وله نافذة مطلة على النهر والمدينة ، وعلى ماوراءهما وبينهما من البساتين والمزارع

صعد ألفونس الى غرفته وكان يغتوب قد سبقه إليها وأعد له ما قد يحتاج اليه من لوازم الراحة ، وأمر بعض الخدم فأعدوا طعاما حمله هو اليه فوضعه على مائدة في تلك الغرفة ودعاه إليها وكان ألفونس منذ صعوده الى الغرفة قد جلس الى النافذة وخلا بنفسه ، فتذكر حبيته وعمه ومجيئه الى تلك المدينة رغم ارادته ، وليس هناك ما يدعو الى ذلك سوى سعى رودريك في ابعاده عن حبيته . ثم تصور القصد من ابعاده عنها وما قد يكون في عزم رودريك بشأن فلورنذا ، فاقشعر بدنه وأحس كأن ماء يغلي يصب على رأسه . ثم تذكر الاحتياطات التي اتخذها لاتقاذ فلورنذا من ذلك القصر فهدأ روعه

وفيما هو في هذه الهواجس سمع وطء أقدام في الغرفة فالتفت فرأى يعقوب واقفا ويدها متقاطعتان على صدره كأنه يسمع

صلاة .. فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يتسهم ويقول : « ألا يأمر مولاي بتناول الغداء ؟.. »

فلم يصبر ألفونس عن الابتسام وقد انشرح صدره ، فوقف وأسرع الى المائدة بدون أن يتكلم ، وسار يعقوب في أثره فجلس ألفونس وظل يعقوب واقفا مثلما يقف الخدم ، فأشار ألفونس أن : « اجلس » فأبى واعتذر . فقال ألفونس : « لم يعد يليق بى أن أعدك خادما بعد ما علمته من علو همتك وتمسكك بنصرة الحق .. » فقال يعقوب : « العفو يا مولاي ، انك لم تعلم عنى شيئا بعد وما هى الا أقوال سمعتها ، فاذا رأيت منى عملا كبيرا ورأيت بعد ذلك اننى أستحق مجالستك أو مؤاكلتك فعلت .. »

فتذكر ألفونس وعده بكشف السر بعد وصوله استجابة ، فلم يشأ أن يذكره بذلك لئلا يكون الجواب تسويفا فصبر حتى يكشفه هو من تلقاء نفسه ، ولكنه قال له : « لك الخيار يا يعقوب فيما تفعل . ثم انى فهمت من بعض أقوالك أنك تعلم قصة فلورندا وحديثها .. »

فأشار يعقوب برأسه أن : « نعم »

فقال الفونس : « فما رأيك فى شأننا وشأننا وهى لا تعلم مقرنا ، ولا عمى يعلمه .. ألا ترى أن نبعث اليهم بالخبر كى يحضرا الينا ونحن هنا بعيدون عن ذلك الطاغية ؟.. »

فقال : « لا تقل اننا بعيدون .. أتظن رودريك أبعدك عن قصره وأغفل أمرك ؟.. ألا تعلم ان معظم رجال هذا الجند عيون عليك

يراقبون حركاتك ، لعلهم يتقربون الى البلاط الملكى بالايقاع بك ؟ واذا هرمت الدولة واختلّت شئونها كثر فيها الجواسيس وتعددت أسباب الوشاية ، وفسدت النيات وأصبح الأخ عينا على أخيه ، والابن عينا على أبيه . يساعدهم على ذلك انغماس الملك فى الترف وانشغاله به عن سياسة رعيته مع ما يحول من أهل التملق بينه وبين المتظلمين . فلا تثق بأحد ولا تأمن أحدا الا اذا رأيت له فى اخلاصه منفعة أو كانت مصلحته ومصلحتك سواء .. حتى يعقوب هذا ...» قال ذلك وأشار بسبابته الى صدره . فعجب ألفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئا من شئون الناس ، ولا اطلع على فساد الطبيعة الانسانية ، فسكت وعاد الى الأكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب لا يزال واقفا بين يديه فلما نهض ألفونس عن المائدة قال يعقوب : « استرح - يامولاي - الآن وائذن لى بالنزول الى المدينة ثم أعود اليك قبل الغروب ، وفى الغد ننزل اليها معا لنرى أسواقها وساحتها » فأدرك ألفونس بغتة أن الغد يوم أحد ، فقال : « ونسمع القداس أيضا »

فقال يعقوب : « نسمعه يا سيدي . وسنبعث فى الأمر غدا .. هل يسمح لى مولاي بالانصراف ؟ » قال : « انصرف ، وقبل انصرافك ابعث التى بالقائد ومبا لأخاطبه فى أمر الجند » قال يعقوب : « سمعا وطاعة » .. وخرج

وعاد ألفونس الى مجلسه بجانب النافذة وهو لا يزال بملابس السفر ، وعاد الى التفكير في فلورندا وأوباس ورودريك حتى فطن الى أقوال يعقوب ، فانبسطت نفسه بقرب موعد المكاشفة . ثم سمح وقع أقدام بالباب فتحول لملاقاة ومبا ، فدخل وألقى التحية ووجهه منبسط اشارة الى ما يمكنه من الاحترام لألفونس والغيرة عليه ، فرد ألفونس التحية وسأله عن حال الجند ، فقال : « انهم في نظام وسلام يدعون للقائد الباسل بالرغد والظفر » فقال ألفونس : « هل سمعتم شيئا عن أحوال السكان هنا ؟ » قال ومبا : « سمعنا أنهم في هدوء لا يبدون حراكا ، ولعلهم ركنوا الى السكينة على أثر بسماعهم بقدمونا » قال : « أرجو ، على كل حال ، أن تسهروا لمراقبة الأحوال ، وتواصلوا استطلاع الأخبار تولى في درايتكم ما يكفل الاطمئنان » وفهم ومبا - عند ذلك - من كلام ألفونس واشاراته أنه فرغ مما يريد ، فحيّاه وخرج من الغرفة . ولما خلا ألفونس بنفسه نهض فبدل ثيابه وعزم على البقاء بقية ذلك اليوم في الغرفة للاستراحة من متاعب السفر

- ٤٣ -

يوم الأحد

ولما مالت الشمس الى الغروب ولم يرجع يعقوب ، استبطاء .

ألفونس وانشغل خاطره عليه ، وجلس الى النافذة المطلة على الجسر - ولا بد لمن يخرج من المدينة الى القلعة من المرور على هذا الجسر - ولم تمض برهة حتى رأى يعقوب قادما وقد تأبط حصرة فظنه ألفونس قد جاءه بشيء من فاكهة المدينة ، فصبر حتى وصل الى القلعة ولبث ينتظر دخوله عليه . فأبطأ يعقوب ثم سمع خطواته ، وبعد قليل دخل وحيثا ويداه فارغتان

فقال ألفونس : « ما الذى حملته الينا من المدينة ؟ » .

قال يعقوب : « لم أحمل منها شيئا لأننا ذاهبون اليها غدا »

قال ألفونس : « رأيتك متأبطا شيئا فما هو ؟ »

فضحك يعقوب وقال : « لا شيء ! .. »

فاشتدت رغبة ألفونس فى استطلاع حقيقة ذلك الشيء فقال :

« هل ثمة ما يمنع اطلاقى عليه ؟ » ..

قال : « انتظر الى الصباح يامولاي ولا بد من اطلاقك عليه »

وفى الصباح التالى نهض ألفونس وهو شديد الشوق لمعرفة

ما فى الصرة ، ولم يكده ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب

باليثياب فغسل وجهه ومشط شعره ولبس ثوبه استعدادا للنزول

الى المدينة ، وهو يتظاهر بالصبر على استطلاع ما فى الصرة حتى

يأتيه بها يعقوب من تلقاء نفسه . فلما فرغ ألفونس من كل شيء

ولم يبق الا الخروج ، دخل يعقوب والصرة فى يده ، وأغلق باب

الغرفة وراءه . فوقفت ألفونس واستعد لمشاهدة ما فيها ، ففتحتها

يعقوب وأخرج منها شيئا من نسيج أسود شبيه بأقية الكهنة ،
وإذا هما ثوبان أسودان كل منهما جلباب طويل يغطي الساق الى
أسفل القدم . فتنلوا يعقوب أحدهما وبسطه وقدمه الى الفونس
وهو يقول : « ألبس هذا الجلباب يا مولاي » فوضعه الفونس
على كتفيه والتف به فغطى كل أثوابه ، ولبس يعقوب الجلباب
الآخر والتف به ، ثم مدَّ يده الى طوق ذلك الجلباب من خلف العنق
فأخرج منه شيئا كالكيس معلقا من أحد جوانبه بالطوق من
الوزء ، وأرسل ما بقى منه على رأسه حتى اشتمل على الرأس
والوجه جميعا . وفي غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ، ثقبان للعينين
وثقب للفم فأصبح يعقوب شبعا أسود . وتقدم الى الفونس
فأخرج الكيس من قفا عنقه وألبسه اياه حتى صار مثله ، وكان
يعقوب يفعل ذلك والفونس صابر ليرى نهاية هذه العملية . فلما
فرغ يعقوب من ارتداء الجلباب ، قال : « هذا الذى أتيتك به
من أستجة فأنزعه الآن الى حين الحاجة »

فاستغرب الفونس مما عمله يعقوب ، وقال : « ومتى نحتاج
اليه .. ؟ » ..

قال : « قريبا ان شاء الله .. لا تكن لجونا .. » قال ذلك
وتزع جلبابه والجلباب الآخر عن الفونس ، وطوى كلا منهما
على حدة وجعل أحدهما تحت درعه من جهة الصدر وأرخب
الدرع عليه حتى اختفى تحتها ، وأتى بالجلباب الآخر وطواه
وطلب الى الفونس أن يخفيه تحت درعه ، ففعل وهو لا يفهم

الغرض من ذلك . ثم قال يعقوب : « هلم بنا الى الكنيسة .. »
وبينما كان يعقوب والفونس في طريقهما للخروج من القلعة ،
التقيا عند الباب بومبا ، فوقف للتحية فقال الفونس : « انى
ذاهب الى الكنيسة فاحفظ ما عندك .. » فأشار وبما برأسه
ويده بالسمع والطاعة

سار الفونس ويعقوب يتبعه ، وليس معه من الخدم والإعوان
سواه ، حتى مرا على الجسر ، ودخلا باب المدينة وهما لا يتكلمان
لأن يعقوب لا يقدم على الكلام الا جوابا على خطاب جريا على
عادتهم فى معاملة الملوك . وكان الفونس غارقا فى الهواجس
لا ينتبه لشيء مما حوله ، فقد كان مشغول البال بفلورندا
ورودريك وحديث يعقوب وذلك الثوب الأسود . ولم يفق من
تلك الخواطر حتى دخل الأسواق والناس يتسابقون فيها نحو
الكنيسة . وبعد هنيهة أفضى بهما المسير الى ساحة كبيرة فى
وسط المدينة هى ملتقى الناس من كل ناحية . ولم يكن الفونس
يعرف الطريق الى الكنيسة وانما كان يقتفى خطوات يعقوب أو
اشاراته . وبعد أن قطعا تلك الساحة أطلا على باب فخم تراجعت
عنده الأقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال :
« هذا باب الشارع الأعظم وهذه هى الكنيسة .. » وأشار بيده
الى باب كبير بجواره .. فاتجها نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين
والناس لا يعلمون من هو الفونس ، ولكنهم تبينوا من استرسال
شعره ونوع لباسه . انه من الأشراف وأصحاب المناصب

قضيا فروض الصلاة في تلك الكنيسة وهما لا يزالان صامتين. فلما انقضت الصلاة وخرج الناس ، خرجا والفونس لا يدري الى أين يذهب فتأخر حتى مشى يعقوب ، ثم تبعه حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الأخرى . فاستغرب الفونس ذلك ، ولم يستطع أن يمسك نفسه عن السؤال ، فالتفت الى يعقوب وقال له : « الى أين نحن ذاهبان في هذه المدينة ؟ .. » قال : « اننا ذاهبان الى هذه الأكمة » وأشار الى تل قريب لا شيء من العمارة فيه . وما لبثا ان وصلا اليه حتى صعدا الى قمته والفونس لا يفهم ماذا وراء ذلك ، فقال يعقوب : « انظر يا مولاي الى استجابة أماننا .. وانظر الى سورها فانك ترى على هذا السور برجا عاليا .. »

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيدا لأنهما على مقربة من المدينة فقال : « نعم »

فقال يعقوب : « اذا جئت هذا المكان في الليل فلا تخطيء هذا البرج لارتفاعه فوق السور وليس على السور برج سواه . احفظ هذا ، واتبعني الآن » قال ذلك وانحدر عن التل الى الجهة الأخرى فاذا هو أمام كهف مهجور وقف ببابه والفونس الى جانبه فقال له : « رأيت هذا الكهف ؟ »

فقال الفونس : « نعم رأيته .. »

قال يعقوب : « فلنرجع الى المدينة نقضى بقية النهار ثم نعود الى هنا .. »

- ٤٤ -

الدرس والسرداب

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السر ، فلم يزدد الا حيرة واستغرابا .. فقال : « وأين تقضى هذا النهار ، فانه طويل عندي ؟ .. »

قال : « سأجعله قصيرا جدا » ومشى ، فمشى الفونس في اثره حتى دخلا المدينة ، والفونس ينظر الى البرج ويتأمله . وما زالا سائرين في الأسواق حتى انتهيا الى درب ضيق يؤدي الى باب صغير فقال يعقوب : « انتظرني يامولاي هنا ريثما أعود » ودخل ثم عاد وأشار اليه فدخل ، وعلم مما رآه من الأدوات المتزلية ان البيت مأهول لكنه لم ير فيه أحدا . فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت والفونس معه ، وقد مل الانتظار وكاد الحنق يخرججه عن جادة الصبر

أما يعقوب فانه أغلق باب الحجرة ، ثم أجلس الفونس على بساط وجثا الى جانبه وقال : « سأتلو عليك يامولاي ألفاظا غريبة لا بد لك من حفظها .. »
قال : « ولماذا .. ؟ »

فقال يعقوب : « ان ما ستتعلمه الآن من الألفاظ والاشارات انما هو مفتاح السر وطريق العمل .. »

فأصغى الفونس اليه وقال : « قل ما تريد ... »
فقال يعقوب : « قل : شالوم عليخيم » فقالها الفونس ولسانه
يتعثر بالعين والحاء ، فكررهما يعقوب عليه حتى حفظها ثم قال له :
« قل : أوهيل موعيد » فقالها وكررهما حتى تعلمها . ثم نهض
يعقوب وأمسك الفونس بيده وقال له : « قف يامولاي » فوقف
فتقدم يعقوب أمامه . بضع خطوات على نسق غير مألوف بين
الناس ، وقال له : « اخط ياسيدي مثل هذه الخطوة » ففعل
وكررهما حتى أتقنها . ثم علمه اشارات يجريها يديه أو أصابعه
وغير ذلك والفونس كالبيغاء يتعلم الألفاظ ويخطو الخطوات
ويقوم بالاشارات وهو لا يفهم لها معنى ..

قضى بقية اليوم في نحو ذلك .. فلما غربت الشمس خرجا
والفونس لا يزداد الا استغرابا ، وقد نسي كل مشاغله بفلورندا
وأوباس في أثناء ذلك . وما زالا حتى خرجا من باب المدينة
وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد . فصبرا على بردها حتى
بلغا الأكمة وصعدا اليها والتفتا الى السور ، ثم تفرسا فيما
حولهما فلم يجدا أجدا . لأن الناس يأوون في الليل الى منازلهم
داخل السور . فنزل يعقوب الى الكهف والفونس يتبعه حتى
وقفا ببابه ولم يريا بداخله سوى الظلمة الخالكة . فدخل يعقوب
ويده بيد الفونس فمشى به بضع خطوات والفونس يتلمس
ويخطو كأنه يمشى على الشوك وهما صامتان . ثم وقف يعقوب
وقال لأفونس : « اخرج جلبابك » فأخرجه وساعده يعقوب على

لبسه قلما لبسا الجلبابين أصبحا سوادا في سواد ، ومشيا خطوات أخرى ويعقوب يقود الفونس ثم وقف يعقوب بغتة .. فشعر الفونس بوقوفه المفاجيء فخشى ان يكون عليهما بأس من ذلك . ثم احس ان يعقوب قد انحنى نحو الأرض ، وما لبث ان سمع خربشة كأن يعقوب يبحث بأنامله في الأرض ، ثم ترك يعقوب يد الفونس فظل الفونس واقفا وقوف الصنم لا يدري الى أين يتجه لاشتداد الظلام

وكان يعقوب قد ترك يد الفونس لتتفرغ يده لرفع حجر ثقيل . فمضت بضع دقائق والفونس واقف لا يتحرك ، ثم سمع صوت اقتلاع الحجر ، وأحس بنسيم بارد خرج من الفتحة ، واذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض : « اتبعنى يامولاي في هذه القوهة على مهل » ونزل وتبعه الفونس ونزل سبع درجات ، فاتها الى سرداب يسمع الانسان واقفا ، فمشيا فيه ويعقوب يقود الفونس وهما يتلمسان طريقهما . وشعر الفونس كأنهما يسيران في دائرة ، ثم سارا في خط مستقيم مع انجدار خفيف والظلام يتكاثف .. وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال للفونس : « امكث هنا يامولاي ولا تغير مكانك ريثما أعود اليك » . وتركه ومشى ، لا يسمع لخطواته وقع ، فأحس الفونس بوحشة غريبة . ومضى على غياب يعقوب دقائق فلنفا الفونس ساعات حتى مل الانتظار ، وحدثته نفسه ان يخطو في أثره ولكنه تذكر وصيته اياه بالبقاء هناك ، فوقف ولكن الانسان يهوى استطلاع

المخبآت ولو ألقى بنفسه في الخطر ، على انه نسي الجهة التي كانا سائرين فيها ومد يده الى ما حوله فلم تلمس شيئا فتوهم انه في خلاء واسع . وفيما هو في هذا الارتباك رأى نورا خفيفا عن بعد ، ورأى ذلك النور يقترب منه حتى تبين حامله ، فاذا هو رجل بجلباب اسود مثل جلبابه فظنه يعقوب فناده باسمه فلم يسمع ردا ، فحسب ان سكوته تسترا ، ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحا آخر في مثل ملابسه وقد كشف عن وجهه فاذا هو يعقوب ، فعلم الفونس انه اقترب من المكان المقصود

ولم يكذ يفكر في الأمر حتى أسرع يعقوب اليه وأمسك بيد فنظر الفونس في وجهه على نور المصباح ، فرأى لحيته قد ازدادت اضطرابا وقذارة وازداد وجهه غرابة لما تولاه من الاضطراب ، فخشى الفونس ان يكون عليهما بأس من ذلك المكان . ولكنه أسلس قياده الى يعقوب ، فأمسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديه ، فنظر في الأرض فرأى فيها حفرا جمة يخشى الماشي السقوط فيها حتى على النور فكيف في الظلام . وأدرك السبب الذي حمل يعقوب على احضار المصباح ، فمشى مشية الحذر والتأني بضع دقائق ثم انطفأ المصباح ، وعاد الظلام كما كان فصاح الفونس في غير انتباه : « لا » فضغط يعقوب على يده أن « اسكت » وهمس في أذنه : « لقد وصلنا »

— ٤٥ —

الجلسة

وكان الفونس قد ضاقت انقاسه من القناع المنسدل على وجهه فرفعه وتنفس الصعداء ثم أرخاه ، واذا يعقوب قد وقفه وهمس في أذنه أن يفعل مثلما فعل بعد فتح الباب ، ومهما رأى فلا يخاف ثم قرع بابا قرعا متواليا سبع مرات على أسلوب خاص ، وليث برهة ثم طرقة ثانية ثلاث مرات بنسق آخر ، فانفتح الباب عن دهليز قصير فيه نور ضعيف ، والى كل من جانبي الباب رجل بمثل جلبابيهما ، وبيده سيف مسلول ، والسيوف كالقوس فوق عتبة الباب ، فأجفل الفونس وتفهقر فسمع يعقوب يقول : « شلوم عليخم » فقالها هو أيضا ، ودخلا والسيافان لا يتحركان كأنهما صنمان ، فمشى يعقوب في ذلك الدهليز المشية الخاصة التي علمها للفونس في ذلك النهار ، فمشى الفونس مثلها وهو يتعثر لاضطرابه وارتباكه ، حتى وصل الى باب مغلق فقرعه بنسق خاص خمس قرعات ، فانفتح الباب وانطفأ النور معا ، فأجفل الفونس ولكنه تذكر وصية يعقوب فثبت جناحه ، وسمع صوتا يخاطبه بلغة لم يفهمها ، وسمع « يعقوب » يقول له : « أوهيل موعيد » فقالها هو أيضا ، ومشيا في تلك الظلمة والفونس يحسب نفسه صاعدا على سلم ، ثم انفتح لهما باب

آخر وعند فتحه أحس الفونس بهواء دافئ خارج منه تخالطه رائحة الأنفاس ، فشعر بالدفء ونسى ما كان يشعر به من البرد في السرداب ، ودخلا من الباب فأشرقا منه على قاعة كبيرة في وسطها شبه مائدة عليها سراج مضئ وبجانبه درج كبير ، وحول الجدران مقاعد عليها أشباح سوداء بمثل جلبابه ووجوههم مغطاة بمثل تقابه ، وأمام كل منهم سيف . مسلول وفرنده يلعب بنور السراج الضعيف . فاضطرب لذلك المنظر الهائل ، وظن نفسه في حال مزعج اذ لم يخطر له أن يرى مثل ذلك المنظر في حياته ولا الدخول في مثل هذه المخاطر

على انه التفت الى جانبه فاذا يعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمه اياها . فمشى مثله حول المائدة والسراج مرتين ، وقبل الدرج وهو عبارة عن لفافة غليظة من جلد . ثم مشيا الى كرسيين في صدر القاعة خاليين ، فجلسا عليهما وأمامهما سيفان مسلولان فالتفت الفونس الى ماحوله فلم ير الا أشباحا سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة ، وندم لمجيئه على تلك الصورة مخافة أن يكون في خطر ، ثم تذكر ثقته يعقوب ، فاطمأن بآله ولبث ساكتا والجميع سكوت برهة . ثم نهض أحد الحضور عن كرسيه وتقدم الى المائدة وتناول الدرج وفتحه أمام المصباح ، فرأى الفونس عليه كتابة لا يفهمها . ولما أخذ الرجل في القراءة وقف الجميع والفونس في جملتهم حتى اذا أتم قراءته قبل الدرج ورجع الى مكانه ، وجلس ، فجلس الباقيون لا ينطق واحد منهم بكلمة

ثم تكلم الرجل بذلك اللسان كلاما طويلا أجابه عليه بعض الحضور، ثم تكلم يعقوب باللسان القوطى قائلا : «يسمح حضرة الرئيس فيعقد جلسة خاصة يحضرها هو ومن شاء للمداولة في أمر هام ... » .

فوقف الرجل الأول ويده سيف صغير وأشار به اشارة خاصة فوقف الجميع ، ثم تقدم منهم ثلاثة وقفوا بازائه وتقدم يعقوب والفونس حتى وقفا معهم ، ثم اتجه الرئيس الى باب وراءه ففتحه ودخل وتبعه الباكون الى دهليز مظلم وصلوا منه الى باب ففتحه بيده ودخل الى حجرة مظلمة ، ووقف ببابها وتكلم فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة على طبق من البرونز، فتناولها منه ورجع الرجل وأغلق الباب وراءه . قدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع في أحد جوانب المكان

- ٤٦ -

كشف السر

ونظر الفونس في ذلك المكان فاذا هو حجرة صغيرة جدرانها بيضاء ، وسقفها اسود ، وفي أرضها صندوق كالتابوت الكبير فوقه درج صغير ، وحول التابوت بساط جلسوا عليه ، والتابوت على وسطهم . فتأثر الفونس من ذلك المنظر الرهيب وخفق قلبه لعل ما شاهده من الغرائب في تلك الليلة ، وقد نفذ صبره

لمشاهدة أشباح سوداء لا يرى لها وجوها ولا يدرى من يكونونه
فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية قائلاً : « هل يظن الرئيس ..
أن الطعام قد نضج .. ؟ »

قال الرئيس : « انت أدري منا بنضجه لأنك موقد ناره »
فقال يعقوب : « أرجو أن يكون قد نضج ولكنه يحتاج الى
أدم كثير لأن الطعام بلا أدم لا يؤكل .. »
فقال الرئيس : « الأدم كثير ، ومنه في هذا الصندوق ما يطبخ
به طعام العالم بأسره ، فضلاً عن أمثاله مما يحمل الى المطبخ
عند الحاجة .. »

فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز ولم يصبر عن الكلام
فقال : « أما وقد خلونا في هذا المكان ونحن بضعة رجال فأرجو
أن يكون الكلام صريحاً ... »

فتنهذ الرئيس ولم يجب ، أما يعقوب فانه جثا منتصباً على
ركبتيه والتفت الى الفونس وقال : « الصريح ان المادة التي
تنقصك لاتمام مشروعك انما هي في عشرات من أمثال هذا
الصندوق ، جمعت فيها منذ أعوام ولكنها لا تبذل الا عند
الحاجة .. » قال ذلك وأوماً الى الرئيس ، فأخرج من جيبه مفتاحاً
فتنح به التابوت ، وحين رفع الغطاء أبرق ما تحته أصفر زاهياً ..
فنظر اليه الفونس فاذا هو نقود ذهبية خالصة ، ثم أغلقه الرئيس
وأعاد المفتاح الى جيبه

فاندھش الفونس لمنظر ذلك الذهب وأدرك انه بين جماعة من

ذوى المقدرة . وأحب أن يستطلع حقيقتهم فقال : « أراكم
تبالغون فى التستر ونحن انما اجتمعنا لتداول فى هذا الأمر المهم
فمن أنتم .. ؟ »

فالتفت اليه الرئيس وقال : « لا تطمع فى الكشف عن شيء
غير الذى تراه ، واعلم انك عرفت شيئاً لم يعرفه أحد من الذين
رأيتم فى الحجرة الأخرى ، وهم يجتمعون معنا منذ أعوام
وفيه من يبذل ماله وروحه فى سبيل ذلك الغرض .. »
فتكلم عند ذلك يعقوب وقال : « يكفى مولاي ما قد شاهدته ،
وليعلم ان فى اسبانيا ألوفاً من أمثال هؤلاء المظلومين وعندهم
الأموال المخزنة فى الصناديق ، وهم على استعداد لأن يبذلوا
أنفسهم فى خدمتك فضلاً عن أموالهم .. »

فلما سمع الفونس قوله : « المظلومين » أدرك انه بين يدي
جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة ، وتذكر ما كان يسمعه من
كلامهم الغامض فخطر له ان يكونوا يهودا ، ولكنه يعلم ان
اليهود قد انقرضوا من تلك المملكة ، اما بالنفى أو بالقتل أو
باعتناق النصرانية (١) فقال ليعقوب : « قد فهمت السر فالأولى
أن تفصح وانت أعلم الناس بعزيمتى وقصدى وقصد والدى من
قبلى .. »

فعند ذلك التفت يعقوب الى الرئيس وقال : « ينبغى لى أن
أكشف كلا منكما بسر الآخر . اعلم يا حضرة الرئيس ان الرجل

الذى جئتم به الليلة هو نصيرنا الوحيد في هذه الديار ، واذا قلت لكم من هو هان عليكم مكاشفته بأمرنا .. انه الفونس ابن المرحوم غيطشة ملك اسبانيا وهذا يكفي » ولم يتم كلامه حتى ابتدره الرئيس قائلا : « لعله على عهد والده تماما .. ؟ »

قال : « نعم هو نصير المظلومين ، وقد عول على السعى في انقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذى يسمى نفسه ملكا . وأما يعوزه المال وهو عندنا . فاسمح لى بعد هذا التصريح أن أنبئ بحقيقة الأمر » . قال ذلك وحول خطابه الى الفونس قائلا : « اعلم أيها الملك - وأنا أدعوك ملكا لأننا لا نعرف ملكا على اسبانيا سواك - اعلم انك في جمعية اسرائيلية وكل الذين رأيتهم في هذه الجلسة يهود لا يزالون على دين آبائهم وأجدادهم ، ينوبون عن ألوف من أهل هذا الدين منتشرين في أنحاء المملكة الاسبانية ، يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداس في الكنائس ، ويتناولون القربان ويقومون بسائر الفروض المسيحية رياء منهم . وهم في الحقيقة يهود يصلون في خلواتهم سرا ، وكان منهم في الكنيسة في صباح هذا اليوم مئات ، وقد رأيناهم يسجدون أمام الايقونات ويتلون الصلوات تظاهرا محضا . وربما سمعناهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله . وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ أعواما ، وهم يجمعون المال ويخزنونه لاغتنام مثل هذه الفرصة لرفع هذا النير عن كواهلهم ، حتى اذا كادوا يبلغون بغيتهم على

يد والدك المرحوم استدله أهل المطامع بهذا الطاغية ، وهو لا يستحق هذا المنصب بل انت هو صاحبه الشرعى فنرجو أن تكون النجاة على يدك .. »

فلما سمع الفونس قوله انجلت له الأسرار التى ما برح يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه أوباس بهذا الشأن . فاكتفى بما رآه وسمعه ، وأجّل استطلاع مابقى من الغوامض الى فرصة أخرى .. ولبت صامتا يراجع ما مرّ به من الألغاز ، فرأى انه ينقصه أن يعرف وجوه أولئك الناس ولا سيما بعد أن عرفوه باسمه ، وكان يعقوب قد أدرك غرضه فقال له : « ولا يطمع مولاي الآن فى الاطلاع على ما وراء ذلك » ...

فقطع الفونس كلامه قائلاً : « لا أطلب الاطلاع على شيء سوى معرفة هؤلاء الأفاضل الذين أنا فى حضرتهم ولا سيما بعد أن عرفونى »

فقال يعقوب : « كلا يامولاي .. ان ذلك ممنوع عندهم حتى فيما بينهم ، وقد لجأوا الى هذا التستر خوفا من أن يبوح أحد بامرهم حتى من اخوانهم ، فأنت الآن بعد أن اطلعت على هذه الأسرار المهمة تمسّى - اذا خرجت من هذا المكان - كأنك لم تدخله . لأنك لم تر وجوه الأشخاص ، فلا يمكنك أن تتهم أحدا من الخناس ، وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند أو الكهنة أو العمال أو المزارعين ، وكلهم فى عداد المسيحيين ، ويكفيك أن تعرف واحدا منهم وهو أنا »

فأعجب الفونس بهذا اللون من الاحتياط ، وعلم أن يعقوب يهودى ، وتذكر ما كان يطلبه من التساهل فى أداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها ، وإن عمه أوباس كان يساعده على ذلك ، وخطرت له خواطر كثيرة تدور كلها حول علاقة يعقوب بوالده ، واعتزم أن يستطلع سر هذا الأمر فيما بعد .. ثم قطع تيار أفكاره دبب توالى أصواته فوق رؤوسهم فأنذهل الفونس ، والتفت نحو السقف فابتدره يعقوب قائلا : « لا تستغرب يا مولاي ما تسمعه لأن فوقنا شارع من شوارع المدينة ، والناس يمرون عليه ليل نهار .. وليس فى أهل استجة من يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع إلا أعضاء هذه الجمعية » فازداد الفونس استغرابا لما شاهده تلك الليلة من طرق التحفظ ومظاهر الدهاء ، وقال فى نفسه : « ان قوما هذا مبلغ دهائهم وتعلقهم بوضبرهم لجديرون أن ينالوا بغيتهم »

— ٤٧ —

طارق جديد

كان الفونس يفكر فى ذلك حين سمع قرعا بعيدا يشبه أن يكون على الباب الذى ينتهى اليه السرداب ، ولكنه وجد أن عدد الطرقات وطريقة ضربها يختلفان عما فعله يعقوب . ثم ما لبث أن رأى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد أنصتوا

وأصغوا لما عساه أن يعقب ذلك الطرق ، فخشى ان يكون وراء انصاتهم ما يدعو الى القلق ، ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطلع ذلك في عيونهم وجباههم ، ثم سمع قرعا ثانيا على الباب الآخر بطريقة أخرى ، ولم يفرغ القارع من القرع حتى تحول انصات رفاقه الى الحركة وسمع الرئيس يقول : « لقد جاءنا رسول بخبر جديد ، عساه ان يكون قادما من اخواننا في الشام أو مصر أو من افريقيا .. »

فاستغرب الفونس أن يتنبأ الرئيس بالرجل بمجرد سماعه وهو يقرع الباب ، وأدرك من قوله ان لهذه الجمعية علاقات واسعة في الشام ومصر وغيرها . فاندفع يقول : « كيف عرفت الزجل من مجرد سماع القرع عن بعد ، وهل لهذه الجمعية من أعضاء في تلك البلاد ؟ »

قال : « عرفته من فواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها أعضاء هذه الجمعية ، وأما سؤالك عن اتساع الجمعية ، فان لها أعضاء في أنحاء بعيدة أرسلتهم للبحث عن طريقة تتخلص بها من هذا الرق » وسكت هنيهة ثم قال : « ومن هؤلاء الأعضاء اناس قد تصدروا في مجالس الدول وتقلدوا مناصبها ، ومنهم من يعمل عمل الخدم ويقاسى مرارة الذل والشقاء وهو ليس من فئة الخدم ، بل قد يكون من أهم أعضاء الجمعية ومن أكثرهم بذلا في سبيلها ، وانما يتزى بزى الخدم تحقيقا لغرض يعود على الطائفة بالخير .. »

وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضيء بصيرته ، فأدرك في الحال ان خادمه يعقوب من بعض كبار هذه الطائفة ، ومن أهم أعضاء هذه الجمعية ، ولكنه ظل يتوق الى استطلاع علاقته بأبيه وعمه لأنهما كانا يعرفان سره على ما ظهر له من كلام أوباس .. فأجل ذلك الى فرصة أخرى ، ولبت ينشطر دخول الرسول القادم . ولم تمض برهة ، وهم سكوت يسمعون صدى الحركات في القاعة الكبرى ، حتى سمعوا قارعا يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرعا خاصا ، فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الأسود ، وعند دخوله توجه نحو الرئيس وكلمه بالعبرية كلاما لم يفهمه الفونس فأجابه الرئيس .. وتخطبوا برهة بتلك اللغة والفونس لا يفهم . ولكنه استغرب أن يوجه القادم كلامه للرئيس ساعة وصوله ، وهو لا يرى فرقا بين مظهر الرئيس وبين سائر الجالسين لأنهم بلباس واحدة ولون واحد ، فتوسم في ذلك سرا سأل يعقوبا عنه في أثناء الحديث بين الرئيس والرسول بالعبرية . فقال يعقوب : « لو أمعنت النظر في ثوب الرئيس لرأيت على كتفه علامة تميزه عن سائر الأعضاء ولا تظهر هذه العلامة الا عند التأمل . وفي هذه الجمعية علامة لكل من أصحاب المناصب فيها كالكتاب والخازن وغيرهما ، غير ان هذه العلامات ضعيفة لا يراها غير المتأمل » ..

فتفرس الفونس في كتف الرئيس فرأى عليها عقدة سوداء

بجانب العنق ، ونظر الى أكتاف الرفاق فرأى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل آخر ، فأراد أن يستفهم منه عن دلالة علامته : فسمع الرئيس يخاطب القادم بالقوطية قائلاً : « لقد سرنى قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك ، وعندنا الآن من يهمه سماعها ويهمنا اطلاعه عليها ، ونحن في حجرة الخلود وما فينا الا عمدة الجمعية .. فمن أين أنت قادم الآن ؟.. » وكان الرجل قد جلس في جملة الجالسين حول التابوت فقال : « انى قادم من سبتة وخبرى طويل لا يسمح الوقت بتفصيله ، ولكنى أروى لكم منه ما يهمكم ويهمنا ، ولو كشفت لكم وجهى لرأيتم البشر ظاهراً عليه ، اذ يظهر لى ان زمان أسرنا وذلنا قد انقضى أو قارب الانقضاء .. »

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام فى حركات الجالسين وأصغوا وقد تناولوا بأعناقهم الى المتكلم ، وقال الرئيس : « بشرك الله بالخير . عسى أن يكون قد انقضى أسرنا كإنقضاء أسر أبجدادنا فى بابل منذ بضعة عشر قرناً »

— ٤٨ —

حديث ذو شجون

فقال الرسول وقد وجه خطابه الى الرئيس : « لا يخفى على حضرة الرئيس انى مقيم منذ أعوام فى سبتة على شاطئ افريقيا

(في مراكش) وهى وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الآن مع انه يجب ان تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لأنها جزء من افريقيا ، ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن افريقيا بما قام به العرب من الفتوح .. ففتحوا كل سواحل افريقيا تقريبا الا سبتة وما يليها فانهم لم يفتحوها ، فالتجأ صاحبها الى اسبانيا وصارت سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون .. »

فقطع الرئيس كلامه قائلا : « يظهر ان أبناء اسماعيل قد افلحوا في دينهم الجديد .. »

فأجاب الرجل : « نعم يامولاى .. » ولم يفهم الفونس معنى هذا السؤال ولا من هم بنو اسماعيل ، ولكنه لم يستحسن أن يقطع الحديث ليستفهم فسكت . وأما الرجل فانه أتم كلامه قائلا : « ان أبناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم بأسره ومدوا سلطانهم على العراق والشام وافريقيا وفارس وخراسان الى أقصى المعمورة » فازداد الفونس استغرابا لقوله (أبناء عمنا) فالتفت نحو يعقوب فى دهشة . فأدرك يعقوب ما يريد قبل أن يتكلم ، فقال له : « ان العرب الذين قاموا بالدين الجديد هم أبناء اسماعيل بن ابراهيم ، واليهود أبناء أخيه اسحق فهم بهذا الاعتبار أبناء عمنا »

فأصاخ الفونس السمع لحديث المتكلم لاتمام الخبر فاذا هو يقول للرئيس : « وقد تنقلت فى أسفارى للتجارة وخدمة الجمعية الى الشام ومصر واختلطت بالناس ، ورأيت كثيرين من اخواننا اليهود الذين استطاعوا التخلص من هذا الذل بالهجرة من هذه البلاد ،

وهم الآن في افريقيا ومصر والشام وقيمون في سلام وسكينة لا يتعرض لهم أحد في دينهم .. يصلون كيف شاءوا ومتى شاءوا ويقومون بأعمالهم وتجاراتهم في أمان وسهولة ، وليس ذلك شأن اليهود الغرباء فقط ، بل هو شأن كل السكان من كل الطوائف ، لأن اليهود كانوا مضطهدين أيضا في تلك البلاد تحت نير الحكم الروماني (١) يذوقون العذاب ألوانا ، كما كنا ندّوقه منذ بضع قرون قبل أن يجبرونا على النصرانية أو الهجرة أو القتل ، واضطربنا إلى الفرار أو التظاهر بالنصرانية كما تعلمون (٢) . وأما اخواننا في مملكة الروم فكانوا أحسن حالا منا ومع ذلك فانهم لم يصبروا على ذلك الضيم ، وكثيرا ما كانوا يفتكون بالنصارى ويقاومون الحكومة ، فلما جاء أبناء اسماعيل لفتح بلادهم كانوا من أعوانهم على ذلك . وقد أحسنوا صنعا لأنهم تحرروا من رق الروم واستبدادهم ، وأمنوا على أرواحهم وأموالهم وخفت عنهم الضرائب وهم في نعيم »

فقال الرئيس : « وكيف كان ذلك ؟.. ألم يخرجوا من سلطان إلى سلطان ، ومن ضريبة إلى ضريبة ؟.. ألم يحكم العرب فيهم سيوفهم أو نفوذهم ؟.. ألم يفرضوا عليهم الضرائب ؟.. » قال : « بلى يامولاي .. ان العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف أو بالصلح وصارت تحت سلطانهم ، ولكنهم في الحقيقة قلما يمارسون شيئا من أمورهما حتى انهم لا يقيمون في المدن ولا

يختلطون بالرعايا الا نادرا وفي أوقات معينة ولأغراض وقتية..»^(١) فقطع الفونس كلامه قائلا : « وكيف يكون ذلك ؟ .. وأين يقيمون ؟ .. وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها ؟ .. » قال : « لا ألومك على استغرابك ذلك لأنه غير مألوف فيما تعرفونه في هذه البلاد حيث يدس الحكام أنوفهم في كل حركة من حركات الناس بل هم يعدون الرعايا عبيدهم . وأما هؤلاء العرب فانهم بعد أن فتحوا تلك البلاد وفرضوا عليها الجزية والخراج نزلوا في ضواحيها ، وابتنوا لأنفسهم مدنا لا يقيم فيها سواهم ، كالقيروان في افريقيا ، والفسطاط في مصر ، والبصرة والكوفة في العراق ، وتركوا أهل البلاد الأصليين على ما كانوا عليه في أيام الروم أو الفرس ، كل منهم على دينه واعتقاده يقوم بعمله ولا يهमे الا ما يستحق عليه من الخراج أو الجزية كل عام . وهي ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من أمثالنا . وكان الناس عند أول الفتح هنا عيشا منهم الآن ، وذلك لظلم بعض عمال بنى أمية .. ومنهم عامل في العراق اسمه الحجاج ، شديد الوطأة على أهل البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجته اليه في الحروب ، ولكن الملك الأكبر الذي يسمونه الخليفة يقيم في دمشق الشام ، وكثيرا ما يبعث الى عماله أني يعودوا الى الرفق . ومع كل ذلك فان الرعايا من اليهود أو النصارى أحسن حالا تحت سلطان العرب مما تحت سواه ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامي - الجزء الاول

وخاصة اذا عاد العرب الى ما كان عليه خلفاؤهم الأولون من العدل والرفق والمساواة .. ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور في الشرق «
فقال الرئيس : « يا حبذا لو أنهم يأتون إلينا فيستولون على هذه البلاد لأنهم اذا كانوا أخف وطأة من بطارقة الروم فهم اذن أفضل لنا من حكومة القوط ... »

فاعترضه الرجل الرحالة قائلا : « لا يحق لنا أن نشكو من حكم القوط على الاجمال ، فان بعضهم كان كثير الرفق بنا وبخاصة غيطشة الملك السابق فانه كان عازما على تحرير رقابنا واطلاق حرية الدين لنا (١) ولكن المنية عاجلته أو هم عجلوها له ، فخلفه الطاغية رودريك وهو من أظلمهم جميعا قبّحه الله »

- ٤٩ -

يوليان

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشة بينهم وأعجبه ما قاله الرحالة من اطراء أبيه فقال : « لقد نطقت بالصواب ، وعلى كل حال فاننا وددنا لو أن هؤلاء العرب يأتون الى اسبانيا . ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى في فتحها ، اذ ما من طائفة من أهلها لا تشكو من الحكومة .. »

(١) رومي - الجزء الثاني

فقال الرحالة : « ان هذا الأمر الذى تتمنونه وأنتم جلوس هنا قد سعى فيه اخوانكم هناك وأنا فى جملتهم ، وكثيرا ما حرصنا هؤلاء العرب على ذلك وحببنا اليهم هذه البلاد ، وبيتنا لهم سهولة فتحها وهم يهابون ذلك .. ولكن يظهر أنهم أوشكوا على أن يحملوا عليها »

فابتدره الرئيس بلهفة قائلا : « هل تعنى ما تقول حقيقة ؟ »
قال : « نعم يامولاي ، وهو الخبر الذى جئت من أجله وكنت عازما على مباغتكم به فأخرجنا الحديث عنه .. قلت لكم ان سبتة (فى موريتانيا) فى جملة ولايات الرومان ، فلما فتح العرب افريقيا أصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم ، فانحاز صاحبها الى اسبانيا ليكون فى كنف دولة نصرانية وقاعدتها فرضة سبتة على بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) . ولما خرجت أنا من اسبانيا الى موريتانيا كان حاكمها رجل اسمه «يوليان» فتظاهرت بالنصرانية وعمدت الى تجارتي أشغل بها وأنا أرتحل فى البلاد وأعود الى سبتة ، وفى نفسى ما تعلمون من الغيظ لطائفتى لما تقاسيه من الفتك والعسف تحت نير القوط ، فأتيح لى أن أنتقم لها من يوليان هذا انتقاما. ليس هذا محل ذكره ، وكنت مع ذلك من المقربين اليه يثق بى ويسر التى بأموره ، وأنا أظهر له الود وأغتتم الفرص لتحقيق بغيتى، وما هى الا أن أحبب الى العرب فتح هذه البلاد ، ولكنى أعلم أن السبيل اليها لا يكون الا اذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق وهو أقرب سبل العرب الى هذه البلاد

« وكان عامل العرب على افريقيا فى الأعوام الأخيرة رجلا منهم اسمه موسى بن نصير وهو شجاع ذو همة .. فبعث رجاله حتى فتحوا طنجة ، وأقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر ، ويوليان ممتنع فيها صابر على ولاء القوط مع علمه أن صبره لا يجديه نفعا ، ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لأسباب لا تجهلونها .. »

فلما ذكر اسم يوليان خفق قلب ألفونس لعلمه أنه والد حبيته فلورندا ، وأصاخ بسمعه لعله يسمع شيئا يتعلق بها . فلما وصل الرجل الى قوله : « ان يوليان لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لأسباب لا تجهلونها » أدرك أن أهم تلك الأسباب هو وجود فلورندا فى بلاط رودريك ، كأنها رهينة عنده يضمن بها طاعة والدها له . وتذكر حاله مع فلورندا وأنها خرجت من حوزة رودريك .. فهب بدنه كأنه رش بالنار ، ولكنه صبر ليسمع بقية الحديث ، وكان الرئيس قد أجاب الرجل قائلا : « لا نجهل تلك الأسباب .. ثم ماذا ؟ .. »

فقال الرجل : « وكنت أنا فى أثناء ذلك الحصار فى قصر يوليان أجالسه كثيرا ، وهو يركن الى ويقربنى منه لثرائى وسعة تجارتى ، لعله يحتاج الى مال أو مئونة فى أثناء الحصار ، وأنا أشد منه رغبة فى ذلك التقرب كما تعلمون . فأصبحت منذ أيام وأنا فى منزلى واذا برسول يوليان يدعونى اليه عاجلا ، فمضيت حتى اذا دخلت قصره وأشرفت على باب غرفته ، رأيت شابا خارجا

منها يبدو من مظهره انه قادم من سفر بعيد .. وبدا من مظهر ملابسه انه من أهل طليطلة وأحسب أنه من خدم الملك .. فمرَّ الرجل ولم يكلمنى فسرت حتى دخلت الغرفة ، وكنت أدخلها دائماً بلا استئذان . فرأيت يوليان جالسا على كرسى بجانب نافذة تطل على البحر الكبير ، ويده شيء قد قبض عليه وهو غارق في الهواجس . فلما سمع خطواتي نهض بغتة ورمى التى بما كان في يده ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما وهو يقول : « اقرأ هذا يا فلان وانظر مقدار شقائي وتعاستى . ما كفتنى المصيبة التى أصابتنى من أول عهد شبابى حتى بليت بأقبح منها ، من رجل أنت تعلم أنى أقاسى عذاب الموت فى سبيل المحافظة على ولائه » فالتقطت ما رماه فاذا هو قطعة من قماش ، أظنها مقطوعة من قميص أو رداء ، وعليها كتابة حمراء كأنها كتبت بالدم . ولما قرأتها اقشعر بدننى استغرابا ، ولكن قلبى كاد يطفح سرورا لعلمى ان فى ذلك الكتاب حلا للمشكلة التى أصابتنا ... »

وكان ألفونس فى أثناء ذلك فى منتهى الاضطراب ، وكان سائر السامعين فى غاية الاصغاء لما يتوقعونه من الخير الجديد .. فقال الرجل : « فقرأت الكتاب فاذا فيه ما معناه :

« والدى العزيز

« سلّمت ابنتك الى رجل يسمى نفسه ملكا وهو وحش كاسر لايرعى ذماما ولا حرمة ولا عرضا ، ولولا العناية الالهية لذهبت فريسة بغيه وفسقه . أكتب اليك هذا على قطعة من ثوبى وأنا

هائمة على وجهي ، لا أدري أين أختبئ من بغى هذا الظالم الخائن
ولا أدري متى ألتقي بك ، فما جزاء من أراد بابنتك سوءا .
وحامل هذا الكتاب - اذا استطاع الوصول به اليك - أنباك
شفويا بما قد يصعب عليك فهمه ..

« كتبتة فلورندا »

- ٥٠ -

الاعزاء

فلا تسل عن ألفونس واضطرابه وخفقان قلبه ، ولولا ذلك
اللاثام لافتضح أمره لاستغرابه قولها : « انها هائمة على وجهها »
وقد كان يظنها في مأمن عند عمته فعظم عليه الأمر ، ولكنه كتم
عواطفه وصبر ليسمع بقية الحديث ، وكان يعقوب يشعر معه
بالبغته لأنه كان مطلعا على علاقته بفلورندا

أما الرجل فانه أتم حديثه قائلا : « فلما فرغت من قراءة الكتاب
أظهرت الغيظ وقلت له : الى متى البقاء على ولاء رجل لا يرعى
ذماما ولا يحفظ حرمة ولا يستيقى عرضا ؟ .. أأنت تعرض نفسك
للخطر وتصبر صبر الأبطال في الدفاع عن بسلطانه ، وهو يفعل
مثل هذا الفعل مع ابنتك ؟ » . وكان يوليان قد استولت عليه
السويداء منذ أعوام على أثر مصيبة اثابته وثقل عليه حملها
فجعلت أستحشه وأثير عواطفه حتى قال : « لا بد لي أن أقتحم من

هذا الخائن وأسلم هذه البلاد لهؤلاء العرب فانهم أحفظ منه للجميل . ولا يكفى ذلك بل سأعرضهم على فتح اسبانيا حتى يتمكنوا من قتل رودريك ، فأشفى غليلي.. » فبرنى عزمه على ذلك وهو الغرض الذى طالما تمنيته وسعيت اليه ، فجعلت أقبوى من عزيمة وأهون عليه الأمر حتى قلت : « واذا أحببت فإني أسعى عنك فى مخابرة العرب وأجعل تسليتك على سبيل الخدمة لك ولهم ، وليس عن ضعف أو جبن » فرضى منى بذلك وخرجت ، فخبرت موسى بن نصير أمير العرب فبر ورحب بيوليان . فعرض عليه يوليان عبور بحر الزقاق الى العدو الأخرى وفتح الأندلس على أن يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط (١) فرضى موسى . وعند سماعى ذلك لم أستطع صبرا فقدمت اليكم بهذا الخبر ، فما قولكم ؟ .. »

فلما بلغ الرجل الى هذا القول استولت الدهشة على الجميع وبخاصة ألفونس فانه وقع بين عاملين : عامل الغرام بفلورندا وقد انشغل خاطره بشأنها بعد أن علم أنها ليست فى بيت عمه ، وعامل اليأس من المثلث اذا فتح العرب هذه البلاد لأنها تخرج من سلطان القوط جميعا . وأدرك يعقوب ما يخطر ببال ألفونس وخشى أن يكون لذلك تأثير على رأيه فى مقاومة رودريك . ثم تذكر مسألة فلورندا وما بذرت فى نفس ألفونس من الحقد على رودريك ،

(١) وقى التاريخ أن يوليان وصله خبر ابنته قبل ذلك بسنة وبعض السنة . . . نسلم للعرب وخابر موسى بن نصير بشأن فتح الأندلس ، وهو خابر الخليفة الوليد حتى قر الرأى على الفتح فى تلك السنة « ٩٢ هـ » .

فعلم انه لا يمكن أن يصفو له قلبه ، ولا سيما بعد أن سمع شكاية فلورندا لأبيها . على أنه أحب أن يثبت الفونس على عزمه ، فقال وقد وجه خطابه الى الرئيس : « ان الخبر الذي جاءنا به أخونا هذا من الأهمية بمكان عظيم ، ولانظن العرب الا فاتحين هذه البلاد وبخاصة لأن يوليان معهم يدلهم على الطريق، وطبعاً سنكون نحن عوناً لهم أيضاً لأننا نخدم مصلحتنا.. ولا يغير ذلك شيئاً من غرضنا الأول في جعل الحكم بيد مولانا الملك (وأشار الى ألفونس) لأننا قد سمعنا الآن أن العرب يستبقون البلاد على ما هي عليه ، ولا نظنهم اذا علموا نصرة ملكنا هذا لهم الا أن يسلموا اليه مقاليد الحكم ويكتفوا بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية »

وكان الفونس يسمع ذلك وقد همته الخبران ، ولكن خبر فلورندا غلب على خاطره وأصبح شديد الرغبة في الخروج من ذلك المكان للبحث عنها ، على انه أراد قبل الانصراف أن يثق من الأمر الذي جاء من أجله فقال : « ظن صاحبى يعقوب أن غرضى من النعمة على رودريك ، هو مجرد رغبتى فى السلطة .. والحقيقة أن الهدف الأول هو انقاذ هذه البلاد من استبداده وإطلاق سراح اليهود الذين أجبروا على النصرانية ظلماً . ثم انى أريد أن يعلم هذا الطاغية أن على الباغى تدور الدوائر ، فاذا حدث ذلك لا يهمنى بعده من يتولى الملك »

فقال الرجل : « أؤكد لمولاي الملك أن المسلمين اذا فتحوا هذه البلاد.فعلوا كما ذكرت ، ولا أظنهم يستغنون عن مولاي الملك فى

حكومة هذه البلاد بعد فتحها ، فقد واثوا على طنجة رجلا بربريا اسمه طارق^(١) مع أن البرابرة لم يدعنوا لسلطانهم اذعانا تاما حتى الآن — يفعل العرب ذلك لقلّة عددهم بالنسبة الى سبعة البلاد التي فتحوها ، فيضطرون الى الاستعانة بغير العرب في ادارة شئون الحكم — فهل يثعينهم على تصرف شئون اسبانيا خير من ملكها .. وعلى كل حال فاننا لا نألو جهدا في اقناعهم بذلك .. » فلما سمع الفونس قوله ، اطمأن خاطره من ناحية المثلث وتركزت هواجسه على فلورندا ، وود أن تنتهى الجلسة بسرعة . فالتفت الى الرئيس وقال : « هل من كلام يلقي علينا ، أم تأذنون في انصرافنا ؟ » ..

فوقف الرئيس ووقف الجميع ، فقال الرئيس : « اذا شئت الانصراف فالأمر أمرك .. ولكننا نأمل أن تؤمن بصدق اخلاصنا في خدمتك ، وان اليهود في كل هذه البلاد يضحون بأموالهم وبأنفسهم في مصلحتك ، وعهد الله في ذلك بيننا وبينك » .. فشكره ألفونس وقال : « قد ذكرت لكم غرضي من التعاون معكم ، والله ولى التوفيق .. »

ثم سار يعقوب نحو الباب ، وأشار الى ألفونس فتبعه .. وخرجا من تلك الحجرة الى الغرفة الكبرى ، وفيها المقاعد حول المنضدة كما تقدم . فمشيا مشية خاصة وخرجا من باب الى باب حتى انتهيا الى السرداب ومنه الى الكهف . فلما أطلا على الحلاء

(١) ابن خلكان - الجزء الثانى

رأيا الفجر قد لاح ، فعلم ألفونس انهم قضوا طول الليل هناك وأحس يبرد الخلاء . ثم نزعا الثوبين الأسودين ، وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة . وكان بابها قد انفتح فدخلها وسارا يقطعانها نحو الجسر ، وألفونس لا يتكلم لما تزاحم في مخيلته من الصور التي شاهدها في ذلك الليل . وأصبح لا يدري كيف يعامل يعقوب بعد أن عرف انه من أعيان اليهود ، لكنه ظل على شوقه في كشف بقية سره .. على انه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من السرداب اذ استقبله النسيم البارد على أثر سهره الطويل ، فأصبح لا يستطيع البحث في شيء .: ولكن صورة فلورندا لم تبرح مخيلته . أما ما سمعه من أقوالها الى والدها فلم تقب عن سمعه ..

وصلا الى القلعة ، والفونس لا يزال ساكنا ويعقوب يراقب حركاته وسكناته ، وكان قد أدرك شيئا مما يجول في خاطره ، ولكنه لم يشأ أن يحدثه في شيء غير الاستفهام عما يريد من طعام أو نحوه . وصعدا الى غرفة الفونس فأعد له يعقوب كل ما يحتاج اليه وهيا له الفراش فنام ، ونام يعقوب أيضا

فلنتركهما نائمين بجوار استجة ولنذهب بالقاريء الى افريقيا (وهي بلاد البربر وهي اليوم شمالي أفريقيا وفيها : برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) ونبحث عن أحوال العرب هناك حتى فتح الأندلس

- ٥١ -

بعد فتوح الاسلام

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ ، فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك . وكان عبد الملك قد تولّى الخلافة عشرين سنة قضى معظمها في محاربة منافسيه عليها ، وكثيرا ما خشي خروجها من يديه .. ولكنه كان ذا سياسة ودهاء ، وقد نصره الججاج بن يوسف أدهى عمال المسلمين وأشدّهم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المنافسين .. فانصرف همه الى توسيع المملكة الاسلامية ، فبعث قتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر ، فأوغل في بلاد الترك حتى أدرك حدود الصين ، وبعث أخاه مسلمة بن عبد الملك شمالا لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها ، وأنفذ موسى بن نصير الى افريقيا فولاه اياها وأمره أن يتم فتحها وكانت افريقيا قد فتحت في صدر الاسلام وألحقت بمصر وأهمل شأنها بعدها ومشقة المسير اليها . وأهل افريقيا الأصليون قبائل البربر، لهم السنة خاصة وعادات خاصة ، وهم قبائل عديدة جدا وبلادهم كثيرة الماشية والمرعى ، وكانوا - حين اشتغل الأمويون عن افريقيا بأنفسهم أيام عبد الملك - قد اغتتموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا

عصا الطاعة .. فبعث اليهم عبد الملك حسان بن النعمان فحاربهم وأخضعهم ونشر الاسلام بينهم .. ولكنهم كانوا أقواما أشداء ، فما لبثوا أن عادوا الى الاضطراب . فلما تولّى الوليد بلغه انهم في انقسام فيما بينهم ، فرأى أن يغتنم الفرصة لتأييد سلطانه هناك واتمام فتح تلك البلاد ، فبعث موسى بن نصير - وهو عربى لخمى - وكان قائدا باسلا ، شديد الايمان .. فنزل القيروان ثم تتبع البربر الى بلاد السوس الأدنى وهم يفرون من بين يديه ، حتى اذا يئسوا من النصر جاءوا اليه مستسلمين .. وبذلوا له فروض الطاعة ، فولّى عليهم أناسا من رجاله ينظمون أحوالهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الاسلام ..

وكان في جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد ، وكان شجاعا قد اعتنق الاسلام وأظهر غيرة عليه ورغبة في تأييده . فلما اتسعت فتوح موسى في افريقيا ولّى مولاة طارقا على طنجة وأعمالها وترك عنده ١٩٠٠٠ فارس من البربر ممن أسلموا وحسن اسلامهم . ورجع موسى الى افريقيا ولم يبق في تلك البلاد الا مدينة سبتة لم تخضع لحكم المسلمين ، وهى تدخل قليلا في البحر وتشرف على بحر الزقاق المسمى الآن بوغاز جبل طارق . وكان حاكم سبتة هو الكونت يوليان المتقدم ذكره . ويقول مؤرخو العرب أنه ظل ثابتا على ولائه لرودرىك (لذريق) حتى أساء رودريك الى ابنته فنقم عليه وحرض العرب على فتح اسبانيا . وينكر مؤرخو الافرنج ذلك السبب ، ويقولون انه انما

أعان العرب على فتحها لأنه من أقارب غيطشة ، وقد فعل ذلك انتقاما من رودريك لأنه سلب الملك منه ..

وكان جماعة البربر في المغرب يعبدون الأوثان الا بعض من خالط الروم على شواطئ البحر فانهم اعتنقوا النصرانية وهم قلة ، وكان لكل قبيلة أصنام وعبادات ، وكهنة يديرون شئونها ويتولون الأحكام بين أهلها ، ويحلون المشاكل التي تقع فيها كما كان يفعل الكهان عند العرب في الجاهلية ، غير ان الكاهن يسمى عند البرابرة « ماربوط » فيأتون اليه للاستشارة في حرب أو سلم ويحملون اليه الهدايا من الماشية أو الحنطة أو الرقيق الأسود أو الأبيض ..

وكان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر، فيخطفون الأطفال والغلمان ويحملونهم الى الآفاق يتجرون بيعهم، كما كانوا يتجرون بغلمان البيض من أهل اسبانيا وغيرها ، والغالب أن يكون هؤلاء من أسرى الحرب . وكان يبع الأسرى شائعا في تلك العصور . واشتهر برابرة المغرب بركوب الخيل

- ٥٢ -

طارق بن زياد

وكان في جلة قبائل البربر قبيلة الصدف ومنها طارق بن زياد

ولذلك قيل له الصدفى (١) وقد نشأ طارق في الجبال وعاش عيشة البدو وتدين بالوثنية مثل سائر أهله ورفاقه . وقد شب قوى البنية شديد البطش شجاعا .. وكان منذ نعومة أظفاره مشهورا بين رفاقه بالفروسية والقوة

وكان من بين رفاقه غلام أبيض اللون بخلاف سائر البرابرة ، وتقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم : فالبرابرة ضخام الشفاه ، عراض الوجوه ، قصار الأنوف ، سود الشعر ، شديدا السمرة . وهذا الغلام أبيض الوجه أشقر الشعر أزرق العينين ، ولكنه بسبب معيشة البدو في البرارى ، وركوب الخيل والغزو ، حال لونه الى السمرة قليلا وتضخمت أعضاؤه كلها فأصبح غليظ العنق والذراعين ، واسع الصدر ، خشن الكف ، كث الشعر وكانوا يسمونه (بدرا) إشارة الى صباحة وجهه دون سائر الرفاق ، وكان البرابرة يحبونه لحفة روحه وبسالته لاعتقادهم أن الشجاعة من خصائص السمر وأن البيض ضعاف جبناء

شب طارق وهو يرى هذا الغلام في بيت أبيه ، ويعلم انه ليس أخاه لأن رئيس قبيلتهم دفعه الى زياد ، وأوصاه برعايته والاعتناء بتربيته لأنه توسم فيه الخير .. فتصاحبا وتحابا . وكان طارق لا يهنا له عيش الا اذا كان بدر معه ، وبدر يعجب بطارق ويحبه كثيرا ، ويعد نفسه أخا له ولا يتخاطبان الا بروح الأخوة وهما معروفان بذلك عند سائر قبيلة الصدف

ولما جاء موسى بن نصير الى افريقيا وصار عاملا عليها كان في جملة من اتخذهم من الموالي طارق بن زياد ، ولما رأى شجاعته وحسن اسلامه رقاہ حتى جعله قائد حامية طنجة كما تقدم . وكان بدر رفيق طارق في كل أعماله ولكنه لصغر سنّه لم يتنبه له موسى ، على أنه أظهر في الوقائع التي شهدھا بسالة الأبطال المحتشكين لأنه لم يكن يهاب الموت ولا سيما اذا كان مع أخيه طارق فلما عرض يوليان على موسى فتح الأندلس ويكون هو عوناً له في ذلك ، بعث موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه ، فأذن له على أن يخوضها بالسرايا (ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال) (١) فرأى موسى أن يجترب ذلك برجال من الموالي المسلمين غير العرب (٢) يرسلهم لفتحها ، ولم ير خيراً من طارق يوليه قيادة تلك الحملة .. فأعد سبعة آلاف من الموالي والبربر وفيهم بعض العرب ، وسلّم قيادتهم الى طارق وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق الى الأندلس

فعبره في سفن أعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلا على شاطئ ذلك البحر سمّي بعد ذلك باسم طارق (جبل طارق الى اليوم) ولم يلتق طارق مشقة في الاستيلاء على الجبل ، ثم بلغه أن رودريك صاحب طليطلة يتأهب لملاقاته في جند عظيم ، فكتب طارق الى موسى فأمدّه بخمسة آلاف بربري ، فصار جنده اثني عشر

(١) ابن الاثير - الجزء الرابع . وذكر هناك أن ذلك كان سنة ١٩ هـ وأن موسى أرسل طريقاً لفزا جزيرة سميت باسمه ، ثم أرسل طارقاً
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي - الجزء الثاني

ألفا وفيهم يوليان صاحب سبته يدلهم على نواحي الضعف ،
ويتجسس لهم الأخبار ، ويث في أهل البلاد أن العرب جاءوا
الأندلس لا للفتح والاحتلال ، وإنما يريدون أن يملأوا أيديهم
من الغنائم ويخرجوا ، وحب إلى الأسبان أن يسهلوا لهم التغلب
على رودريك حتى يتخلصوا منه ويعيدوا الحكم إلى من يريدون
من ملوكهم الأضليين .. وما زال طارق يزحف بجنده على هذه
الصورة حتى وصل إلى وادي لكة (قرب قادس) وهناك التقى
جنده بجند رودريك (١) على ما هو مدون في كتب التاريخ
ووادي لكة أو وادي ليتة ويسميه الأفرنج (جوادي ليتي)
Guadalete في جنوبي الأندلس ما بين استجة وجبل طارق
يصب في خليج قادس
على ضفاف هذا النهر التقى جيش طارق بجيش رودريك في
أوائل سنة ٩٢ هـ ، وهناك جرت الموقعة التي قضت على جند
القوط وأيدت الفتح للمسلمين على يد طارق بن زياد البربري
كما سيأتي ..

- ٥٣ -

رودريك وأوباس

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح ،
والتوفيق حليفهم .. ورودريك في بلاطه على نحو ما تقدم من

(١). نفع الطيب - الجزء الأول

انصرافه الى الترف والرخاء ، وقد تركناه وهو يكاد يتمزق غيظا من أوباس لاجراج فلورندا من بين يديه بعد أن كادت تقع فريسة له .. فطلب محاكمته في مجلس الأساقفة ، فلما رأى منه ما كاد يفضح أمره أسرع الى انهاء الجلسة بحجة تأجيل النظر في تهمة أوباس الى جلسة أخرى كما تقدم ، وهو لا ينوى العود الى ذلك وانما اتخذه ذريعة للحفاظ على أوباس في السجن ريثما يبحث عن فلورندا ..

فلما انقضت الجلسة عاد رودريك الى قصره والأب مرتين الى جانبه يطبب فيما كان من تغلبهم على أوباس وارغام أنفه . والملك مع اقتناعه بتغلب أوباس عليه في تلك الجلسة صدق ما تزلف به مرتين اليه ، وحسب نفسه مخطئا بحكمه على نفسه بالضعف واقتنع بفوزه المبين . وكأنه نسي ما كان من الصواعق التي أنزلها أوباس على رأسه في أثناء المحاكمة ، وعمى عما كان من سقوط عرشه لو لم يتدارك الأمر بانهاء الجلسة ، والأساقفة الحاضرون يميلون الى تبرئته حفظا لكرامة مناصبهم . ولكن الانسان يتفانى في حب الذات ، لذلك يسهل اتقياده الى الاقتناع بفضله على سائر الناس عقلا ورأيا وقوة . ويقوى فيه هذا الاعتقاد كلما ضعف عقله وأظلمت بصيرته ، لأن حب الذات يدعونا الى الاعتقاد بأننا أمضى الناس عزيزة وأصوبهم وأصحهم مذهبا ، بل هو يوهمنا بأن كل ما هو لنا خير مما لسوانا ، فأصبح كل منا يعتقد أن ابنه أحسن من أبناء سائر الناس ، وزوجته خير من نساء العالمين .

واذا كان مؤلفا كانت كتابته أبلغ ما كتبه الكتاب ، ونظمه أحسن ما نظمته الشعراء ، والمرء مفتون ببنات أفكاره .. الا اذا كان من أهل الرأي السديد والبصيرة النقادة ، فان حكمه يقترب من الحقيقة بقدر ما أوتى من تلك المواهب . ولكن يندر أن تقدر أنفسنا حق قدرها تماما .. ولا سيما اذا مثينا بمن يتملقنا أو يمدح أعمالنا لمجرد رغبته في ارضائنا لا لاستحقاق فينا . وأكثر الناس تعرضا لهذه الأخطار هم الملوك وغيرهم من أهل المناصب الرفيعة ، فان الناس يتسابقون الى استعطافهم بالتملق والمدح الكاذب التماسا لنفع أو تنفيذا لغرض كما تبين لنا من أمر مرتين ورودريك ..

فوصل رودريك الى القصر وهو مقتنع بضاعة ذنب أوباس وأنه يستوجب اضعاف تلك النعمة ، فعزم على ابقائه في السجن ريثما يدبّر وسيلة لاستطلاع خبر فلورندا ثم ينتقم منه . ولم يجعل بقتله خشية أن يحتاج اليه في البحث عنها .. وأول شيء قام به أنه بث العيون والأرصاد في ضواحي طليطلة وفي الطرق المتشعبة منها ، ووعدهم بمكافأة كبيرة اذا قبضوا عليها وعلى من عساه أن يكون معها

أما أوباس فانه ذهب الى سجنه وهو منشرح الصدر لاعتقاده ببراعة ساحته وسلامة طويته ونبالة مقصده ، وخصوصا بعد أن أتيح له أن يكشف عن أعمال رودريك للمجمع ، ولو تلميحا . وهو مع ذلك لم يكن يرجو أن ينقلب المجمع على رودريك ،

وانما كان يهيمه الانتصار للحق والاذعان لصوت الضمير الحى ..
شأن الذين ينتظمون فى سلك الرهينة رغبة عن ملاذ هذا العالم .
فهؤلاء اذا أخلصوا النية فى تعبدهم ، لم يكن بين الناس أقدر
منهم على نصره الحق ، لزهدهم فى الشهرة أو الثروة ، ولاحتقارهم
زينة هذا العالم – وهم انما عمدوا الى الرهينة نفورا منها –
وقد كان أوباس من أمثال هؤلاء ، ولم يكن سعيه فى رد المثلك
لابن أخيه الا من قبيل نصره الحق

أقام أوباس فى سجنه المؤقت بضعة أسابيع وهو لا يبالي لو
أقام فيه أعواما لولا انشغال خاطره بفلورندا ، لأنه لا يعلم أين
هى ولا أين ذهب بها أجيلا وشاتيلا . ولكنه رجح من قرائن
مختلفة أنهم لم يقعوا فى قبضة رودريك . وكان لثقته ببسالة ذينك
الشابين وغيرتهما وصدق نيتهما فى خدمته مطمئن البال على
فلورندا ، على انه كان شديد الرغبة فى معرفة مقرها ومصير
أمرها . وكان من ناحية أخرى ، يفكر فى الفونس وفى المهمة التى
أنفذه رودريك اليها ، وما قد يتعمده من أذيته اذا علم بسعيه فى
انتقاذ فلورندا وطلب المثلك لنفسه ، ولكنه لا تطبأه على نصره
الحق لم يكن يخشى بأسا على أهلها .. فهو يعتقد أن الحق يعلو ولا
يُغلى عليه ، وان على الباغى تدور الدوائر ، ولذلك فانه كان
يتوقع وقوع رودريك فى شر أعماله ، وقد صرح بذلك غير مرة
حتى بين يدي رودريك نفسه

والانسان العاقل اذا تدبّر مصير الحياة الدنيا مع ما تحفل به

٢٠١

من الأخطار ، يرى الرجوع الى غير الحق ضربا من الجنون .. لأن الحق هو الغالب ، وهو وحده الذى يبقى ..

- ٥٤ -

شريش وكرومها

« شريش » (١) مدينة فى جنوبى أسبانيا تابعة لولاية قادس ، على الطريق بينها وبين أشبيلية .. بينها وبين مدينة قادس ١٧ ميلا وهى تقع بالقرب من نهر صغير هو وادى « ليتة » (٢) . والنهر المذكور ينبع من جبال ولاية قادس فى الشمال ويسير نحو الجنوب والغرب فيترك مدينة شريش الى يمينه ويجرى حتى يصب فى البحر الاطلانطى فى خليج بالقرب من مدينة قادس . ومدينة شريش تقع فى منبسط من الأرض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب . وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس ولا سيما الكروم ، لأن هذه المدينة مشهورة بكرومها وخمرها المعروفة باسمها (خمر شري) الشائعة فى أوربا وهى ثمينة يعتقدونها ويتعاطونها على موائدهم . ومعظم ما يصدر الى العالم من خمر شري الجيد يعصر من كروم ضواحي هذه المدينة وكروم شريش تشغل مسافة كبيرة من ضواحيها الى النهر وما وراءه على أكمام مسطحة أو مائلة ، وبين الكروم بيوت المزارعين

وبينها أبنية غريبة الشكل ، هي عبارة عن غرف كبيرة قائمة على صفوف من الأساطين الدقيقة . والغرف عالية السقوف ، في جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء ، وهي مستودعات يخزن الكرامون خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الأعوام ..

وبحوار وادي شريش مما يلي وادي ليته سهل سماه المقريزي « فحص شريش » (١) التقى فيه طارق البربري ورودريك القوطي وفيه كانت الضربة القاضية بفتح الأندلس ، وتمتثع العرب بغنائمها ومحصولاتها ، وهان عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا في أوربا كلها ، وكانت في غاية الاضطراب والضعف ، فلو ظلوا سائرين لما لقوا من يصد سيوفهم أو يقف في سبيل نبالهم ، ولكنهم أجّلّوا المسير فضاعت الفرصة منهم

ففي صيف سنة ٧١٠ للميلاد أي بعد الحوادث التي ذكرناها في طليطلة ببضعة أشهر ، كانت مغارس الكروم في شريش وضواحيها وعلى جانبي وادي ليته قد نضجت أعناقها ، وأخذ بعض الفلاحين في قطفها وأخذ البعض الآخر في عمل دعامات تحمل ما ثقل حمله من الدوالي لكبر العناقيد ، واشتغل آخرون في اعداد المعاصر ، وغيرهم في ثقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضي لاختزان خمر هذا العام

ويشتغل في كل ذلك عائلات من أهل البلاد الأصليين ، أو ممن قضى عليهم بالأسر في بعض الحروب فأصبحوا في مصاف

٢٠٣

العبيد ، وفيهم من كان بين قومه من أهل الوجاهة (١) وقد صبروا على مضض الذل ، وهو غير ثقيل على أهل ذلك الزمان لأنه كان عادة يكابدها الجميع . لكنه لم يكن يمنع تدمير أولئك الفلاحين من تلك الحال ، وأكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة .. على أن الرأي العام لم يكن راضيا عن رودريك لأسباب تقدم ذكر بعضها

وكانوا من الناحية الأخرى قد سمعوا بنزول العرب الى بلادهم عند بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) ولم يكثرثوا بنزولهم ولا علقوا عليه كثير أهمية . وكان في حملة هؤلاء شيخ طاعن في السن قضى حياته في الأسفار بأسبانيا وما يقابلها من الناحية الأخرى بأفريقيا حتى وصل الى مصر والشام ، وشاهد بعض أحوال العرب في أوائل ظهور الاسلام ، فكانوا اذا ذكروا العرب بين يديه يقول : « لا ينجينا من هذا الملك الا هؤلاء » فلما قيل له انهم عبروا البحر قال : « لقد قرب الفرج »

- ٥٥ -

مارية

وكان شيخنا المذكور في أواخر يوليو من ذلك العام (سنة ١٧٠) الموافق رمضان سنة ٩٢ هـ (٢) جالسا في كوخه وحوله

(٢) التقويم العام لخمسة آلاف عام

(١) دوزى - الجزء الاول

أولاده وأحفاده ، يشتغل النساء منهم بأعداد الطعام وصناعة
الألبان والجبن ، والأولاد يشتغلون في علف الماشية أو صنع
السلال لحمل العنب عند قطافه ، ولا حديث لهم الا تقدير موسم
ذلك العام من العنب والخمر ، وان لم يكن لهم في تقديره فائدة
كبرى لأنه ليس ملكا لهم ، فلم يكن للفلاحين ونحوهم أن يقتنوا
عقارا أو يملكوا بنيانا وانما المثلثك والسيادة لطبقة الأشراف ،
وأكثرهم من الرومانيين والقوط ، وللـفلاحين حصة قليلة من
المحصول .. ولكن الانسان ميّال للبحث عن المجهول ، ولذا فقد
اشتغل الشيخ وأولاده معظم ذلك النهار في تقدير غلة السنة حتى
احتدم الجدل بينه وبين أحدهم وشغلوا بذلك عما حولهم .
وكانوا جالسين في ظل دالية كبيرة قد نصبوا بأغصانها خيمة على
شكل العريش . وأجروا الماء من تحتها بقناة تقف عندها الماشية
للشرب ، والناس للاستقاء ، ويستظل بظلها أهل تلك العزبة
وما فيهم غير الشيخ وأولاده وأحفاده ونساء المتزوجين منهم
أقبل المساء وهم في ذلك ، وقد رجع من كان غائبا في أثناء
النهار في اصلاح الدالية أو تسنيدها ، أو تنظيف المستودعات أو
صنع السلال ، أو نقل الأغصان اليابسة للوقود . فربما جاء الرجل
وعلى رأسه سلة ، وعلى كتفه حزمة ، وتحت إبطه جرة ، وفي جيبه
صخرة ، وفي يده رغيف ، وفي فمه لقمة يجر وراءه صبية .. هذا
يقود خروفا ، وذاك يسوق حمارا ، وذلك يحمل عنقودا قطعه
قبل تمام النضج وفيه حموضة قليلة ، وقد منعه أبوه عن ذلك

٢٠٥

فخبأ العنقود فى جيبه وجعل يأكله خلسة ، واخوه بجانبه يهدده بالشكوى الى أبيه اذا لم يطعمه بعضه ، فيهرع هذا الى والدته يختبئ فى ثنايا ردائها وفى زعمه ان ذلك الرءاء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان ، كأنما هو راية كسرى انوشروان .. تلك عيشة السذاجة الفطرية ، ان يقتات المرء من ثمار ما يغرسه وألبان ما يرعاه لا مطمع له الا ان يجمع من ذلك ما يكفى أهله بقية العام للكساء والطعام .. هناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة ، هناك الاخلاص وصدق اللهجة .. اذا سمعت احدهم يقول لك انه مشتاق لرؤيتك فهو يعنى ذلك حقيقة ولايقوله على سبيل العادة التى أساسها الخداع والتلق .. والسعادة الحقيقية — اذا صح وجودها — انما تكون فى تلك المنازل الخفية وبين تلك المغارس التى تتجدد أوراقها فى كل عام وتتجدد قلوب أهلها معها .. ليس هناك ضغينة ولا حقد ولا طمع ولا نمية ولا رياء لقلة حاجات الانسان وسهولة نيلها . فالمرء اذا قلت مطالبه وهان عليه اكتسابها قلتما يداخل قلبه حسد أو حقد أو غيرهما من الرذائل .. لأن الحسد والحقد والرياء والنيمة انما يلجأ اليها الضعيف اذا كثرت مطالبه وعجز عن الحصول عليها بجده وسعيه ... ولذلك كانت الرذائل من جملة أدران المدنية على ان الفلاح الساذج انما يكون سعيدا فى ظل الأمن والعدالة ، والا فهو من أتعس خلق الله لأن الظلم يقضى على سعادته قضاء مبرما ، اذ يسلبه ينبوع تلك السعادة وهو غلة

أرضه ، فكيف اذا لم يكن هو صاحب الأرض كما كان شأن
فلاحى اسبانيا فى الأجيال الوسطى .. فلا يلام شيخنا المشار اليه
اذا تمنى استبدال حكومته بغيرها ولوه كان غريبا

غربت الشمس وهى ترسل أشعة ذهبية تشرح الصدر
ويتناول أهل المدن لرؤيتها وقلما يتفق لهم ذلك . ولو أراد
الفلاحون لرأوها كل ليلة ، ولكنهم فى شغل عنها وعن سواها
من مناظر المساء باعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل أو
تحت بعض الأشجار . فلما غابت الشمس اجتمع أفراد تلك
العائلة وهم يعدون بالعشرات وفيهم الأطفال والأحداث والشبان
والشابات ، وأصغرهم سنًا أكثرهم فرحا ..

وكان أعظمهم اهتماما ذلك الشيخ لأنه لم يكن يهدأ له بال الا
بعد أن يرى أولاده وأحفاده تحت ذلك العرش فى آخر النهار.
وخصوصا بعد أن جند أمير تلك الناحية بعضهم بأمر رودريك
ليكونوا له عوناً فى محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر
فلما ظن الشيخ ان الاجتماع قد اكتمل تفرس فى أولاده فاذا
احدى بناته لا تزال غائبة ، وكانت أعزهم على قلبه للطفها وحنوها
فصبر هنيهة أخرى لعلها تأتى ، فلما استبطأها نادى زوجته
قائلا : « أين مارية ؟ »

٢٠٧

سمعتة يسألها عنها بغتت وصاحت : « ألم تأت بعد ؟ »
قال : « كلا ... أين تركتموها ؟ »

قالت : « تركتها في المستودع الكبير فوق الراية تغسل بعض
الأواني ، وتنقل بعض الجرار الملائنة الى جانب آخر ومعها أخوها
بطرس .. » قالت ذلك والتفتت الى ماحولها ونادت : « بطرس »
فجاء الغلام مسرعا فابتدرته قائلة : « أين تركت مارية ؟ »
قال : « تركتها في المستودع الكبير ... ألم تأت بعد ؟ »
قالت الأم : « لا ... »

ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش وأسرع
نحو ذلك التل وهو يقول : « سأعود بعد قليل » وانما دفعه
الى تلك العجلة شعوره بأنه أخطأ برجوعه وحده دون أخته

وكان القمر في أواخر أيامه والليل مظلم والطرق بين الكروم
شاقة وعرة ، الا على أهل الكروم فانهم يمشون بينها وأعينهم
مغمضة لا يعثرون بعود ولا حجر . ولبت الشيخ وأهله ينتظرون
رجوع بطرس على مثل الجمر ، وهم يعدون خطواته ويقدررون
الأماكن التي يمر بها ويتنبأون بوصوله الى كل منها ، حتى ظنوا
انه وصل وعاد ، فاذا هو لم يرجع بعد ، فانشغل خاطرهم وصبروا
أنفسهم حتى طال غيابهم .. فلم يعد الوالدان يستطيعان صبرا ، فوثب
الوالد الشيخ كأنه شاب في عنفوان الشباب ، واقتفى أثر ابنه
عن طريق مختصر لا يعرفه الابن .. ولم تكن المسافة بين العريش

وذلك المستودع تزيد على مائة متر شرقا من جهة النهر، والمستودع مشرف على ضفاف النهر وعلى معظم كروم تلك الناحية

- ٥٦ -

وادی لیته

وصل الشيخ الى المستودع وصعد على السلم حتى بلغ بابه وهو يلهث من التعب ، فوجد الباب مغلقا وليس عنده أحد ، فطرقة طرقا متواصلا ، فلم يسمع جوابا.. فتأمل في الباب وكيفية اغلاقه فرأى انه مغلق من الخارج كعادته دائما ، فبدأ له ان مارية خرجت منه وأغلقتة . فوقف بأعلى السلم ليستريح والتفت الى ماحوله فأطل على مدينة شريش الى ضفاف النهر من جهة ، وعلى كرومها من جهة أخرى ، والظلام يغشى بصره .. على انه رأى أنوارا على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من بعثرتها وتعددتها انها نيران جماعة كبيرة . ولم يكن يعهد ان في تلك الجهات اناسا غير الفلاحين وعمال الحقول وهم لا يوقدون نارا على هذه الصورة ، فاضطرب خاطره ونسى غياب ابنته ووقف هنيهة ينظر الى تلك النيران ، ويرى ظلالها على صفحة النهر تتلأل كأنها مصاييح موقدة تحت الماء وأشعتها تهتز باهتزاز أمواجه . ولولا تلك الظلال لم يعرف ان تلك النيران على ضفاف النهر وعاد الشيخ بغتة الى وجدانه فتذكر ابنته التي غابت ، فخطر

٢٠٩

له ان تكون قد عادت الى البيت ، أو لعل أخاها قد عثر عليها أثناء رجوعه .. ثم ما لبث أن سمع حركة ركض لأناس يمشون بين الدوالي ، فأصت فسمع صوت زوجته ومعها بعض أولاده فعلم انهم جاءوا لاستطلاع خبر مارية ، فساداهم فكان أول صوت سمعه منهم هو صوت زوجته وهي تقول : « أين مارية ؟ » فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد اضطرابه وقال : « أين بطرس ؟ .. هل عاد اليكم ؟ » ..

وكانت العجوز قد وصلت الى أسفل السلم فأجابت وهي تمد يدها الى اخمص قدمها وتخرج شوكة أصابتها في أثناء جريها : « عاد بطرس ولم يجدها »

فنزّل الشيخ عن السلم حتى التقى بزوجته ومعها عدد من أولاده فقال لهم : « يظهر لى ان مارية ضلت الطريق أثناء رجوعها من هنا ، فلتفرق ويسير كل منا فى طريق حتى نلتقى فى البيت .. فمن يجدها منا فلينبه الباقيين بالنداء حتى يكفوا عن البحث . ولتكن العلامة فيما بيننا هذه الكلمة (يامار بطرس) أما انا فاذا ابطأت بالرجوع فلا تقلقوا لغيابى » فأرادت زوجته ان تعرف السبب فلم يصبر لسماع كلامها ، وانحدر نحو النهر وهو يشب بين الكروم من تل الى تل ، يتعثّر تارة بالعليق وطورا بالحجارة ، وهو يتطلع نحو النهر مخافة ان يخطئ الجهة لاشتداد الظلام ، وكان اذا توارى النهر عن عينيه وراء بعض الدوالي العالية أو وراء التلال خشى أن ينحرف عن الجهة فتبعد المسافة عليه .. على

ان النهر قلما كان يغيب عن بصره . فلما قرب من النهر رأى النور على ضفتيه ثم سمع جعجعة عرف انها اصوات الجمال ، وكان قد سمع مثلها في اثناء اسفاره ولم يعهد لها مثيلا في اسبانيا . فلما سمع الجعجعة تنسم رائحة العرب وأدرك انه على مقربة منهم وتذكر ما سمعه عن نزولهم ببلاد الأندلس .. فتحقق انه بجانب معسكرهم ولكنه استبعد سهولة وصولهم الى ذلك المكان وبعد هنيهة وصل الى أكمة وقف عندها وتفرس فيما بين يديه ، فاذا هو مطل على سهل كبير ينتهى الى النهر، وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران . ورأى على الضفة القريبة في طرف السهل نارا وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام. فلبث نزهة يفكر في ابنته مارية حتى همَّ بالرجوع للبحث عنها في مكان آخر ، ثم حدثته نفسه بالنزول الى تلك الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ، ولم يخش بأسا مما علمه في اثناء اسفاره في افريقيا والشام من عدل العرب ورفقهم بأهل البلاد التي يفتحونها ، وكان قد تعلم بعض الألفاظ العربية مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته ، وكانت السنون قد علمته الشجاعة ورباطة الجأش .. فنزل من الأكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الأخرى ، فتبادر الى ذهنه ان القوم قد وصلوا الى النهر في ذلك المساء وأخذوا في عبوره ، فأظلمت الدنيا قبل اتمام العبور فأجلّوه الى الغد ..

سار الشيخ حتى دنا من الخيمة فطرق اذنه صوت ارتعدت له فرائصه بغتة واستغرابا ، سمع ابنته مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق بالبكاء ، فلم يصبر عن الوثوب نحو الخيمة وهو لا يخشى أحدا ولا يغى شيئا من فرط ما هاج من عواطفه ، خوفا على ابنته ، فاقترب من النار .. واذا هو بباب الخيمة ، فاعترضه رجل واقف هناك وقد تقلد سيفاً ورمحاً وهم بالقبض عليه وهو يقول باللغة العربية : « من انت ؟ » ففهم الشيخ ما يريد فاجابه بكلمات متقطعة انه يريد الدخول الى الخيمة .. فاستمهله الرجل ريثما يدخل ثم عاد وأشار اليه ، فدخل الشيخ ولحيته ترتعش في وجهه ، وكان على شيخوخته وبياض شعره تتجلى الصحة والنشاط في عينيه شأن أمثاله من أهل القرى والفلاحين

- ٥٧ -

بدر ويوليان

دخل الشيخ وأخذ يجيل بصره في اطراف الخيمة للبحث عن ابنته ، فرآها جالسة في أحد جوانبها على الأرض ، ولما وقع بصرها على أبيها ، مع ضعف نور المصباح هناك ، وثبت نحوه وهي تصيح : « أبى .. أبى » . فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناها من البغلة والفرح ، ونظر الى صدر الخيمة فاذا هناك رجل كبير المهامة عليه العمامة والحية فعرف انه من البربر ،

وبجانبه رجل بملابس القوط لم يحدق فيه الا قليلا حتى عرف انه يوليان صاحب سبتة ، فلم يستغرب ذلك لأنه كان قد سمع عن اتفاهه مع المسلمين على القوط ، وكان يحسب ذلك اشاعة كاذبة .. فلما رآه تحقق من الأمر وأيقن ان العرب غالبون لا محالة مرت كل هذه الخيالات في ذهن الشيخ في لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها ، وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الأسبان : « لعل هذه الفتاة ابنتك ؟ »

قال الشيخ : « نعم .. يامولاي .. »

قال يوليان : « لاخوف عليها فانها في أمان .. ولا تظن ان مجيئك غير شيئا من عزمنا في شأنها ، فقد كان الأمير عازما على ارجاعها اليك آمنة سالمة . واما بكأؤها الذي تراه فانما هو من خوفها . وقد ظنت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبه حاكمكم رودريك ، فانه يمثل هذا الفعل الشنيع سيخرج سلطانه من يديه ان شاء الله » . قال ذلك واثقبضت أسارير وجهه للحال فلم يدرك أحد سبب ذلك الانقباض .. على انه استطرد في الكلام قائلا : « وأما سبب مجيئها الينا ، فان أحد رجال الأمير خرج في اصيل هذا اليوم لحاجة فرآها في الطريق فجاء بها وهو يحسبها من السبايا ، فلما علم الأمير بذلك انكره عليه ، وقد كانا في جدال عنيف في هذا الشأن الى ساعة دخولك »

ولم يتم يوليان كلامه حتى وثب الى وسط الخيمة شاب بملابس العرب وعلى رأسه عمامة صغيرة ، ولكن سحنه غير

سحنة العرب ولا البرابرة ، وهو في مقتبل العمر تتدفق الصحة من عينيه وجبينه ونظر الى يوليان وهو يقول : « أراك حرمتني من غنيمتي رغبة في مرضاة أبناء عشيرتك .. »

فأجابه طارق ، وهو يتنسم ، قائلاً : « لا تتعجل يا بدر ، فانك ستصيب كثيرا من الغنائم .. فنحن في أول الطريق ، وغدا تلتقى بجند طليطلة فما تظفر به من غنائم أو سبايا فهو لك .. أما الآن فاننا لسنا في حرب ، ولا يمكننا ان نعد هذه الفتاة سبية . وهذا ابوها شيخ قد طعن في السن ، وقد رأيت ما كان من لهفته عليها فهل يليق بنا ان نغص عيشهما بلا حق ، والاسلام انما يدعو الى الرفق والعدل . واما السبايا التي تؤخذ بالحرب فهي حلال لأصحابها .. ومَنْ كان في مثل بسالتك وجهادك يظفر بأحسن الغنائم وأجمل السبايا .. »

ثم التفت طارق الى الشيخ وقال : « انصرف ايها الشيخ الى منزلك وانت في امان حتى تصل اليه .. واعلم اننا لم ندخل هذه البلاد الا رحمة بأهلها ، وان ديننا يأمرنا بالرفق والاحسان ... فكن انت وكل أهل الأندلس على يقين من ان من يكف يده عن حربنا فهو في ذمتنا ولا خوف عليه . وأما الذين يجسرون على مناوأتنا فما دواؤهم الا السيف .. » ثم نادى : « يا غلام » فدخل رجل بربرى من اعوان طارق فقال له : « اصحب الشيخ وابنته حتى يصلا الى مسكنهما .. » ..

فهمَّ الشيخ بتقبيل يد طارق ، فمنعه وطيب خاطره وصرفه .

فخرج وهو يثنى على ما لاقاه من طارق وقال فى نفسه : « بمثل ذلك يملك الأمير الرعية ولا يملكهم بالعنف أو الظلم .. »
أما بدر فانه سكت احتراماً لطارق وفى نفسه حزاة على يوليان لاعتقاده انه هو الذى منعه من غنيمته ، ولكنه كظم ما فى نفسه وخرج من الخيمة اخفاء لعواطفه

- ٥٨ -

الهروب

تركنا فلورندا وخالتها والرجلين ، اجيلا وشاتتيلا ، هائمين على وجوههم فى ضواحي طليطلة . وكان السبب فى ذلك ، كما علمت من سياق الرواية ، ان اجيلا وشاتتيلا كانا فى انتظار فلورندا عند اسفل القصر فى تلك الليلة الباردة المرعدة ، فلما تيسر لها الافلات من بين يدي رودريك ، بعد أن بغته اوباس كما تقدم ، أسرع الى النافذة وحملت ما استطاعت حمله من الثياب وايقونة صغيرة للسيدة العذراء ، كانت شديدة الاعتقاد بكرامتها ، فخبأتها بين ثيابها والتفت بالبقاء ، وخالتها العجوز تساعدها على التأهب . فلما أتما الاستعداد بقدر الامكان أطلت العجوز ونادت ، وكان الرجلان على أهبة العمل فتسلقا الشجرة وتكاتفا على انزال فلورندا سالمة ، ثم العجوز وما بقى من الأمتعة الضرورية ، ونزلوا جميعا من الحديقة والرياح تهب والرعود

تقصف وهم من الخوف في شغل عن كل ذلك حتى نزلوا الى القارب .. وكانت فلورندا تتوقع ان ترى الفونس فيه لأنه هو الذى كتب اليها ان توافيه اليه فلما رأت القارب خاليا اضطربت وقلقت ، واستحييت أن تسأل عنه ، فخاطبت خالتها بالأمر ، فالتفتت العجوز الى الرجلين وقالت : « وأين الأمير الفونس ؟ » فقال شانتيل : « لم يأت معنا ياسيدتى ... » قالت : « وأين هو ؟ .. »

فخشى شانتيل ان يكون في قوله ما يسيء الى فلورندا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل . لأن الرجلين كانا قد ادركا سر المهمة التى انتدبهما لها اوباس وان كان هو يحسبهما آلة صماء يستخدمهما في تحقيق غرضه . ولم يكن الفونس يتوهم ان احدا يعرف ما بينه وبين فلورندا - ذلك شأن المحبين حيثما كانوا - يحب الشاب الفتاة وهى تحبه ويطول بينهما زمن التردد وهما يحسبان ان الناس في غفلة عنهما ، وقد يكون بين الناس من يعرف كل جملة وكل كلمة مما يدور بينهما . وأعلم الناس بذلك خدم المنازل فهم يوهمونك انهم يشتغلون في اعداد الطعام ، أو ترتيب أدوات المائدة وآذاتهم تسترق ما يدور بينك وبين ضيوفك أو جلسائك من الأحاديث السرية وغيرها ، ويتفاخرون بتناقلها والمبالغة فيها على ما تقتضيه عواطفهم نحو صاحب ذلك الحديث . فان كانوا يحبونه جعلوا سيئاته حسنات - وأفضل ما يحبهم فيه الكرم - والا فانهم يجعلون الحسنة

سيئة .. أما اجيلا وشنتيلا فلم يكونا من طبقات الخدم ، وانما كانا من الأسرى كما تقدم وقد اطلعا على ما بين الفونس وفلورندا من الحب المتبادل ، وعلمنا مما كانا يسمعانه من احاديث الخدم ان رودريك أيضا يحبها . فلما طلب اليهما اوباس ان يذهبا الى هذه المهمة أدركا السر ، وأقدا على العمل وهما شديدا الغيرة على مصلحة الفونس لأنهما يكرهان رودريك وأهل بلاطه . وكانا قد رأيا الفونس خارجا على رأس حملة من الفرسان بأمر من الملك ، فأدركا انه ذاهب الى مهمة

فلما رأى شانتيل ما كان من اضطراب فلورندا وسؤالها عن الفونس وهو ليس معهم ، خشى ان يكون في الجواب ما يزعجها والوقت لايساعد للتمهيد ، فاشتغل بالتجذيف مع اخيه لدفع القارب الى مجرى النهر ، وكان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح . على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها : « نظنه في منزل الميتروبوليت لأنه هو الذى أمرنا أن نذهب بك الى هناك » ..

فسكن روعها ، ولكنها ظلت مضطربة الخاطر اذ لم تكن تتوقع ان يعهد الفونس الى أحد سواه بانقاذها مع ما يظهره لها من الاندفاع في حبها ، فأحسبت بعث يمازجه شك ، ولكنها صبرت ريثما تلتقى بحبيبها وتعاتبه .. والعتاب احتكاك بين القلوب يزيدها حرارة وتجاذبا ..

سار بهم القارب وهم يطلبون ضفة قريبة من بيت اوباس

لأنهم كانوا معه على ميعاد ليذهبوا اليه ومعهم فلورندا
فطال بهم المسير في النهر لهياجه واضطرابه ومقاومة الرياح
لهم فضلا عن شدة الظلام ، وكانت فلورندا كلما خافت من خطر
استعانت بالله وأخرجت الأيقونة وقبّلتها فירתاح خاطرها ويطمئن
بالها - تلك من ثمار الايمان وليس افضل منه وسيلة لتعزية
الانسان - ومضى هزيع من الليل قبل نزولهم الى البر، فلما نزلوا
اليه تشاوروا فيما يجب أن يفعلوه ، فقال اجيلا وكان أسرع
خاطرا وأكثر اقدا ما من أخيه : « أرى أن تمكثوا هنا وأذهب
انا الى بيت الميتروبوليت ثم أعود بمن يحمل هذه الأحمال »
فاستصوب الجميع رأييه فمضى حتى أشرف على المنزل ، فرأى
حوله فرسانا من جند الملك ، فأجفل وتراجع وقد شغل باله سبب
وجود ذلك الجند هناك . ثم ما لبث أن رأى بعضهم يخاطب
أوباس فتربص في أحد المنحنيات ليسمع ما يدور بينهما ، ففهم
من خلال الحديث ان الملك بعث بهم للقبض عليه . فلم يخامره
خوف على اوباس لفرط اعتقاده بقدرته.. والناس شديدا الاعتقاد
في قسسههم ومعلميهم وآبائهم . فكل تلميذ يعتقد ان أستاذه أمهر
الأساتذة ، وان كاهنه أقدس الكهنة ، وان أباه أقدر الآباء حتى
يكاد يكون قادرا على كل شيء ، ولو لم يكن في هؤلاء من المواهب
ما يدعو الى ذلك الاعتقاد . فكيف بأوباس وهو على ما وصفناه
من الهيبة والجلال والتعقل . فلم يخامر ذهن اجيلا خوف عليه
قط ، ولكنه أوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده ان فرارها هو

سبب القبض عليه ، فلما توارى الركب عنه تحوّل نحو القصر على أمل أن يخاطب بعض الخدم ، فمشى وهو يسترق الخطى استراقا ويحسب الدخول سهلا بعد ذهاب الحرس ، فاذا هو بكوكبة أخرى قد أحدقوا بالقصر واستخدموا القوة لاجراج الذين فيه ، وبالغوا في التخريب والتعذيب فلما رأى اجيلا ذلك أيقن بالخطر الذي أصبح معرضا له هناك وبما يهدد فلورندا من الأخطار الجسام اذا اطلع الملك على مقرها فهرول مسرعا ولم يعد له شاغل سوى فلورندا ، وخاصة حينما تصور منزلتها عند الفونس واوباس .. فاعتزم ان يبذل كل ما في وسعه ووسع اخيه في سبيل انقاذها وحمايتها الى آخر نسمة من الحياة ..

- ٥٩ -

الكتاب

وكانت فلورندا جالسة على الأرض وفي حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيتها ، والتفت بطرفها التفافا شديدا لشدة البرد والريح . وكان التعب قد أخذ منها مأخذا عظيما لما مرّ بها تلك الليلة من الانفعالات النفسية ، وما قاسته من الأهوال وما خافته من الفضيحة ، كل ذلك غلب على قواها حتى مالت الى النعاس ، ولاسيما بعد ان ظنت انها قد نجت من حبال ذلك الرجل الشرير،

فأسندت رأسها على كفها وأغمضت جفניה فنامت . ولما رأتها
بربرة نائمة اجازت لنفسها الارتياح هنيئة . اما شاتيلافانه ظل
ساهرا قلقا وقد استبطأ اخاه وحسب لغيابه ألف حساب ، وربما
لامه لابطائه ومغادرته اياهم عرضة للهواء والبرد ، وتوهم انه
لو ذهب هو في تلك المهمة لكان أقدر منه على اتمامها وتقدير
ما قد ينجم عن البطء من الاضرار . على انه ما لبث أن رآه عائدا
وحده فذعر لانفراده ، فاذا هو يقول : « هلم بنا سريعا حتى
نخرج من هذه الضواحي الليلة لأنى اعتقد ان الملك سيبت
علينا العيون والأرصاد ابتداء من صباح الغد »

فأفاقت فلورندا من نومها مذعورة ، وصاحت : « ويلاه ..
والى أين نذهب ؟ .. نجتنى يا مخلصى .. أين الفونس ؟ »

فقال : « ليس فى المنزل احد ياسيدتى .. »

قالت : « ولا اوباس .. هل رأيت الفونس هناك ؟ »

فقال : « ان الفونس لم يكن هناك يامولاتى .. »

فذعرت وقالت : « اين هو اذن ... يا الهى اين الفونس ؟ »

وكيف عرفت انه ليس هناك .. ؟ »

قال : « لأنى رأيت اوباس وهو بين يدى الجند الملكى يسير
الى قصر الملك ، ثم رأيت الجند قد دخلوا بيته وأخرجوا كل من
كان فيه من الخدم ، ولم اسمع ذكرا لسيدى الفونس بينهم ،
فلعله لا يزال فى منزله ... »

فقطع شاتيلافانه كلام أخيه وقال : « ان سيدى الفونس لم

يرجع الى قصره قبل خروجنا منه »

قالت : « اين كان قبل خروجكم .. ؟ »

قال : « كان قد ذهب في مهمة بأمر خاص من الملك » .
فتذكرت للحال ما سمعته من رودريك في تلك الليلة عن ابعاد
الفونس ، وكانت تحسبه يقول ذلك على سبيل التهديد ، فأيقنت
عند ذلك صدق قوله ، ولكنها لم تكن تدري هل أبعده أو
حبسه ، فأعادت السؤال قائلة : « هل انت واثق من ذهابه ؟ ..
وهل تعلم الى أين ؟ »

قال : « انى واثق من خروجه من قصره ومن ورائه الحرس
الملكى ، وأما الى أين ذهب فلا أعلم ، ولكن الغالب انه سار
في مهمة الى بعض البلاد ... »

فعاد اجيلا وقطع كلام أخيه قائلاً : « أظنه أرسل في قيادة
حملة الى بعض البلاد لاختاد ثورة أو مخابرة بعض الكونتية مما
يحدث كثيرا في هذه الأيام .. ولا بأس عليه باذن الله ، ومتى
استقر بنا المقام وأمنّا العيون والأرصاد .. بحثنا عن مكانه ،
وبذلنا كل ما يؤدي الى راحتك وراحته فأننا صنيعته وأرواحنا
له .. والآن لابد لنا من مغادرة هذا المكان حالا .. والفرار من
الظلم فضيلة .. ولنترك البحث في مصيرنا الى وقت آخر ، دعونا
نرجع الى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود
هذه المدينة ، واهلها وحراسها في شغل عنا بالأمطار والزوابع ،
فاذا صرنا في مأمن بحثنا فيما نفعله » . قال ذلك وتقدم الى

فلورندا يريد مساعدتها . في النهوض ، فنهضت واتجهت الى القارب وقد عادت اليها مخاوفها وتبعثها خالتها وهي تحمل صرة الثياب ، وبقي هناك صندوق تعاون الرجلان على حمله ، ونزلا الى القارب واخذا في التجديف . وكانت الزوابع قد خفت حدتها ، وساعدهم التيار حتى خرجوا من ضواحي المدينة .. وأصبحوا في مكان لا يرون فيه احدا ، ولا يسمعون صوتا غير نقيق الضفادع .. وكان قد مضى معظم الليل فأووا بالقارب الى منعطف وراء تل يداريهم من الرياح . وقال اجيلا عند ذلك لفلورندا : « نحن الآن في مأمن — ياسيدتى — فاذا شئت النوم الى الصباح فلا بأس عليك ، وكذلك الحالة . واما نحن فانا نتناوب الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث عن الجهة التي نسير اليها »

نامت فلورندا بقية ذلك الليل نوما مضطربا ، وتراكت عليها الهموم فتذكرت حبيبها ومصيره ، وكيف كان رودريك سبيا في تشتيت شملهما . وتذكرت والدها ومقدار تعلقه بها منذ حدثتها ، وماذا عسى ان يكون من غضبه اذا بلغه خبرها ، وكم يكون فشله وخيبة أمله مع صبره على روديك واغضائه عن تعديه على الملك .. فحدثتها نفسها ان تشكو أمرها اليه وتستحثه على الانتقام لها . فلما استيقظت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذي تقدم ذكره ، واستدعت اجيلا فوقف بين يديها فدفعت الكتاب اليه ، والدمع يترقرق في عينيها من شدة تأثرها وهي تكتب الكتاب ، وقالت : « لقد رأيت من مروءتك ومروءة

اخيك ما يوجب سرورى وامتنانى كثيرا ، وقد وعدتنى بالبحث
عن الفونس ، وأطلب اليك فوق ذلك أن توصل هذا الكتاب
الى أبى ، فهل تعرف من هو .. ؟ »

قال : « نعم ياسيدتى ، انه الكونت يوليان صاحب سبتة »

قالت : « هو بعينه .. هل تسير اليه بهذا الكتاب ؟ »

فأشار بيديه ورأسه وعينيه انه يفعل ذلك من كل قلبه . ثم
قال : « ولكننى أرى يامولاتى — قبل كل شئ — ان نعمل على
تهيئة مكان أمين لك ، أعرف الطريق اليه اذا انا عدت بالجواب
اليك .. »

فالتفتت فلورندا الى خالتها وقالت : « ما رأيك ياخالة ؟ ..

اين تكون اقامتنا اقرب الى الأمن والسلامة ؟ .. »

وكانت العجوز مطرقة فبالغت فى الاطراق ولم تجب . فأعادت
السؤال عليها فرفعت رأسها وفى وجهها ملامح البشر ، وقالت :
« اظننى عثرت على طريقة لا ترون خيرا لنا منها فى هذه
الأحوال .. »

قالت فلورندا : « وما هى ؟ .. »

قالت : « لا يخفى عليكم ان فى هذه البلاد أديرة ينقطع فيها
الرهبان عن العالم تعبدوا لله تعالى ، وتكون هذه الأديرة غالبا فى
البرارى او فى الجبال ومنها ما لا يدخله الناس الا نادرا ،
فالرهبان منقطعون عن العالم بأسره .. فاذا أقمنا فى أحد هذه
الأديرة كان فى ذلك ستر لحالنا ريثما يتيسر أمرنا ... »

- ٦٠ -

دير الجبل

فتقدم اجيلا وكأنه تذكر أمرا ذا بال ، وقال : « لقد أعاد كلام
الحالة الى ذاكرتى أديرة للنساء العذارى .. ان الاقامة فيها
اولى لمولاتى لأنها تكون بين عذارى مثلها »

فقطعت العجوز كلامه قائلة : « صدقت يا اجيلا ولم أكن
اجهل وجود هذه الأديرة ولكننى لم أتم كلامى بعد .. ان أديرة
العذارى مناسبة لى ولفلورندا .. ولكننا لا نستغنى عن احدكما
معنا فأين يقيم واقامته معهن محظورة .. ؟ » قالت ذلك وصبرت
لحظة وفى ملامح وجهها انها لم تنته بعد من الكلام ، ثم قالت :
« فى اسبانيا من الأديرة ما يجتمع فيها الرهبان والراهبات معا
فى دير واحد بدون اختلاط .. وذلك ان بعض الأرامل من النساء
يرغبن بعد موت أزواجهن فى الانقطاع عن العالم والتعبد ، فيقمن
فى أديرة خاصة بهن وقد يكون معهن بعض العذارى . ولكن
بعضهن يبالغن فى التنسك والرغبة عن العالم ، فيقمن فى اديرة
لا يخرجن منها على الاطلاق . ومثل هذه الأديرة كثيرة فى هذه
البلاد ولا اظنكم تجهلون وجودها . ولكنى اعرف ديرا بين
هذه الجبال (جبال طليطلة) خصص جانب منه للرهبان والجانب
الآخر للراهبات ، وكل طائفة منهما فى قسم من الدير لا علاقة

لها بالطائفة الأخرى ولا بسائر العالم الا نادرا . ولا يلتقى
الراهبات والرهبان معا الا في الكنيسة في أوقات الصلاة . وقد
علمت من قواعد هذه الرهبنة ان الراهبة لا يمكنها مخاطبة أحد
من الناس حتى رئيس الدير أو وكيله الا بوجود راهبتين
آخرين (١) وهذا التدقيق نافع في منع المحظورات .. فأرى اذا
استحسنتم فلورندا أن نذهب الى ذلك الدير فنقيم أنا وهى في
قسم الراهبات ، وأنت وأخوك تقيمان في قسم الرجال .. نقيم
هناك ضيوفا لنرى ماذا يكون .. »

فالتفتت فلورندا وقد أشرق وجهها وقالت : « بورك فيك
ياخالة ، لقد نطقت بالصواب .. هلم بنا الى ذلك الدير ... هل
هو بعيد عنا .. ؟ »

قالت : « لا أظنه يبعد عنا الا مسيرة يوم وبعض يوم ..
وطريقنا اليه غير مطروق فلا نخاف عينا ولا رقيقا »
قالت فلورندا : « هل تعرفين الطريق بنفسك ؟ »
قالت : « أظننى أعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة
أعوام .. سيروا بنا على بركة الله »

قالت فلورندا : « أرى ياخالة - قبل كل شيء - أن يذهب
اجيلا بالكتاب الى أبى ، فاذا عاد منه بخبر جاءنا الى ذلك الدير »
قالت : « لك الأمر فافعلى ما تشائين »

فالتفتت فلورندا الى اجيلا وقالت : « سر فى حراسة المولى ،

ومتى رجعت تعال الى دير الجبل الذى سمعت خبره ، واذا استطعت معرفة خبر الأمير الفونس فانك أحصف من أن أوصيك بالذى ينبغى أن تفعله »

فانشرح صدر اجيالا لهذا الاطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق ، أما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله وأوغلوا بين التلال والجبال ، ودليلهم العجوز وهى تسير أمامهم كأنها تلتمس منزلا تذهب اليه كل يوم

قضوا عدة ساعات لم يلتقوا فى أثناءها بعابر ولا جالس ، وأكثر التلال التى قطعوها جرداء الا ما كان على جوانب الأودية من شجر ملتف مهمل قلما امتدت اليه يد الانسان ، وكانت الأمطار قد أغرقتها فى الليل الماضى وتخللتها السيول .. فلما صحا الجو فى ذلك الصباح وأشرقت الشمس ساد الدفء .. على أن وعورة الطريق أتعبتهم وخصوصا فلورندا ، وهى لم تتعود هذه المشاق ، ناهيك بما فى قلبها من لواعج الحب وما ينتابها من الهواجس والأشواق ..

قضوا معظم النهار فى المسير وباتوا وشاتتيل حارسهم وعونهم فى كل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، ومشوا معظم اليوم التالى ولا حديث لهم الا تكرار ما فات ، حتى اذا مالت الشمس نحو الأصيل وصلوا الى سفح جبل أطلوا منه على بناء شامخ أشبه بالحصون منه بالأديرة .. فلما شاهدته العجوز صاحت : « هذا هو .. قد وصلنا ولكن لا بد لنا من الصعود .. »

قالت فلورندا : « فلنصعد » ولملت أثوابها مشمرة وهرولت اليه ، فعلت ذلك لشدة رغبتها في الوصول والاستراحة وارسال شاتتيلا لاستطلاع الأخبار من طليطلة عن مصير القونس وعن حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة ، وربما زادت مساحة العجوز وشاتتيلا بين يديهما حتى وصلوا الى الدير، فاذا هو في ساحة في سفح ذلك الجبل ، وهو بناء قديم العهد غريب الشكل حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة ، وربما زادت مساحة ذلك الدير على ثلاث قصبات أو أربع ، وشكله مربع طوله نحو خمسمائة قدم ، والسور عظيم الارتفاع ليس فيه من النوافذ سوى شقوق مستطيلة في أعلاه ، وباب واحد في أحد جوانبه ، والباب صغير جدا بالنسبة الى ضخامة ذلك السور يراه الناظر كالنقطة في الصفحة . وفي أعلى السور فوق ذلك الباب برج حصين كأنه قلعة وهو مكان للمراقبة يقيم فيه حارس الباب (١) ..

وقفت فلورندا وخالتها وشاتتيلا وهم يلهثون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير ، فلما استراحوا قال شاتتيلا : « هل تأذن مولاتي بأن أقرع الباب وأستأذن في الدخول ؟ »

قالت : « افعل .. »

فتقدم شاتتيلا حتى وقف بالباب ، فاذا هو مصفح بالحديد تصفيحا متينا ، وقد استدل على سمك ذلك الحديد من ضخامة رؤوس المسامير التي كانت بارزة فوق سطح الباب ، ولايزيد ارتفاع

(١) دائرة المعارف البريطانية

الباب على قامة الانسان الا قليلا .. فتفرس في جوانبه لعله يرى حلقة يدق بها فلم يجد شيئا ، ثم وقع بصره على حبل مرسل من ثقب في أعلى الباب نحو الخارج ، فأمسكه وشده فسمع جرسا يدق في الداخل فعلم انه قد أصاب ، ثم انتظر بعد الدق هنيهة فرأى رأسا أطل من نافذة صغيرة في البرج المذكور ، وقد كساه شعر ناصع البياض حتى لم يظهر من وجهه الا أنف بارز، وعينان تتلألآن في غورين فوقهما حاجبان بارزان .. وفوق الحاجبين جبين أصبحت تجاعيده كالميازيب أو الأخاديد . أطل الشيخ برأسه ولبث برهة لا يتكلم ، فلم يصبر شاتتيلا على سكوته لعلمه بما أتم بفلورندا من التعب فصاح فيه : « أما من مأوى عندكم للمغرباء ولو الى حين ؟ »

وما أتم شاتتيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى ولم يبد جوابا ، ولم تمض برهة حتى سمعوا قلقة مفتاح وراء الباب توسموا منها قرب الفرج .. وطال زمن القلقة ثم سمعوا صريرا فتدانوا الى الباب يتوقعون فتحه ، فاذا هو لا يزال مغلقا فلبثوا ينتظرون ، فعادت القلقة ثم سمعوا الصرير ولم يفتح شيء فملوا الانتظار وخشوا أن يكون وراء ذلك ما يوجب الخوف ولا سيما فلورندا ، فانها كانت واقفة وبصرها مثبتت على ذلك الباب ..

وأما العجوز فقد كانت جالسة على حجر وقد ذبلت عيناها من أثر التعب من مسير ذلك اليوم حتى كادت تنام ، واذا بصرير

عنيف استرعى اتباعها .. فنظرت فرأت الباب يفتح بتأقل كأن فاتحه يجر ثقلا كبيرا . فظلت فلورندا في مكانها وتقدم شاتتيلا نحو الباب ، فاستقبله ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان في أبسط أحواله ، وهو رداء أشبه شيء بالعباءة يستر بدنه الى الركبة ، وساقاه عاريتان ، وقدماه حافيتان ، وقد أصبح اخمصاهما كالنعال لطول ما مرَّ بهما من مصادمة الأحجار والاحتكاك بجذوع الأشجار . خرج الشيخ الراهب ويده عكاز أعقف الطرف قبض على عقفته بأنامل كأنها عظام عارية ، وقد تصلبت مفاصلها وتأت من أعلى الكف ، حتى أصبح بسط تلك الكف مستحيلا .. وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز ، وما زالت قابضة عليه حتى تصلبت وهي متقبضة

وكانت تلك العباءة قصيرة الأكمام ، وقد ظهر كوع الراهب وقد خشن جلده حتى لتحسبه اذا نظرت اليه كأنه اخمص القدم ، وكان الشيخ قضى عمره يدب على اخمصيه وكوعيه

- ٦١ -

فترة انتظار

أطل الشيخ عليهما وظل واقفا بالباب ، فأسرع الجميع اليه وأولهم شاتتيلا فانه نزع قبعته عن رأسه وهنم بيد ذلك الشيخ فقبَّلها وفعلت ذلك فلورندا وخالتها

٢٢٩

فقال الراهب الشيخ ، وفي نغمات صوته خشونة البرية :
« ما الذى جاء بكم الى هذا المكان ؟ »
فقال شاتتيلا : « جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير
فهل هناك ما يمنع ؟ .. »
قال : « كلا ، ولكن هذا الدير قسمان : قسم للرهبان ،
وقسم للراهبات ، فأيهما تريدون ؟ »
قال شاتتيلا : « كما تشاءون ... »
قال : « وعلى كل حال فان ذلك يرجع الى رأى الرئيس
العام .. »

ثم اتجه الى الداخل وأشار اليهم أن يتبعوه .. فدخلوا في
أثره ، فاذا بالباب يؤدي الى دهليز قصير فيه بابان آخران
مصفحان بالحديد مثله . وانتهيا من الدهليز الى فناء واسع سقفه
القبة الزرقاء . ولم يطأوا الفناء حتى سمعوا الأبواب تغلق ،
ونظروا الى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع ،
وهم في باحة مرصوفة بالحجارة الصلبة أو لعلها من صخر الجبل
نفسه ، وأحست فلورندا كأنها في سجن حصين

فمشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار.. فأنتهى الى باب
يلى الجدار الذى دخلوا منه ففتحه وأدخلهم فيه ، فاذا هي غرفة
تؤدي الى عدة غرف .. فأشار الراهب الى الغرفة ، وقال : « هذه
دار الضيافة فأقيموا فيها ريثما أقابل حضرة الرئيس وأخبره
بأمركم ، وما يأمر به يكون » قال ذلك وتحوّل يريد الخروج ،

فسمعوا جرسا يدق ورأوا الراهب حين سمع دقات الجرس يلقي
العكاز من يده ويرسم اشارة الصليب ، ويقف باحترام ، ففعل
الجميع مثل ما فعل دون أن يدركوا السر في ذلك
على أن الراهب ما لبث أن التفت اليهم وهو يقول : « لاسبيل
لنا الى مخاطبة الرئيس الآن لأن الصلاة قد آن أوانها ، وقد
نزل الجميع الى الكنيسة ، وأنا أيضا سأذهب .. وبعد الصلاة
نرى ماذا يكون »

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت
ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة أيام ، وكيف أنقذها الله بها .
فتقدمت الى الراهب وهي تخاطبه بلسانها العذب وصوتها الرخيم :
« ألا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدي ؟ .. »
قال : « الصلاة لا تحجب عن مسيحي ، والكنيسة لا تغلق
أبوابها في وجه أحد .. »

فمشى الراهب أمامهم وهم يتبعونه في وسط تلك الباحة ، حتى
اتتهوا في صدرها الى باب كبير ، وقبل الوصول اليه اشتموا
رائحة البخور ، فعلموا انه باب الكنيسة .. فدخلوا منه في اثر
الراهب فأطلوا على مذبح في صدره ، وقد قسم صحن الكنيسة
الى شطرين : شطر للراهبات ، وشرط للرهبان ، فهداهم الراهب
الى مكان وقفوا فيه لاستماع القداس ، وكان أكثرهم تخشعا
فلورندا . فكم قرعت صدرها ، وكم توسلت الى الله ، والى
السيد المسيح أن ينجى خطيئها من المهالك ويعيده اليها سالما

فلما انقضت الصلاة تفرق الجمع.. فخرجت الراهبات من باب ،
وخرج الرهبان من باب آخر .. وعاد الراهب العجوز بفلورندا
وصاحبها نحو دار الضيافة .. ولاحظ ، وهم خارجون ، ان
فلورندا أخرجت من جيبتها نقودا وضعتها أسفل الأيقونة التي
كانت تصلى أمامها ، ورأى النقود صفراء لامعة ، فاستدل من
ذلك على أن الضيوف من أهل الثراء ، وربما تبرعوا بمال كثير
لصندوق الدير ، فرافقهم الى دار الضيافة ، وهروا راجعا وهو
يتوكأ على عصاه حتى وصل الى الرئيس ، وقصص عليه ما كان من
مقدم هؤلاء الغرباء الى أن قال : « ويبدو من مظهرهم ولهجتهم
انهم من أهل طليطلة ، ويؤيد ذلك ما رأيته من كرمهم ، فهل تأذن
لهم بالمشول بين يديك ؟ .. »

فقال الرئيس : « بل أرى أن أذهب أنا اليهم »
قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط أيضا ، ولكنه أرقى حالا
من رداء الراهب البواب ، وهو عبارة عن عباءة أطول قليلا من
تلك ، وقد تمنطق عليها بحبل واحتذى نعلا من خشب وعلى
رأسه شبه قبة سوداء .. وكان الرئيس كهلا بدينا ربع القامة ،
حسن الطلعة ، صحيح الجسم ، نير البصيرة ، وكان كثير المطالعة
والبحث ، فصيح اللسان . ذلك ما رفعه الى درجة الرئاسة وهو
كهل ، وتحت سيطرته عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل
راهبنا العجوز . والرقى في رتب الكهنوت يغلب أن يكون عن
أهلية ، اذ لا تأثير هناك لدالة القرابة أو نفوذ العصبية ، والكل

سواء في الاغتراب والاعتزال لا يتفاضلون بميراث ولا بصنيعة ،
ولكل منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه وكفايته .. فاذا ارتقى
راهب الى الرئاسة أو نحوها في سن مبكرة ، كان ذلك دليلا على
تفوقه على رفاقه فيما يؤهله الى تلك الرتبة . ويغلب في هذه
الأحوال أن يكون السابق محسودا أو مكروها . أما رئيس دير
الجل فقد كان على العكس من ذلك لما فطر عليه من اللطف
والدعة وكرم الخلق، بدليل انه لما سئل عن مجيء أولئك الضيوف
اليه فضّل أن يذهب هو اليهم بنفسه تلطفا منه وتواضعا
وكانت فلورندا حين عادت من الكنيسة جالسة على مقعد في
احدى غرف الضيافة ، وقد هاجت أشجانها وتنبه ذهنها للتفكير
في ألفونس ، فاستغرقت في الهواجس ، والعجوز الى جانبها
صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب . وشاتتيلا
واقف بجوار الباب ينتظر عودة الراهب ، وكانت الشمس قد
أشرفت على المغيب .. ولمغيب الشمس في الجبال هيبة ورهبة ،
ولا سيما حيث يقل الناس ..

- ٦٢ -

حديث مع الرئيس

لم تمض برهة حتى أقبل الرئيس ويده رق كان يطالع فيه
حين حدثه الراهب . فلما رآه شاتتيلا تأدب في وقفته ، وقد

توسّم فيه رجلا يعرفه أو انه يشبه رجلا يعرفه.. على انه لم يكن يستطيع التفكير طويلا في تلك الفرصة الضيقة . فلما دنا الرئيس من دار الضيافة أشار شاتتيلا الى فلورندا أنه قد أتى ، وتقدم هو حتى جثا بين يديه وتناول أنامله فقبّلها ، والرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذلك المجد الباطل . ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقباله وجثت وقبّلت يده وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جاري العادة فيمن يتأدّب من الرهبان .. على انها حين جلست بين يديه تذكر أنه رآها قبل الآن فقال لها : « لعل هذه السيدة والدتك ؟ »

قالت : « كلا يامولاي ، بل هي خالتي .. » قالت ذلك واستعازت بالله من تلك الأسئلة ، وخشيت أن يسألها عن اسمها ونسبها ، ولا مندوحة لها عن الجواب الصريح لأنها تكره الكذب كرها شديدا . وودت لو يوجه الرئيس أسئلته الى شاتتيلا لأنه أقدر منها على التخلص من الصدق الصريح . على أنها تذكرت ما للناس من الثقة في جماعة الكهنة ، فهم يعلنون لهم أسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيما ، فهان عليها الأمر وعزمت على أن تجعل حديثها مع الرئيس من باب الاعتراف اذا رأت ما يدعو الى ذلك ..

مرت كل هذه الخواطر في ذهنها في لحظة ، فلما سألها الرئيس السؤال الثاني كانت قد تهيأت للجواب فقال لها : « ومن أين أتم قادمون ؟ .. »

فالتفت فلورندا اليه وقالت : « اذا أذن لى حضرة السيد ،
تجاسرت بعبارة أرجو أن لا تثقل عليه .. »
قال : « كلا ، قولى .. »

قالت : « اذا لم يكن لسيادتكم بثد من الاستفهام عن كل
ما يتعلق بنا ، فانى أرجو أن تجعل ذلك على سبيل الاعتراف ،
لأن فى قصتنا سرا لا يمكن التصريح به لأحد الا عن هذا
السبيل .. »

فحنى الرئيس رأسه مطيعا وقال : « لايهمنى البحث عن
أحوالكم الا لأتنى أرجو أن أتمكن من خدمتكم فى شيء ، فأنتم
مخيرون فى الكلام أو السكوت ، وعلى كل حال فانكم ضيوف
مكرمون... »

فقالت فلورندا وقد أعجبت بلطف الرئيس : « نشكرك ، ولا
تقبل مع ذلك الا اطلعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف .
ومكاشفة أمثالك بالأسرار فرج ورحمة .. فهل نغلق الباب ؟ »
وكان شائتيلا قد سمع شيئا من كلام فلورندا فابتعد عن الباب
فخف الرئيس بنفسه الى الباب كأنه يهيم باغلاقه ، ولكنه أشار
الى العجوز ولسان حاله يقول : « وهل تبقى هذه المرأة لسماع
الاعتراف ؟ » ..

فأدركت فلورندا قصده فقالت : « ان هذه الخالة مستودع
أسرارى فلا بأس من بقائها .. »
فأغلق الرئيس الباب فأظلم المكان فعاد ففتحه وصفق ، فجاء

راهب ويده مصباح مضىء بالزيت ، فوضعه على مسرجة في الحائط وانصرف . فأغلق الرئيس الباب وجلس وأصاخ بسمعه لما تريد فلورندا أن تقصه عليه ، ولم تكذب تبتدا بالحديث حتى اهتم بالوقوف على بقية الحديث وان لم تكن قد صرحت له بكل شيء ، وانما قالت له : « نحن من طليطلة وقد خرجنا للتخلص من أناس أرادوا اغتيالنا فلم نجد وسيلة للنجاة غير الفرار » .. فقال الرئيس : « ولماذا لم تلجأوا الى جلالة الملك فانه المكلف بنصرة المظلومين ؟ »

فلم تدر فلورندا بماذا تجيب ، وأدرك الرئيس ازتباكا فتوسم شيئا أحب أن يقف على حقيقته ، فقال : « يظهر أن الملك أيضا من جملة من تخافون ؟ .. »

فتصدت العجوز للجواب وقالت : « نعم ، ولماذا الكتمان .. بل كان خوفنا من الملك نفسه » ..

فبغيت فلورندا لهذا التصريح ، ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سر الاعتراف وهو مقدس لا يباح به . ولحظ الرئيس بغتها ، فقال لها : « ومن هو الرجل الذي جاء معكما ؟ .. »

قالت فلورندا : « هو من أتباع بعض أهلنا .. » فابتسم الرئيس وقال : « أليس هو من أتباع الأمير ألفونس ؟ .. »

فلما سمعت فلورندا ذكر ألفونس تصاعد الدم الى وجهها حتى كادت تختنق ، وتلعثم لسانها والتفتت الى خالتها كأنها تتوقع

مخرجاً من عندها ، فاذا بالعجوز تقول : « بلى يا مولاي انه من
خدم الأمير الفونس بن غيطشة ملك الأسبان السابق .. وهل
تعرفه ؟ » ..

فتحول الرئيس من الابتسام الى الانقباض ، ولم يستطع
التوقف عن الجواب فقال : « نعم أعرف غيطشة وأعرف أولاده
وكل أهله .. ومَن مِن كهنة اسبانيا لا يعرف أخاه الميتروبوليت
أوباس .. ومن لم يستفد من عظاته أو قدوته أو حكمته أو درايته ،
ذلك الرجل الذى لا أظن الزمان وجود بمثله ولكن ... »

فلما سمعت فلورندا اطراءه أوباس اطمأن بالها الى أن الرجل
ميّال الى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرها ، ولكنها
لاحظت منه أنه يحاذر أن يكشفها بما فى ضميره للسبب الذى
تخافه هى فى مكاشفته ، لولا الاعتراف ، فعزمت على استطلاع
حقيقة رأى الرجل وهى فى مأمن على ما تقوله فى ظل سر الاعتراف
فقالت : « ألا تدرى أين هو أوباس الآن ؟ .. » ..

قال : « كلا ، وأين هو ؟ .. »

قالت : « انه فى ظلمات السجن منذ يومين »

قال : « ومن ساقه الى السجن ؟ .. »

قالت : « ساقه الملك رودريك ، بعث الى بيته بكوكبة من

الفرسان فأخرجوه من فراشه .. »

فوقف الرئيس مذعورا وظهرت على وجهه امارات الغضب

وقال : « ساقوه الى السجن .. أمثل أوباس يسجن ..؟ قبّح الله

الجهل .. كيف تجرأوا على مس يده لغير التقبيل ، وكيف
خاطبوه بغير الاحترام والتبجيل ؟ . »
فتحققت فلورندا عند ذلك أن الرئيس من مؤيدى أوباس
وأهله ، فتاقت نفسها الى الاستنجاد به أو مشورته فى أمر
الفونس ، ولكنها استحييت فأطرقت ، فراحت خالتها تواصل
الحديث نيابة عنها قائلة : « والفونس .. هل .. تعرفه ؟ .. »
قال : « كيف لا وقد عرفته منذ طفولته ، وكثيرا ما كنا
نلتقى فى طليطلة أيام المواسم والأعياد على عهد المرحوم أبيه »
فوقفت العجوز ونظرت الى الرئيس نظرا المتفرس وقالت : « أما
وقد برح الخفاء فأخبرك أن الفتاة التى تراها بين يديك هى
خطيبة ألفونس ، وأراد ملك طليطلة أن يجرمه منها بالقوة فأرسله
فى مهمة الى أقصى بلاد الاسبان . فلما رأت عزمه وفهمت مراده
خرجت من قصره فرارا ، ثم علمنا ان رودريك ألقى القبض على
أوباس لأنه ساعد على انقاذها من بين مخالفه . هذه واقعة الحال
كما هى .. »

- ٦٣ -

مهمة جديدة

فتفرس الرئيس فى فلورندا وقال : « أليست هذه بنت يوليان
حاكم سبنة خطيبة الفونس ؟ .. انى أول الشاهدين على خطبتها

وقد كان أهلها يتحدثون بخطبتها الى ألفونس ، وهما طفلان ،
ثم خطبها ، وأوباس هو الذى سعى الى ذلك العقد ، فكيف يتجراً
رودريك على حلقه ..؟ »

فلما سمعت العجوز كلامه تذكرت أنها كانت تراه يتردد على
قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هذا اللباس فقالت :
« أألسـت الأبـ سرجيوس ؟ .. »

قال : « أنا سرجيوس وكنت كاهنا أتردد على طليطلة بالنيابة
عن هذا الدير ، فلما رأيت الدسائس تتعاظم ضد المرحوم غيطشة ،
ولم أجد سبيلاً الى نصرته أقمت فى هذا الدير حتى توليت
رؤاسته . ولو أطاعنى أوباس لأقمنا هنا معا فى أمن وسلام .. »
ثم التفت الرئيس الى فلورندا وقال لها : « كونى مطمئنة يا ابنتى
ان سرك محفوظ فى بئر عميقة ، واعلمى انى نصيرك ونصير أوباس
فى كل شىء .. سامحه الله ، كم قلت له دع طليطلة وتعال الى هذا
الدير نعبد الله فيه ونبتعد عن دسائس العالم وشرور أهل المطامع ،
وعندنا من المؤونة والأموال ما يكفيننا طول العمر ، فأبى الا
البقاء هناك . وأظنه بقى لرعاية أبناء أخيه ولا سيما ألفونس ، ثم
أطرق وهز رأسه وقال : « أفأوباس فى السجن الآن ؟ .. »

قالت فلورندا : « علمنا أنهم ساقوه الى السجن ولا ندرى
أسجنوه أم قتلوه ؟ وكان فى عزمنا بعد نزولنا فى هذا الدير أن
نبعث هذا الشاب الى طليطلة كى يحاول أن يعرف الحقيقة ثم
يعود إلينا بالأبناء الصحيحة .. »

فقطع الرئيس كلامها قائلاً : « لا .. لا يصلح هذا لذلك لأنهم يعرفونه ويعرفون انه من أتباع الأمير الفونس أو الميتروبوليت أوباس ، وربما قبضوا عليه وسجنوه أو قتلوه . دعوا ذلك الذى فقد أصبح البحث فى هذا الأمر من واجباتى .. كونوا فى راحة حتى تأتيكم الأخبار صاغرة » قال ذلك ونهض وهو يقول : « وقد آن لكم أن تستريحوا من عناء السفر ، واعلموا أن الدير ومن فيه تحت اشارتكم ، لأننا جميعا صنيعا الملك غيطشة ، ونحن وقف على خدمة ابنه وكل من يلوذ به ، فهل تقيمون فى شطر الدير الخاص بالراهبات ويبقى خادمكم شاتتيلا فى هذا القسم ، أم تفضلون البقاء معا فى هذه الدار ، ولا يدخل اليها أحد سواكم .. ؟ »

فنهضت فلورندا ، وقد أحست بحمل ثقيل يزاح عنها .. وشكرت الله لأنه استجاب لصلواتها ، وعلقت آمالها بقرب الفرج فأثنت على الرئيس سرجيوس وقبّلت يده واستشارت خالتها فى الإقامة فقالت : « أرى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشاتتيلا معنا حتى نرى ماذا يكون »

فقال الرئيس : « ذلك لكم .. » ثم خرج وكان الليل قد أسدل نقابه ، وأوقد الرهبان نيرانا فى بعض جوانب تلك الباحة للدفع والانارة . وكان شاتتيلا قد اختلط بالرهبان وهم يسألونه عن أحواله ولا يسمعون منه جوابا مفيدا . فلما خرج الرئيس من دار الضيافة سكنت البوغاء وتشاغل الرهبان بأعداد الطعام ،

وبعث الرئيس الى قيّم الدير وأمره بأن يعد للضيوف ما يحتاجون
اليه من الطعام وسائر لوازم الراحة

صعد الرئيس الى غرفته وهو يشعر بالضيق مما سمع عن
أوباس لأنه كان يحترمه ويحبه ويفار عليه ، شأن كل من يعرف
أوباس لما فيه من تعقل ورزاقه وإباء .. فأخذ يفكر في سبيل الى
انقاذه . ثم تذكر انه ليس على يقين من حقيقة حاله ، فعّول على
أن يتولى البحث عن ذلك بنفسه . وكان سرجيوس بعيدا عن هذه
الأحداث لأنه لم يذهب منذ زمن الى طليطلة ، ولا في عيد الميلاد
لحضور القداس الأعظم وتهنئة الملك لشواغل خاصة اقتضت
تخلّفه ، ولعله لم يكن يتخلف لو لم يكن هو ميالا الى الابتعاد
عن الملك وحاشيته لما في نفسه من النعمة لغيطة ، فقد كان
حاضرا في المجمع الذي دبر استبدال رودريك به ، ولم يكن هذا
الاستبدال من رأيه ، ولكنهم غلبوه على أمره بالأكثرية ، ثم
أصبح يخشى التظاهر بما يعتقد لئلا يناله غضب الملك ، ولم يكن
يحتمل مشاهدة ما يغير اعتقاده ، فجعل سفره الى طليطلة نادرا ..
فلما أقبل عيد الميلاد الأخير تعلل بما يمنعه عن الذهاب فلم ير شيئا
مما حدث لأوباس ، ولو كان هناك لشهد محاكمته وسمع حجته ..
وان كان حضوره لا ينفع أوباس شيئا لأنه لا يستطيع التغلب
على حزب الملك وهم الأغلبية

فخطر لسرجيوس أن يذهب الى طليطلة بنفسه فيعتذر للملك
عن تخلفه في العيد ، ولكنه خشى أن يتهمة أو يشك في سبب

مجيئه ، وأول من يثير شكوكه هو الأب مرتين ، لأنه لا يفعل عن مثل ذلك . فرأى تأجيل الزيارة الى يوم رأس السنة فيذهب لتهنئة الملك بالعيدين ، ولا يكون ثمة ما يدعو الملك الى الشك في سبب مجيئه .. ولكنه لم يكن ليصبر عن استطلاع حال أوباس طول هذه المدة ، فعوّل على ارسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير أن يشاهد أوباس أو يسمع كلامه .. قضى سرجيوس معظم الليل يضطرب في مثل هذه الهواجس

- ٦٤ -

غرفة الرئيس

رَقَلما أصبح بعث الى فلورندا ، وكانت قد باتت تلك الليلة في راحة على أثر ما قاسته من تعب في البدن واضطراب في العواطف ، وبخاصة بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس ما آنسته من مشاركة لشعورها وعزم على مساعدتها .. وأفافت في الصباح على صوت الناقوس ، فنهضت وأخذت تهتم بالذهاب الى الكنيسة.. وبينما هي في ذلك سمعت وقع أقدام بجانب غرفتها تخالف ما تعلمه من وقع خطوات شاتتيل . ثم سمعت قرعا على الباب ، فنهضت خالتها وفتحته ، فرأت راهبا لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال : « ان حضرة الرئيس يدعوكما اليه .. » فمضتا والراهب يسير أمامهما وفلورندا تقول في نفسها : « لم

تنقض أيام شقائي بعد .. يبدو أن الرئيس قد غير عزمه على مساعدنى ..

وتقدمهما الراهب فى تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات سلم صعدوا عليها الى حجرة طرق الراهب بابها ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول ، ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا ، فاذا هما فى غرفة بسيطة الأثاث حسنة الترتيب .. على جدرانها أنواع من صور القديسين مختلفة الأشكال والأحجام ، وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصورى رومية تمثل أهم حوادث الانجيل ، مثل ولادة المسيح فى بيت لحم ، وعماده فى النهر ، وصلبه وصعوده الى السماء . فلما أجالت فلورندا بصرها فى الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر ، وتأثرت لها تأثرا عظيما لما فطرت عليه من التقوى ، وقد زادت المصائب تمسكا بحبل الدين فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة ، فخفف الرئيس لاستقبالها ودعاها للجلوس ، فلم تنس قبل الجلوس أن تقبل أيقونة للمسيح المصلوب كانت قريبة منها ، ثم جلست فابتدتها الرئيس قائلا : « لم يبق بيننا حجاب وقد اطلع كل منا على أسرار الآخر فلنبسط الكلام صريحا . وعدتك يا فلورندا أن أستطلع حال أوباس ، وكنت على عزم أن أتولى ذلك بنفسى ، ثم خطر لى أن ذهابى الى طليطلة اليوم بعد أن تخلتفت عن حفلة العيد يدعو الى الشك ، وربما أدى الى عرقلة مساعينا ، فرأيت أن أوجل ذهابى الى رأس السنة وهو

قريب ، فما قولك ؟ .. »

فخفق قلب فلورندا ، وعدت ذلك التأجيل فاتحة للعراقيل ،
وبدا أثر ذلك في وجهها .. ولم يخف اضطرابها على الرئيس ،
فاستأنف الكلام قائلاً : « ولكننى سأرسل أحد الرهبان اليوم
ليتفقد الحالة من حاشية رودريك ، فإذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك
على تدبير الوسائل قبل ذهابى الى طليطلة .. »

فاطمأن بال فلورندا واكتفت بانتداب الراهب وأرادت أن تبين
له ما تود الاطلاع عليه من أمر ألفونس فضلاً عن أوباس ، ثم
هى تريد أن تعرف رأى رودريك فى فرارها ، وهل يتفانى فى
البحث عنها ، ولكن الحياء منعها من الكلام فى هذا الشأن صراحة
فقالت : « اذا كان الراهب الذى ستنتدبه ذكياً وجاءنا بالخبر
اليقين كان ذلك خيراً من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شيء »

فقال الرئيس : « فلنبحث فيما يطلب الاطلاع عليه .. »
فقالت العجوز : « لا أخفى عن مولاي — الرئيس المحترم —
ان أهم النقط التى يتطلب البحث عنها انما هى أوباس وحاله ،
ثم يهمنى الاطلاع على رأى رودريك فى فرارنا لأننا هربنا من
قصره رغم أنفه .. ثم نحب الاطلاع على المكان الذى بعث اليه
الأمير الفونس »

قال : « فهمت المطلوب وسأوصى الرسول به ونظنه يعود
الينا بالخبر اليقين .. »

فنهضت فلورندا وقبّلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز ،

واستأذنتا في الذهاب ، رغبة في تفرغ سرجيوس لقضاء تلك المهمة .. فأذن لهما فانصرفتا ..

أما هو فانه صفق فجاءه الراهب الذي يتولى خدمته فأمره ان يستدعى راهبا سماه ، فجاءه ذلك الراهب ، وكان له به ثقة كبرى . وكثيرا ما كان يكشفه برأيه في رودريك ، فأوصاه بما يطلب الاطلاع عليه ، واستحثه على ان يسرع في العودة

- ٦٥ -

حقيقة الحال

سافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها الخرج ، كأنه منصرف الى المدينة على نية شراء ما يحتاج اليه أهل الدير من الأدوات والأمتعة . وكانت عادة ذلك الدير أن يرسل رسولا لمثل هذا الشأن مرتين أو ثلاث مرات كل سنة ، والغالب ان يكون ذلك في الصيف لأنهم يفضلون عدم الخروج في الشتاء كما يفعل سائر أهل الجبال ... على ان ذلك لم يكن ليمنع سفرهم الى المدن في هذا الفصل في بعض الأحيان

قضى رسول الدير في مهمته خمسة أيام عاد بعدها ، وكانت فلورندا قد ملت الانتظار وحسبت تلك الأيام أجبالا . وكانت في أثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتिला الى سطح الدير تشرف منه على الأودية والتلال لعلها تجد الرسول عائدا .

واتفق ان كان الجو صحوا صافيا كل تلك المدة ، فكانوا اذا جلسوا على السطح أطلوا على جبال أكثرها عار من النبات الأخضر وبعض رؤوسها وكهوفها مكسوة بالثلج ، وكانوا يشاهدون الضباب في كل صباح يغشى الأودية ، يحسبه الناظر بحرا تتلاطم أمواجه ويحسب ما يبرز في وسطه من قمم الجبال جزرا يفصل الماء بينها . فاذا ارتفعت درجة حرارة الجو قبل الظهر عاد الضباب بخارا وعادت تلك الجزر جبالا . فكانت فلورندا تعلق نفسها في اثناء انتشار الضباب ان يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها

وكانت تستأنس بذلك الشيخ الهرم بواب الدير لأن غرفته أو برجه يؤدي الى السطح ، فيخرج في بعض الأحيان فيجالسها ويقص عليها ما مرَّ به من الغرائب في اثناء عمره الطويل ، وهي ترتاح الى سماع حديثه لأنه على شيخوخته لم يكن يكتر من الكلام الذي لا يلذ للسامعين ولو كانوا شبابا

ففي أصيل اليوم الخامس رأت وهي على السطح راكبا أطل من بين أكمتين ، وحدقت في القادم فاذا هو الراهب ، فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة : « هاهو قد أتى.. فلنمض الى الرئيس لنسمع حديثه » ..

قالت : « هلم بنا اليه » وتحولتا نحو غرفة الرئيس ، وكان جالسا ببابها يطالع في درج باللغة اللاتينية . فلما رأى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحب بهما ، فقرأ على محيا فلورندا

امارات الدهشة والقلق فأدرك انها تكتم شيئا فقال لها : « خيرا يا بنية .. ما الذى حدث ؟ »

قالت : « أرى رسولك قد قدم فاستدعه لنسمع حديثه .. »
قال : « وهل أتى ..؟ انى أشد قلقا منك فى انتظاره ولا أقلب هذه الكتب الا تعللا وتشاغلا » ونهض لساعته وأوصى خادمه بأن يسرع فى استقدام الرسول . قهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول فى اثره وهو لا يزال بملابس السفر .. فلما وصل سلم وبارك وجلس ، فقال له الرئيس : « قص علينا ما رأيته على عجل ، وابدأ بأوباس .. »

قال الراهب : « أما حضرة الميتروبوليت فانه مسجون فى حجرة على حدة .. »

قال : « وما سبب سجنه ؟ »

قال الراهب : « اتهموه بالتآمر على خلع الملك وحاكموه فى مجمع الأساقفة »

فقطع الرئيس كلامه قائلا : « وكيف ذلك ولم نسمع باجتماع ذلك المجمع ؟ .. »

قال : « فعلوا ذلك فى عجلة ، فألف الملك مجعنا من الأساقفة الذين كانوا فى طليطلة يوم العيد .. »

قال الرئيس : « وماذا كانت نتيجة المحاكمة ؟ .. »

قال : « لا أدري ، ولكننى سمعت ان الميتروبوليت ابدى من البسالة والحمية فى أثناء المحاكمة ما أفحم به خصومه .. »

وكانت فلورندا ترفف السمع لقول الراهب ، وتود ان تصل الى خبر الفونس

فقال الرئيس : « وهل تظن ان تلك التهمة صحيحة ؟ »

قال الرسول : « هل اقول كل ما سمعته .. ؟ »

فقال الرئيس : « نعم قل .. »

قال الرسول : « بلغنى من أهل القصر الملكى ان لمحاكمة

الميتروبوليت اوباس سيبا سريا ، لم يطلع عليه الا قليلون .. »

فقال الرئيس : « وما ذلك .. ؟ »

فقال الرسول : « بلغنى ان الأمير الفونس كان خاطبا فتاة

من أهل القصر الملكى، وان رودريك زاحمه عليها وأرادها لنفسه

فوبخه اوباس على ذلك ، فغضب عليه وأراد الانتقام منه .. »

فقال الرئيس : « وماذا تم بالفونس وخطيئته ؟ »

قال : « اما الفونس فقد أرسله الملك فى مهمة حربية الى بلد

بعيد ليخلو له الجو بعده ، فكان ذلك سببا لتدخل اوباس . أما

الخطيبة فقد بلغنى انها فرت من طليطلة والناس يستغربون

فرارها من القصر الذى كانت فيه والحراس من حوله .. وأما

الملك فقد اشتد غضبه على تلك الفتاة وعول على الانتقام منها

حين يظفر بها »

فقالت العجوز : « وكيف يظفر بها ، وأين هى .. ؟ »

ولا نظن ان الراهب لم يلحظ من قرائن الأحوال ان تلك

الفتاة هى الخطيبة التى فرت ، ولكنه تجاهل الأمر مجازاة لما

آرادته الرئيس فقال : « أكد لي بعض العارفين ان الملك سد عليها الطرق وأقام الأرصاد وبث العيون في كل أنحاء المملكة ، ولا يكاد يمر يوم من غير أن يحملوا الى قصره فتاة أو فتيات ممن يعثرون عليهن في اثناء التفتيش ، فاذا وقع بصره عليهن اطلق سراحهن لأنهن غير تلك الفتاة » ..

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لأول وهلة ، ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير في كنف ذلك الرئيس المحب ، وعولت على البقاء هناك حتى يعود اجيالا من عند والدها . ولكنها أحبت السؤال عن مقر الفونس فأومأت الى خالتها ان تسأل عنه فقالت : « وهل عرفت المكان الذي ذهب اليه الأمير الفونس ؟ .. »

قال : « لم أستطع الوقوف عليه صريحا ، ولكنني سمعت ان الملك انفذه مع فرقة من الجند الى استجة . ولم أتحقق تماما لأنى لم أدقق في البحث عنه .. »

فأوما الرئيس الى فلورندا ان تكتفى بما تقدم ريثما يتاح له الذهاب الى طليطلة والبحث عن كل ذلك . فسكتت ثم وقف الرئيس وصلى صلاة وجيزة ، فلما فرغ انصرفت فلورندا وهي غارقة في لجج التأمل لما سمعته عن اوباس وسجنه وعن اندفاع رودريك في البحث عنها ، فلم تر لها مندوحة عن البقاء مستترة في ذلك الدير لترى ما يأتى به القدر ، على انها عللت نفسها بالاطلاع على تفاصيل أخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة ..

ولكن الطبيعة أبت الا معاكستها فتغير الطقس وتوالت الأمطار
وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة
فمنعت الرئيس من السفر أياما عديدة ، وهو على مثل الجمر ،
فكيف بفلورنذا والجمر يتقد في قلبها وفي رأسها .. وخصوصا
بعد أن مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع اجيلا من مهمته الى
والدها فزاد اضطرابها وتضاعف قلقها ، وانقبضت نفسها حتى
تصورت ان الدنيا قد سدت في وجهها ... فقد فقدت خطيها
وابتعدت عن والدها ، وسجن نصيرها وأصبحت طريدة شريفة
ثم سيقنت الى ذلك الدير ، فأقامت فيه قيام المجرمين في السجون .
وما كادت تفرح بعطف ذلك الرئيس حتى حالت الطبيعة دون
خروجه ، واقامت بينه وبين طليطلة سدودا من الثلج . ولكنها
كانت اذا تراكت عليها الهموم وغشت بصيرتها السويداء لجأت
الى الصلاة ، فاذا صلت انفرجت كربتتها وعادت اليها آمالها .
فاذا فرغت من الصلاة وكان الطقس صحوا ، صعدت الى السطح
مع خالتها تتطلع الى الطرق البعيدة لعلها ترى شبحا قادما تتوسم
في مقدمه فرجا . ولكنها لم تكن ترى سوى جبال من الثلج
تنتهى لدى باب الدير ، ولولا انشغال الرهبان بجرفه في كل
صباح لغاب كله فيه

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها ويعددها خيرا ويرىها ابواب
الفرج ، ومرجع كلامه الى ثقته الكبرى بتعقل اوباس وحسن
درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب . ولم تكن هي اقل

منه اعجابا به لأنها شبت وهى لا تسمع حديثا عن اوباس الا مشفوعا بعبارات الاطراء والتبجيل حتى خيل لها انه قادر على كل شئ .. ولم تصدق ان أحدا يستطيع أن يصيبه بأذى أو أن يتغلب على رأيه . وكان سرجيوس يفكر فى طريقة لاجراج اوباس من السجن ، فاذا خرج جاء به الى الدير ليقيم بسلام وسكينة . ولكنه لم يهتد الى سبيل امين بعد ان بلغه من تشديد الملك فى الاحتفاظ به والسهر على حراسته

- ٦٦ -

الثلوج والرسول

وأفاقت فلورندا فى صباح يوم من أواخر فبراير على هبوب العواصف وهطول المطر وأكثره من الثلج أو البرد .. واشتدت الأنواء والرعود والبروق نحو ساعتين .. ثم انقطع المطر ، وسكنت الرياح بغتة - وذلك ما يحدث فى هذا الشهر فى البلاد المعتدلة ، فان الجو يتقلب فى اليوم الواحد من أيامه تقلبات شتى بين صحو ومطر ونوء وصفاء - فلما توقعت الأمطار وأطلت فلورندا من باب الغرفة ، فاذا بفناء الدير قد غمرته الثلوج حتى باب غرفتها ، ومع ذلك فالشمس قد أشرقت على ذلك الثلج ، فتكسرت أشعتها عليه وانحل النور فى بعض الأخاديد ، فبدا الطيف الشمسى بألوان قوس قزح . فوقفت فلورندا وهى تتأمل

ذلك المنظر الجميل ، ثم ما لبثت ان رأت الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفي أيديهم المجارف والمعاول ، واخذوا في جرف الثلج وحمله الى الخارج ، فأعجب فلورندا ذلك المنظر واحست بانبساط نفس لم تشعر بمثله منذ أشهر - والانسان اذا امطرت السماء ثم صحت وصفا جوها يشعر بانبساط وخاصة اذا سبق المطر ضباب متكاثف أو غيوم متلبدة . ولكن البرد يشتد في ساعة الصفاء عما كان عليه في ساعة الكدر - ولذلك فان فلورندا لم تطل الوقوف لدى ذلك الباب ، فدخلت والتفت بقبائها المبطن بالفرو وأحكمت الالتفاف به وعادت واذا بالراهب الشيخ ، حارس الباب ، مقبل وقد استبدل العكاز بمجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب ، وكان الى ذلك لايزال عارى الساقين والزندين ، واكتفى من وسائل الدفء بلف كوفية من الصوف حول صدغيه وأذنيه فلما رآته فلورندا على تلك الحال ، اعجبت بتأثير العادة على الانسان ، ولبثت واقفة تنظر الى شيخنا الراهب وغيره من الرهبان وهم يشتغلون وشاتتلا يشتغل معهم . فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة ، وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح أيضا . فلما فرغ الرهبان من العمل خرجت فلورندا وبربارة ، وقد أعجبها صفاء الجو واشراق الشمس ، وصعدتا الى السطح واطلتا على الجبال على سبيل الفرجة . ولم تقفا على السطح برهة حتى أثر الزمهرير في فلورندا ولم يغن القباء ولا الكساء شيئا .. ثم تغير وجه السماء بغثة وتكاثفت الغيوم وأوشكت السماء ان تمطر ،

فهمت فلورندا بالرجوع فرأت الشيخ الراهب لدى باب حجرته على السطح وهو يشير اليها أن تأتي اليه ، فتحولت وتبعته خالتها حتى أقبلتا على الغرفة ، فاذا هناك نار موقدة في اناء يشبه الموقد، فلما دخلت أحست بالدفء وشعرت بلذة غريبة .. فقال لها الراهب : « اجلسي يا بنية الى جانب المدفأة فان البرد شديد جدا اليوم » فجلست وخالتها الى جانبها ، وكان جلوسهما الى جانب النافذة ، وجلس الراهب أمام النار وأخذ يقص على ضيفتيه احاديث شبابه وكهولته على سبيل التسلية ، والحالة العجوز تشاركه في تحقيق بعض النقط وان كانت هي أصغر منه سنا وكانت فلورندا في اثناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحي الدير ولا يقع بصرها على غير الثلوج الا قليلا ، والراهب والحالة مشغولان في الاحاديث ، وهما يحسبان ان فلورندا مصغية لما يقولان ، ثم وجهت الحالة الكلام الى فلورندا وتوقعت الجواب ، فرأت فلورندا في شغل عنها لأنها تنفرس في شيء وراء النافذة وقد ظهر الاهتمام على وجهها . فالتفت الحالة فاذا هناك دابة تمشي صاعدة نحو الدير وعليها راكب ، فأمعنت النظر فيه كأنها تعرفه ، فسمعت فلورندا تقول : « اجيلا ، اجيلا .. » فلما سمع الراهب قولها نظر الى القادم ، ولم يكن يعرفه فقال : « ومن هذا يابنية ؟ »

قالت : « هو رسول ارسلناه في مهمة وقد عاد الينا ، فهل تسرع في فتح الباب له حتى لا يضر به البرد ؟ »

فقال : « سمعا وطاعة » وتناول عكازه ونزل ، وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتتحققا من الأمر ، فاذا هو اجيلا بعينه على جواد .. ولما دنا من الدير وقف الجواد واجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكا شديدا . فلما رآته فلورندا يضحك استبشرت وانبسبت نفسها ، ثم نادته قائلة : « اجيلا ... » فلم تسمع جوابا وكأنها لا تخاطب احدا ، فظنت ان هبوب الريح قد اضاع صوتها قبل وصوله اليه ، ثم رأت الراهب الشيخ قد خرج من الدير حتى اذا أقبل عليه شهر عكازه واخذ يضربه ضربا عنيفا واجيلا لا يتحرك ، والراهب يزداد عنفا في الضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الآخرين ، فخرج اثنان منهم وفي يد كل منهما عصا غليظة ، فأمسك احدهما بزمام الفرس وعمل الآخر على ضرب الراكب حيثما اتفق وهو ساكت ، فاستغربت فلورندا ذلك وتولتها الدهشة لما رآته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه ، فجعلت تصيح بالرهبان تستمهلهم وتستفهم عن سبب تعديهم وهم لا يبالون بكلامها ، فغضبت وتحولت من تلك الغرفة تريد غرفة الرئيس لتشكو اليه قسوة رهبانه ، وسارت الحالة في اثرها حتى اذا نزلتا الى باحة الدير قالت فلورندا لخالتها : « اذهبي أنت الى الرئيس وأنا أخرج لمخاطبة أولئك الرهبان .. » ثم نادت شاتتيلا فلم تسمع جوابا ، فأسرعت الى باب الدير حتى خرجت منه ، فرأت شاتتيلا مع الرهبان يضرب أخاه أيضا ، وقد أنزلوه عن الفرس وأمسك أحدهم برجليه ، والآخر يسيده ،

وأخذ الاثنان الآخران يضربان على القدمين والكتفين ضربا موجعا ، فازدادت دهشة واستغرابا وصاحت : « شاتتيلا .. ما هذا العمل ؟ » وهو لا يرد عليها ولا يبالي بقولها . وبعد هنيهة رأتهم قد هموا بأجيلا فحملوه وأسرعوا به الى الدير . فوقفت فلورندا على حافة الطريق فاذا هو بين أيديهم لا يبدى حراكا فظنته قد مات من شدة الضرب فكادت تبكى لغيظها وأسفها ، ولكن الاستغراب ظل غالبا عليها ، فلما دخلوا به سارت هي في اثرهم فصعدوا الى غرفة حارس الباب ، فتعقبتهم وهي لا تجسر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب ، ولكنها كانت تتلفت يمينا وشمالا لعلها تجد الرئيس قادما لتستجد به أو تستفهم منه ، فاذا به قد أقبل مسرعا على السطح من جهة اخرى والعجوز في اثره وهي تشير الى فلورندا ان تطمئن

فأسرعت فلورندا الى الرئيس وسألته عن سبب ذلك فقال :
« لا تجزعي فانهم انما يفعلون ذلك لحفظ حياته »

قالت : « وكيف يحفظون حياته وقد أماتوه من الضرب ؟ »

فضحك الرئيس وقال : « يظهر انك لم تسمعي (بالدق) »

قالت : « وما الدق ، يامولاي ؟ »

قال : « هو الموت من البرد الشديد .. فالظاهر ان رسولك هذا أوشك ان يدق من البرد ، فعمدوا الى ضربه ليتحرك دمه وتعود اليه الحرارة فلا يموت ... »

قالت : « لم يكن يشكو بردا مطلقا بل رأيتة يضحك سرورا »



« والتفتت الخالة فإذا هناك دابة تمشي صاعدة نحو الدير وعليها راكب ،
فأمعنت النظر فيه كأنها تعرفه . فسمعت فلورندا تقول : أجيلا .. أجيلا ؟

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال : « والضحك في البرد من علامات الدثق » قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول : « اسقوه قليلا من الخمر وأدنوه من النار » ...
فأسرع الراهب حارس الباب الى ابريق في أحد أركان الحجرة ، صب منه في كأس ودنا من الرجل ، وتقدمت فلورندا نحوه أيضا وتفرّست في وجهه فرأته قد فتح عينيه ، ولكنه لا يزال منحل القوى ، فتحققت مما قاله الرئيس وشكرت الله على اسعافه بالوسائل الفعالة ..

- ٦٧ -

الخير اليقين

قضوا ساعة في علاج اجيلا بالدفع وشرب المنبهات حتى ضحا وعاد الى رشده ، فاستأذنت فلورندا في نقله معها الى دار الضيافة فأذن لها .. فنزلت به ومعهما شاتتيلا والحالة . فلما استقروا في الغرفة سألته عن سبب غيابه ، فأخبرها انه قاسى في اثناء عودته عذابا أليما من مقاومة الطبيعة وعيون رودريك . حتى اضطر أن ينام في النهار ويسافر في الليل خوفا من ان يقع كتاب يوليان في أيديهم ، وهذا هو السبب في وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت
ثم سألته عن والدها فأخذ يقص عليها ما كان من وصوله اليه ،

وما أصابه من الغيظ واليأس حينما قرأ كتابها ، الى ان قال :
« وقد صمم على الانتقام من رودريك انتقاما لم يسبق له مثيل
في تاريخ الأسبان »

فأبرقت أسرة فلورنذا اعتزازا بوالدها ، وأحست ببرء قلبها
بعد ان تصورت انها مهملة لا يسأل عنها احد ، لكنها احبت
الاطلاع على طريقة ذلك الانتقام ، فقالت : « وكيف ذلك ؟ »
قال : « لقد عول على اخراج هذه الملكة من يد رودريك .. »
قالت : « يا حبذا السبيل الى ذلك ، ولكن ... »

قال : « وهل تحسبين سيدى الكونت يوليان يقدم على هذا
الأمر الا وهو واثق من نفسه ؟ » . ثم اخبرها عن اتفاقه مع جند
العرب على المسير معهم الى اسبانيا ليكون عوناً لهم على فتحها
كلها ..

فلما سمعت فلورنذا قوله اكبرته ، وظنت اجيلا يقول ذلك
ليطمئنها فقالت : « وهل تقول الصدق ؟ »

فمد يده الى جيبه وأخرج أنبوبا مختوما سلمه اليها ، ففضته
فرأت فيه لفافة من القباطى (نسيج مصرى قديم) ففتحتها فاذا
هى كتاب من والدها اليها ، رأت فيه خط يده فخفق قلبها
وتذكرت حنانه فدمعت عيناها ، ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب
الا بعد ان سكن جأشها ومسحت دموعها ، ثم تناولت الكتاب
وقرأته فاذا فيه :

« من الكونت يوليان الى ابنته الحبيبة فلورندا
« قرأت كتابك أيتها العزيزة فانهمرت الدموع من عيني ،
لما هاجه في نفسى من المصائب الكامنة ، وقد ساءنى ما اقترفه
ذلك الوحش الكاسر من الاساءة الى الدين والى الفضيلة والى
يوليان . أما الأولان فالله كفى بالقصاص عنهما . واما ما اراده
من مس عرضى فأنا أتولى الانتقام له بنفسى . وابشرى .. اننى
سأنقضى عليه وعلى بلاده بجند من العرب ، لاشك ان الله ناصرهم
على ذلك الخائن لما نعلمه من غضب الاسبان والقوط عليه . وان
العمل الذى أشرت اليه فى كتابك يكفى وحده لغضب السموات
والأرض على ذلك الدخيل فى القوطية . ولا اطليل الشرح لأن
ناقل هذا الكتاب سيوضح ما يشكل عليك ، وانما كتبت هذه
الأسطر تثبيتا لأقواله ولكى أبشرك بالفرج القريب . وسوف
ترين رودريك الخائن قتيلا أو أسيرا مكبلا.. فامكثى حيث تأمين
حتى آتى اليك واذا احتجت أن تتصلى بى ، فأنا مع كبير جند
العرب حيثما يكون .. والسلام » (كتب فى سبتة)
فلما فرغت من قراءة الرسالة ، نهضت تريد الرئيس .. وكان
قد ذهب الى غرفته ، فسارت وحدها وهى لا تفقه شيئا مما يمر
بها لفرط تأثرها من ذلك الخبر الفجائى ، وقلبا يرقص طربا لما
حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام ... والانتقام من اقوى
ملذات الانسان ..
فلما أقبلت على الرئيس أنكر ما يبدو على محياها من آثار

البغثة مع شيء من الخفة فوقف لها فدخلت فحيته ، وقالت :
« جئتك بأمر ذي بال وفيه القضاء المبرم على رودريك »
فانذهل لتلك المباغثة وقال : « وما ذلك ؟ »

قالت : « ان الشاب الذي وصل في هذا الصباح وكاد يموت
من البرد انما هو رسول كنت قد بعثت به الى والدي في سبتة ،
وبعثت معه كتابا مختصرا شكوت فيه ما أصابني من رودريك ،
فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب » ومدت يدها وقدمت الكتاب
الى الرئيس ..

فتناوله سرجيوس وقرأه وهو لا يصدق انه في يقظة ، وأعاد
قراءته ثانية وثالثة وفلورندا صامتة تتوق لمعرفة ما يبدو منه .
فلما انتهى من تلاوته رفع بصره اليها وقال : « ان والدك سيعمل
عملا يغير به وجه هذه الجزيرة ، سيعمل عملا يقضى به على هذه
الدولة . وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين ..
نعوذ بالله من غضب الله » وصمت برهة ثم قال : « وهل نقل
الرسول اليك شيئا من التفاصيل ؟ »

قالت : « اخبرني بعض الشيء ولم أستطع صبرا على نقل
هذا الخبر اليك ، فاذا أذنت بعثنا الى اجيلا ليقص علينا ما
شاهده بعينه ... »

قال : « أحب سماع ذلك » ثم صفق فجاء خادمه فقال :
« الىّ بالرجل الذي جاءنا في هذا الصباح وهو في دارالضيافة »
فمضى الرجل وعاد بأجيلا .. فانحنى اجيلا أمام الرئيس

وقبّل يده ، ثم جلس متأدبا فجعل الرئيس يسأله عما شاهده بعينه .. فقصّ عليه ما شاهده من شجاعة العرب واتحاد كلمتهم ، وصبرهم في الحرب ، ومواظبتهم على الصلاة ، وطاعتهم لرؤسائهم ، الى ان قال : « وزد على ذلك ان مولاي الكونت يوليان عون لهم في ارشادهم الى المسالك ، فضلا عما سيلقونه من مساعدة اليهود المستترين في اثواب النصرانية ، وهؤلاء لا يدخرون وسعا في نصره أى داخل كان لأنهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته ، لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل..» (١) فلما سمع الرئيس ذلك هز رأسه ، وقال في نفسه : « قد انقضت دولة هذا الباغى وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها » . ثم التفت الى فلورندا وقال : « اذن لو ذهبت الآن الى اوباس اخبرته بهذا الخبر الجديد وأطلعته على هذا الكتاب ولا اظن أهل البلاط قد علموا به بعد . ثم نحتال في اخراجه من ذلك السجن ونأتى به الى هذا الدير يقيم فيه معنا ، وطالما كان أبوك مع العرب فنحن في مأمن منهم اذا هم غلبوا . واذا غلبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لأننا لم نتعرض لحربه .. » فتضاعف سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام اوباس اليه .. وبعد بضعة أيام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه في ركابه الى طليطلة

- ٦٨ -

القائد كوميس

أما رودريك فقد جاءه كتاب صاحب بوتيكه ينبئه بنزول العرب بلاده ، فأطلع الأب مرتين عليه قبل عرضه على رجال دولته ، فأوهمه الأب المذكور أن العرب انما يريدون الغزو لا الفتح فاذا أصابوا غنيمة عادوا على أعقابهم.. وانهم لا يجسرون على مناوأة ملك القوط ، وفي الحقيقة ان العرب كثيرا ما كانوا يسطون على ما يلي مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع في أيديهم من ماشية أو نحوها . فارتاح رودريك لذلك الرأي لقربه من المعقول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب . ثم جاء طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم وابلهم ، وقد ملكوا الجبل (جبل طارق) ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح ، وأخبروا قائد الجند العام بذلك ..

وكان قائد جند رودريك رجلا باسلا دموى المزاج حاده ، اسمه الكونت كوميس ، له وجاهة وسطوة عند رودريك . وكان قد لحظ فيه ميلا الى فلورندا ، فنصحته أن يتركها .. فلم يكثرث بقوله فتركه وشأنه وفي نفسه شيء عليه ، فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة أوباس نصح له سرا أن يعدل عن محاكمة هذا الرجل

لئلا يفضح . وكان من جملة نصائحه له أن لا يصغى الى مرتين
وغيره من جماعة الأكليروس . فلما جاءه الخبر بنزول العرب
اسبانيا ومعهم يوليان ، اعتز بفوزه فيما أشار به على رودريك
من أمر فلورندا فزاده ذلك جرأة عليه واستخفافا به ، واستغرب
كتمانه نزول العرب عنه . وكان يستبعد أن لا يكون على علم
بنزولهم . فذهب اليه ذات صباح وهو في مجلس حضره كبار
الموظفين وكلهم كوتتات . وكان أصحاب مناصب الدولة الكبرى
عند القوط لا يزيدون على عشرة منهم : (١) ناظر الأرضين الملكية
واسمه كونت الوطن (٢) رئيس الاصطبلات ويسمى كونت
الاصطبل (٣) كاتب سر الملكة واسمه كونت السجلات (٤) رئيس
القضاة وهو كونت النعم (٥) قائد الجند (٦) صاحب الخزنة
(٧) قيّم القصر الملكى (١) . ومن أصحاب رتبة الكوتتية عندهم
أيضا رئيس السقاة وتحوه ممن يخدمون الملك

كان مجلس الملك حافلا بهؤلاء والأب مرتين بجانبه ، فدخل
الكونت كوميس وسلم كالعادة ، وامارات الغضب بادية على
وجهه ، وبعد أن استقر به المجلس سأل الملك اذا كان قد بلغه
شئ من أخبار بوتيككة

فقال الملك : « لا أدري .. هل سمعت شيئا مهما ؟ »
فقال بصوت خشن : « سألت حضرة الملك هل جاءه خبر مهم
من تلك المقاطعة ؟ »

فغضب رودريك لهذه المراجعة بما فيها من الجسارة والقحة فقال : « ما معنى هذه المراجعة .. بعد ما سمعته من جوابي ؟ » واعتدل وتصدر وجعل يداعب شعر رأسه المرسل على كتفيه وقد بدا الغضب في عينيه ، وأصبح سائر الكونتية ينظرون بعضهم الى بعض والى كوميس ورودريك ، ويتساءلون عن سبب هذه الجسارة ..

أما كوميس فلما رأى الحضور ينتظرون ما يقوله ، وقد شخصت أبصارهم نحوه بعد ما أبداه رودريك من الجفاء ، عظم الأمر عليه .. وقواد الجند من أعظم الناس ثقة وشدة ، اذا حمى غضبهم لا يبالون بالتيجان ولا بالصواجلة ولا يعأون الا بشدة بطشهم ، وخصوصا في ذلك العصر والكلمة النافذة لصاحب الجند القوي . وكان كوميس فوق كل ذلك قد استصغر شأن الملك مما علمه من تهوره في مسألة فلورندا وأوباس . فلما سمع كلامه بتلك اللهجة الشديدة قال : « أظن حضرة الملك لا يجهل معنى سؤالي ولو تجاهله . معنى سؤالي أيها الملك أنه حدث في المملكة ما يدعو الى اطلاقنا عليه وقد كتمته . وهو من الأهمية بحيث يجعل المملكة في خطر »

فضج الحضور ومالوا الى الاطلاع على جليلة الخبر ، فلم يكن من الأب مرتين الا انه وقف بهيئته المعهودة ، وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه الى كوميس قائلاً ، وهو يتكلف التأني ويظهر الاستخفاف : « أظنك تعنى ما جاء من أمر أولئك العرب الذين

نزلوا سواحل بوتيكة ، فهؤلاء انما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون أن يرجعوا الى بلادهم ، ولو كان هذا الخبر مهما لعرضه جلالتة على مجلس الأساقفة أولا .. »

وكان كوميس يحتقر الأب مرتين ولا يعبأ بأقواله ، فوجّه جوابه الى الملك قائلاً : « اما الاستخفاف بأولئك العرب فمن الخطأ الفادح ، وخصوصا اذا عرف جلالتة انهم قادمون ورائداهم الكونت يوليان صاحب سبتة (قال ذلك بنعمة خاصة) . وأما اطلاع المجمع المقدس على أمثال هذه الأخبار قبلنا ، فللملك الرأى فيه . ولكننى أظن ان قائد الجند أولى بالاطلاع على ذلك من سواه ، وعليه هو حماية المملكة . وأما السادة الأساقفة فما عليهم الا الصوم والصلاة » . وكان يتكلم والتهكم ظاهر فى كل عبارة ، ولم يشأ أحد من الحضور التدخل فى هذا الحديث لدقته ، وفيهم من أدرك اشارة كوميس الى يوليان صاحب سبتة وما وراء ذلك التعريض والتلميح ، ولكنهم ظلوا صامتين ..

أما الملك فاشتد غضبه وأحس بما رماه به كوميس من السهام الحادة ، وأدرك خطورة مركزه ، كما أدرك انه فى حاجة الى قائد الجند أكثر من حاجته الى سائر رجال الدولة ، ولكن عظم عليه الاغضاء بعد مبادئه بالجفاء ، فقال له : « لم يكن من حقك باحضرة الكونت أن تخاطبنى بمثل هذا الكلام ، بل كان الأجدر بك أن تتفاهم معى بأسلوب آخر »

فقال القائد : « ان الملك لم يترك لنا سبيلا للتفاهم معه ، وقد

جعل هذا القس لسان حاله والمتكلم عنه ، والكل يعلمون ان هذا وأمثاله لا يصلحون لغير العبادة ، وقد جعلهم الملك شركاءه في مهام المملكة . ولو أخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال الى هذا الحد .. »

ولا يخفى ان مثل هذا التصريح في ذلك العصر ، وبخاصة في طليطلة ، كان يعد ضربا من الكفر لما علمناه من سطوة الاكليروس هناك ، ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد ما صرح بما صرح به .. ففتح بهذه الجسارة بابا يؤاخذ منه رودريك ويتغلب عليه بحجته .. فحوّل وجهة الكلام الى الدفاع عن الأساقفة ، وقد أراد بذلك أن يخفى خطاه ، فقال : « ألم تكثف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الأساقفة ؟ .. ان ذلك خارج عن حدود منصبك »

وكان الأب مرتين يرتعد من شدة الغضب ، فلما رأى الملك لا يزال على ثباته ، تدخل وخاطب كوميس قائلا . « ولا أظنك تجهل يا حضرة الكونت أن كلمة من جلالة الملك أو من أحد الأساقفة تكفى لتجريدك من هذا المنصب »

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه ، فكيف به من ذلك القس ، فوقف ويده على قبضة سيفه وقال : « لقد خسرتم بهذا الكلام سيف كوميس وأنتم في أشد الحاجة اليه » وخرج وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما أما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعة ، ولم يكن

يريد أن يغضبه في هذا المقام ، ولذلك فإن عبارة مرتين ساءت الملك أكثر مما أساءت الى كوميس . ولم يجسر أحد من الحضور على التوسط في الأمر لئلا يشتد الخصام وقد وقع ما كانوا يخشونه ثم وقف الملك فعلموا انه يريد فض الجلسة فخرجوا الا مرتين . فلما انفردا التفت الملك اليه ، وقال « أهكذا أغضبت قائدنا وصاحب جندنا ونحن في أشد الحاجة اليه ؟ .. »

قال : « أتلومني أيها الملك لأتني نهرته بعد أن أهانك وأهان السادة الأساقفة جميعا ؟ ان الصبر على ذلك ذل لا يطاق » فقال الملك : « أنت تعلم أن كوميس أعظم قوادنا ولم نكن في وقت من الأوقات أشد حاجة اليه مما نحن الآن ، والعدو يبابنا وولاتنا يدثونه على نواحي الضعف عندنا ، ساحك الله على هذا الخطأ .. ألا يكفي ارتكابنا الخطأ الأول باخفاء تلك الأخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى نرتكب خطأ آخر شرا منه ؟ » فاستاء الأب مرتين من هذا التعريض وقال : « كأنك تقول اني أنا سبب ذلك الخطأ ، فاذا كنت قد أشرت عليك بمشورة فاسدة ، فقد كان الأجدر بك أن لا تقبلها » . قال ذلك ومشى في وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره ، والأخرى يمسح بها ما تناثر من اللعاب على شفتيه ولحيته

فشق ذلك على الملك وعدها اهانة أخرى وقال : « أأكون مخطئا وتضيع منا أحسن قوادنا ثم تنقم علينا وتستخف بأقوالنا ويكون الذنب مع ذلك ذنبنا ؟ »

فأجابه مرتين وهو يهز رأسه ويمشي دون أن يلتفت اليه :
« صدقت أيها الملك ، ان الذنب ذنبي ، والخطأ كله خطئي ، وكل
هذه الشرور من نتائج أعمالي لأنني لو لم أسئ الى بنت صاحب
سبته ما حاول والدها أن يكون عوناً للعرب على فتح بلادى .
ثم وقف بغتة وحوّل وجهه اليه ، وقد اشتد غيظه وارتعدت
أطرافه وزاد لسانه تلعثاً وتمتمة وقال : « أتخطيء يارودريك ثم
تلتصق الخطأ بشييتي ، ثم اذا أهين الأساقفة كان الدفاع عنهم
لايعنيك وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك . ألم
يكونوا هم الذين دافعوا عنك بالأمس وسط المجمع واتهموا
رجلا بريئاً بتهمة لا أساس لها ؟ .. ثم تقول اني كنت سبياً في
خسارة ذلك القائد ، وأنت انما خسرته بسوء تديرك وانهماكك
فيما لا ينفعك . وبسوء تديرك أيضاً خسرت الأب مرتين الذي
لم يكن ينبغي أن تنسى تعبته في مصلحتك ودفاعه عنك » . قال
ذلك والتف بردائه وخرج من القصر

فلما خرج مرتين ظل رودريك وحده وقد خلا بنفسه وتصور
عظم الخطر المحدق به ، فجلس على كرسیه وألقى رأسه على كفيه
وراجع ما مرّ به من الأحداث في الأشهر الأخيرة ، وتذكر
فلورندا ووالدها ، فتحقق لديه أن يوليان انما انحاز الى العرب
غضباً لها ، فاشتد حنقه وتراكت عليه الهواجس وعظم عليه
الأمر ، ولا سيما بعد أن فقد قائده وأساء الى قسه فتشاءم من
هذين الحادثين ..

- ٦٩ -

سرجيوس وأوباس

واتفق وصول الرئيس سرجيوس ثاني يوم الخصام ، فنزل في الكنيسة الكبرى على جاري عادة الأساقفة ورؤساء الأديرة اذا جاءوا طليطلة . فلقى هناك الأب مرتين وعهده به في قصر الملك . فسلما وتخطبا مليا في شئون مختلفة ، والرئيس يستطلع ما في نفس مرتين .. وكان الأب مرتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثير متسرعاً فيما يخطر له كما تبين لك من وصف أخلاقه ، فلم يخف عن سرجيوس شيئاً مما وقع بالأمس له وللكونت كوميس . وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الايقاع برودريك والتنديد بفساد رأيه كأنه من ألد أعدائه ، وهو انقلاب غريب لا يحدث الا عند أصحاب المزاج العصبى أو الدموى الحاد

أما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لا يتوقع سبيلا الى مقابلة اوباس أو انقاذه ، فلما لقي مرتين هان عليه ذلك ، فذكر اوباس بين يديه وزعم انه سمع بسجنه . فلما سمع مرتين اسم اوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه سجن ظلماً أو على الأقل أسوأ اليه بتهمة لم تثبت عليه .. ونظرا لغضبه على رودريك رأى في انتصاره لأوباس ما يشفى بعض غليله انتقاماً من ذلك الملك ، فقال لسرجيوس : « ان أخانا اوباس سجن لتهمة اتهمه

بها رودريك ، وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة فأجلت المحاكمة
وسجن الى أجل غير مسمى ريشا تعاد محاكمته ، ولكن يظهر أن
الملك لن يطلب العود اليها »

فقال سرجيوس : « وهل تظن انه يظفر بالبراءة اذا استأنفوا
محاكمته ؟ »

فقال مرتين : « لاريب عندي في ذلك »

قال : « ولماذا لم يطلب الاستئناف ؟ »

فابتسم مرتين وهز رأسه وهو يقول : « وكيف يطلب ذلك
وهو محجور عليه في غرفة لا يرى فيها أحدا ، لأن رودريك منع
الناس من الدخول اليه »

فقال سرجيوس : « وهل من سبيل الى رؤيته بغير اذن الملك؟ »
فقال مرتين وهو يبتسم : « ان ذلك هين على . فهل ترى ان
نحرض اخانا المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة ؟ » لم يقل
ذلك رغبة في نصره اوباس ولكنه توهم ان رودريك يضطر
لاسترضائه كجاري عادته كلما اغضبه . ولذلك فانه لما خرج من
حضرة بالأمس كان يتوقع ان لا تغيب الشمس قبل ان يبعث
اليه ليسترضيه ، فلما اصبح الصباح ولم يأت من قبله احد
اشتد حنقه ، فلما خاطبه سرجيوس بشأن اوباس اراد ان
يستنهضه لاستئناف المحاكمة ، لاعتقاده ان رودريك يخاف ذلك
الطلب ولا سيما بعد ما ظهر من غضب يوليان وكوميس ، وعندئذ
لا يرى له مندوحة عن استرضاء مرتين لتدارك الأمر.. وليس في

ذلك من مصلحة لأوباس لأنهم لو رضوا بإعادة المحاكمة لاقتضى ان يجمعوا الأساقفة من أقطار المملكة كلها ، ولا يتأتى اجتماعهم الا بعد أسابيع ..

أما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال : « اذا ادخلتنى اليه نبهت ذهنه الى ذلك »

فنهض مرتين للحال وأتى بدواة وقلم وكتب رقعة الى الضابط الموكل بحراسة اوباس أن يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته . فأخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق انه فاز بها وسار مسرعا الى أوباس ..

أما اوباس فكان لا يزال في سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم ، وقد تلقى ذلك بصدور رجب ، فهو يغالب المصائب بالصبر ، ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما في ذهنه من المسائل التي لا استطاع التأمل فيها الا بالاعتزال عن الناس . ولم يكن يعد نفسه مسجوناً لاعتقاده ببراءة ساحته ، ولكنه كان يأسف لضعف الطبيعة البشرية ، لأنها علة متاعب بنى الانسان وبخاصة اذا كانت في الرؤساء وأولى الأمر لأن غلطة أحدهم تجر الويل الى المئات والألوف من الأبرياء . وكان اذا فكر فيما سجن من أجله أشفق على رودريك وأمثاله ، لما هم فيه من الغرور وما يرتكبونه من الجرائم والمعاصي التماسا للذة وقتية أو سعيًا في وهم زائل . فكانت هذه التأملات وأمثالها من غرائب ما يجرى في الطبيعة تستغرق منه الساعات والأيام ، وهو سابح في عالم

الفلسفة ، يحسب نفسه في نعيم وسائر الناس في شقاء لولا ما كان يعترض تأملاته من أمر فلورندا والفونس . على انه وكّل أمرهما الى الله اذ لا حيلة له في مساعدتهما أو في معرفة السبيل اليهما فلما كان اليوم الذي جاءه فيه سرجيوس ، دخل عليه حارسه وقال له : « ان رئيس دير الجبل يريد مقابلتك » . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفقان المفاجأة لطول عهده بالاعتزال ، وأذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الاذن في الدخول عليه ..

وكان سرجيوس يتوقع ان يرى تغييرا في ملامح اوباس بعد ما سمعه من طول حبسه . فلما دخل عليه رآه مقبلا لاستقباله بثوبه الكهنوتي ، لأنه لم يبدله منذ أقام هناك الا قلنسوته فلم يكن يلبسها .. فمشى الى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه ، وقد زادته اقامته في تلك الخلوة هية وجلالا

فلما تلاقى الأبصار أسرع سرجيوس وأكب على يد اوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك ، وعانقه وضمه اليه ثم تصافحا وسرجيوس لا يستطيع امساك دموعه ، واوباس ينظر اليه ويده على كتفيه لطول قامته بالنسبة اليه . ثم دعاه للجلوس ، فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس يتأهب للكلام فسبقه اوباس قائلا : « اهلا بصديقي واخي سرجيوس من أين أتيت الآن ، ولماذا ؟ » ..

قال : « أتيت من دير الجبل ولا غرض لى الا رؤية

الميتروبوليت اوباس فأحمد الله على سلامته . ولا بأس عليه مما قاساه من البلاء فان الله يجرب عباده الصالحين »

فقال اوباس : « انت من أهل العلم والحكمة وتحسب حبسى فى هذه الغرفة بلاء ، أليس الناس جميعا محبوسين على هذه الأرض ، وآجالهم قصيرة وقواهم محدودة وأعمالهم لا ترضى ضمائرهم ، وهل من فرج الا فى العالم الباقي لمن أحسن عملا وكان من الصالحين . وأما أهل الظلم منهم فأنهم يشقون فى الدنيا والآخرة .. فلا حاجة للاشفاق على سجين برىء نقى السريرة ، فان سجنه وان طال قصير ، ولكن ابك أناسا منحهم الله السلطة على اخوانهم من بنى الانسان ليحكموا بينهم بالعدل ويكونوا عوناً لهم على دنياهم ، فظلموهم وأساءوا اليهم وأهرقوا دماء الألوف منهم فى سبيل لقبة يأكلونها أو جيفة ينغمسون فيها ، ولكنهم انما يظلمون أنفسهم ولا يعلمون » . قال ذلك بصوت هادىء لا يتخلله اضطراب ولا حدة ولا شىء من عواقب الانفعال النفسى ..

فلا تسئل عن اعجاب سرجيوس بما سمعه من الحكمة والموعظة ، على انه أراد أن يؤدى المهمة التى جاء من أجلها فقال : « لقد صدق مولاي . ولكن الله كثيرا ما يعاقب الظالمين ويثيب المحسنين وهم فى هذه الدنيا عبرة لسواهم . وقد أتيتك الآن بأخبار جديدة لاريب انك مشتاق للاطلاع عليها . ألا تريد الاطلاع على ماكان من أمر فلورندا بعد فرارها من بين يدي رودريك ؟ .. »

فلما سمع اسمها تحركت فيه عاطفة الحنان وبدأ الاهتمام في وجهه ونسى ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة . والانسان مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث اذا تحركت فيه عاطفة الحب ان يهتم بالحياة وأهلها . ولولا الحب لانشلت عرى المجتمع البشرى كما ينحل نظام الكون وتتبعثر الاجرام السماوية اذا فقدت الجاذبية العامة . واوباس أحب فلورندا من أجل الفونس وزاد حبه لها وعطفه عليها بعد ما اصابها من الضنك وكان انقاذها على يده . والمرء يزداد تعلقا بالصغير كلما زاد ضعفه . فلما سمع اوباس اسم فلورندا هبت عواطفه من رقادها وان لم يبد ذلك على محياه الا قليلا وقال : « وهل تعلم شيئا عنها ؟ وأين هي الآن ؟ .. »

قال سرجيوس : « هي في دير الجبل .. »

فقال اوباس : « وكيف وصلت الى هناك ؟ »

فقص عليه ما علمه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك في طليطلة حتى جاءت الى الدير ، الى أن قال : « وهي مقيمة عندنا في أمان وسكينة . ولكنها في قلق شديد عليك وعلى الفونس لأنها لا تعرف مقره . وهي - لو عرفت - لا تستطيع الذهاب اليه لما أقامه رودريك من العيون والأرصاد في سبيلها » فاطمأن بال اوباس على فلورندا ، ولكن ساءه تضيق رودريك عليها فقال : « ألا يزلك هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة ويضيق عليها ؟ »

فابتسم سرجيوس ، وقال : « ولكنه لا يلبث ان يقع هو في الضيق ويفرج عن الناس ولاسيما حضرة الميتروبوليت » . ورأى اوباس في عينى سرجيوس ما يدل على أمور مهمة يريد التصريح بها فأبدى الاهتمام وقال : « وكيف ذلك ؟ »

— ٧٠ —

المروءة ومعرفة الواجب

فمد سرجيوس يده الى جيبه وأخرج كتاب يوليان وهو لا يزال فى انبوبيته وقال : « ولما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لسيادتكم كتبت الى أبيها كتابا تشكو فيه ما حل بها من الشقاء فى قصر رودريك وما أراده منها . وبعثت بالكتاب مع اجيلا فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه ، وهذا هو » . ودفع الأنبوبة اليه . فتناولها اوباس وسحب منها الكتاب ملفوفا ، وفضه وقرأه وأعاد قراءته ، وسرجيوس ينظر الى ما يبدو من آثار ذلك على وجهه فلم ير تغييرا يذكر ، فلم يستغرب ذلك لأنه علامة من علامات رباطة الجأش وسعة الصدر . ولكنه توقع أن يسمع ما يدل على ذلك الأثر فاذا هو يقول : « هل زادكم اجيلا ايضا ؟ »

قال سرجيوس : « نعم .. انه رأى جند العرب ينزلون على شواطئ اسبانيا ويوليان معهم يدلهم على عورات البلاد »

قال اوباس : « وهل علم رودريك بذلك ؟ » ..
قال سرجيوس : « نعم .. جاءت له الأخبار منذ أيام ، فلم يعبأ
بها ولا اطلع أهل مجلسه عليها .. فآل ذلك الى زيادة الخرق
اتساعا ، وبات رودريك في أشد الضيق وأصبح خروج المثلثك
من يده أمرا محتوما »

فقال اوباس : « وما سبب هذا الانقلاب ؟ »
قال : « لأن الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول
العرب الى شواطئ اسبانيا من أناس أتوا الى طليطلة من هناك ،
وثبت لديه ان رودريك أخفى ذلك الخبر عنه ، فعاتبه في مجلس
حضره كبار الموظفين فآلت المعاتبة الى المنافرة ، فخرج كوميس
من الجلسة غاضبا من رودريك ومن قسّه مرتين . وبعد انقضاء
المجلس عاتب رودريك القس مرتين فتخاصما .. وخرج مرتين
وأقام في الكنيسة الكبرى ، وهناك لقيته وفهمت منه انه ناظم
على رودريك ، وساعدنى - من أجل ذلك - في الوصول اليك
برقعة كتبها الى الحارس . ويرى الأب مرتين انك لو طلبت
استئناف النظر في قضيتك فلا ريب في خروجك بريئا . وعلى كل
حال فان الله قد رد كيد الظالمين في نحورهم . وهذا رودريك
الذى كان بالأمس يستبد في رجل مثل اوباس أصبح وقد هجره
قائد جنده وأخص أخصائه ، وبات سخرية بين الناس . ألا ترى
ان ذلك من تدبير العزيز الحكيم ؟ »
وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس في وجه اوباس ليتبين ما يبدو

عليه ، واوباس مطرق يمشط لحيته بأنامله وهو مستغرق في الأفكار ، وقد قطب حاجبيه وبان الاهتمام في عينيه . فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع اوباس بصره اليه وهو لا يزال مستغرقا في الأفكار وجعل يحدق ببصره في وجه سرجيوس كأنه يستطلع ما في نفسه ، فلم يستطع سرجيوس احتمال أشعة تينك العينين أو الصبر على التحديق فيهما وكأنهما منفذ للسيال الكهربائي المتولد في الدماغ من اعمال الفكر .. فكلما زاد الدماغ عملا زاد ذلك السيال قوة .. وظل كلاهما صامتا بضع دقائق ، ثم تكلم اوباس قائلا : « أتستحسن الانتقام من رودريك في هذه الفرصة ؟ » قال : « وهل تتوقع فرصة أثن منها .. انه في أشد الضيق ، أعداؤه يهددونه واصدقاؤه يتوعدونه .. »

فنهض اوباس وجعل يخطر في أرض الغرفة ذهابا وإيابا ، وأنامله في لحيته يمشطها وشعر رأسه يجلل كتفيه ، وقد زاده ذلك السكوت وقارا وهيبة وسرجيوس ينظر اليه ولا يتكلم . ثم وقف اوباس بغتة أمام سرجيوس ، فنهض هذا وأصغى لما سيقوله اوباس فاذا هو يقول : « أمن المروءة يا سرجيوس ان نغتم ضعف عدونا ونحمل عليه وهو في أشد الضنك ؟ وهل من الحكمة والتعقل أن نساعد الغريب على القريب ؟ .. ان رودريك مهما قيل فيه فهو منا ونحن منه . نشرب من ماء واحد ، ونقرأ في كتاب واحد ونتكلم لسانا واحدا ، ونصلي صلاة واحدة ، وتناول القربان المقدس من كأس واحدة ونجتمع في كنيسة واحدة ،

فكيف نغتني ساعة ضعفه ونعين عليه اناسا لا نحن منهم ولا هم منا ، ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا ؟.. وزد على ذلك ان الانتقام من رودريك في هذه الفرصة يجر البلاء على كل بلاد الأسبان ، اذ نخرجها من حضن دولة ربها وعاشرتها الى دولة جديدة لا نعرف شيئا عنها . ولا ندرى ما يصير اليه امر هذه البلاد اذا فتحها أولئك العرب ، ألم يسفك أجدادنا دماءهم في فتح هذه الجزيرة واستغلالها فكيف نسلم بذهابها هدرًا . أما ما في أنفسنا من انكار حق رودريك في الملك فأنما هو من قبيل ما يحدث من التنازع بين الأخ وأخيه أو الأب وابنه ، فلا يجوز أن يستعين أحدنا على الآخر بأمة غريبة جنسا ومذهبا ووطنا ... وأما ما ارتكبه رودريك من الشطط في الاساءة الى ، فيكفيه من ضميره ما يعذبه والله يتولى أمره ، فنحن يا سرجيوس في موقف يقتضى ان تنبذ فيه الضغائن وتتحد على العدو المهاجم رغبة في سلامة الملكة . ويجب ان نغضى عما أساء به أحدنا الى الآخر . وها أنا أبدأ بنفسى فأذهب الى رودريك وأستحثه على الاتحاد في سبيل الوطن » .. قال ذلك ومشى الى رفّ كانت قلنسوته عليه فوضعها على رأسه ، وهمّ بالخروج وقد ظهر التأثير في وجهه ونسى انه في سجن ولا سبيل الى خروجه الا باذن الملك وكان سرجيوس في أثناء ذلك الخطاب يتصاغر في عيني نفسه ، فما أتى اوباس على آخر أقواله حتى اعتقد سرجيوس انه من أحقر الناس وان اوباس من طينة أسمى من طينة البشر ، فأكب

عليه وضمه الى صدره وقبّل لحيته وعارضيه ، وقال له :
« بورك فيك من بشر . وما أنت بشر انما أنت ملك كريم ، لقد
حقّرتنى فى عينى وجعلتنى مردولا عند نفسى.. فأنا تابع لك فيما
تصنعه عامل بما تأمر به »

وكان اوباس فى أثناء ذلك يلبس قلنسوته ويصلح شعره
تحتها ثم مشى نحو الباب ، وما أن أدركه حتى انتبه الى انه لا
يستطيع الخروج بغير اذن الملك فتراجع وقد خجل لذهاب ذلك
من ذهنه ، وتناول لوحا من ألواح الكتابة (مكسوا بالشمع)
فكتب عليه ما يأتى :

« من اوباس الميتروبوليت الى رودريك ملك طليطلة
« أكتب اليك من سجنى لا لرحمة أرجوها ولا لنكبة أخافها
ولكننى علمت بمصيبة تهدد المملكة ، فأردت أن أكون شريكا فى
دفعها وأن أضع رأسى بين رؤوس جندها ، ولى كلام أحب أن
ألقيه على مسامعك ، فمر حارس سجنى أن يحملنى اليك ،
والسلام .. »

وخرج فدفّع الكتاب الى الحارس وأمره أن يوصله الى
الملك ، وعاد الى مجلسه ، فحمل الضابط الكتاب وسار
وكان رودريك قد أصبح فى حيرة من أمره بعد أن هجره قائد
جنده ، فلا هو يستطيع ان يتنازل لاسترضائه ولا ذاك يعود اليه
من تلقاء نفسه .. ولو كان الأب مرتين عنده لاستعان به فى فضّ
هذا الخلاف ، فقضى معظم اليوم فى غرفته واذا بخادمه الخاص

يحمل اليه كتاب اوباس ، فتلاه وهو لا يصدق انه يقرأه فأعاد قراءته غير مرة . ولما فرغ من ذلك أمر أن يكتب باستقدام اوباس وخرج لانتظاره في قاعة المجلس

وبعد هنيهة دخل اوباس بقدم ثابتة وجأش رابط ، فلبث رودريك صامتا ساكنا ليرى ما يبدو منه . قبدأ اوباس بالكلام قائلاً : « لا تخف أيها الملك ، انى لم آتلك لعتاب أو توبيخ ، انما جئت لأمر يتعلق بمصلحة المملكة .. جئت على اثر ما بلغنى من نزول العرب فى شواطئها وعزمهم على فتحها ، وان قائد جندك أغضب نفسه وأغضبك واغتتم ساعة حاجتك اليه وهجرك ... وهو ضعف شبيه بضعف يوليان صاحب سبتة ، فانهما غضبا من أحد رجال القوط ، فعمدا الى الانتقام من المملكة كلها ومن نفسيهما لأنهما من أفرادها ... على ان خطأهما لا يبرىء الملك من الخطأ الذى اقترفه مما لا نخوض فيه الآن » . قال ذلك بسكينة ورزانة ، والجد باد فى وجهه ، فاستغرب رودريك ما سمعه وارتاب فى اخلاصه لأنه لا يستطيع أن يتصور مثل هذه الخصال لبعدها عن خصاله هو ، كما يستبعد الشهم الوفى وجود اناس يكافئون على الحسنة بالأذى ، فأراد أن يتبين حقيقة ما يريد اوباس فقال : « وما الذى تراه ؟ »

قال : « لقد أحسنت فى اقتصارك على الموضوع الذى نحن فيه ، فالذى أراه أن نبعث الى الكونت كوميس والى الأب مرتين فاذا حضرا أوبخهما وأعرضهما على الرجوع اليك والعمل

معك على انقاذ هذه المملكة من غارة المهاجمين »
فأمر رودريك أحد الحرس أن يذهب في استقدامهما حالا
فسار الرجل وأشار رودريك الى اوباس بالجلوس وهو لا يصدق
انه يقول ما يقوله عن اخلاص وحمية .. وظل صامتا يخشى ان
تبدر منه بادرة يلام عليها لأن اوباس بهره بمروءته وجسارته ..
وأما اوباس فجلس ولم يعبأ بمن في حضرته ، وبعد قليل عاد
الرسول وأنبا الملك بقرب مجيئهما . ثم أقبل كوميس فحيا باحترام
وجلس بإشارة الملك ، وقد استغرب وجود اوباس هناك . ثم
جاء مرتين فبدا عليه الاتفعال حين وقع بصره على اوباس . أما
اوباس فالتفت الى رودريك واستأذنه في الكلام فأذن له ، فوجه
كلامه الى كوميس قائلا : « قد بلغنى يا حضرة الكونت انك
خرجت بالأمس من مجلس الملك غاضبا ، فكيف حالك الآن ؟ »
فقال : « لم أغضب من جلالة الملك الا غيرة على المملكة .
ولكننى لم أبلغ منزلى وأخل بنفسى حتى رأيتنى قد تعجلت في
الأمر لأننا في حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الأعداء .. »
ولم يتم كلامه حتى ابتدره اوباس قائلا : « يالك من شهم
صادق ، ذلك رجائي فيك لعلمى بحدة مزاجك ، وحاد المزاج
سريع الرجوع الى الصواب » ثم التفت الى مرتين وكان جالسا
مطرقا ، وقال : « ولا أظن الأب مرتين الا فاعلا مثل ذلك أيضا .. »
فظل مرتين مطرقا ولم يجب ، فالتفت اوباس الى رودريك وقال :
« لا ريب عندي في رغبة قداسة الأب في الوفاق والوئام ونبذ

البغضاء عملا بوصية السيد المسيح ، ولذلك فانتا لا نطيل الكلام في هذا الشأن بل نبادر الى العمل .. فيأمر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار رجال الدولة للنظر في الوسائل اللازمة .. « فرفع مرتين رأسه عند ذلك ووجه خطابه الى الملك قائلاً : « كيف تبرمون مثل هذا الأمر قبل عرضه على مجمع الأساقفة ، وجلالة الملك يعلم ان قوانين المملكة تقضى بذلك (١) »

— ٧١ —

الاقرار على الحرب

ولم تكن تلك القوانين تخفى على اوباس ، ولكنه أراد السرعة لأن جمع الأساقفة يستغرق بضعة أسابيع .. على انه خاف ان انكر جمعهم أن يفسد مرتين ما أصلحه ، فعذر الرجل على تعنته ، فقال : « لم أطلب ابرام شيء دون رأى المجمع ولكننى أردت اجتماع مجلس الملك للبحث فيما يعرضونه على المجمع » وقد فاته ان مرتين انما أراد عرض ذلك على المجمع ليشكو اليه خروج اوباس من السجن ، لأنه اغتاز من جلوسه في حضرة الملك وزاد غيظه ان رآه جالسا مجلس المشير أو الخطيب فاستحسن رودريك عقد مجلسه فبعث اليهم ، وهم الكونتات الذين تقدم ذكرهم ، فحضروا .. وقبل عقد الجلسة طلب الكونت

(١) رومى - الجزء الاول

كوميس ان تتبع فى عقدها نصوص القوانين الرسمية .. وهى تقضى باخراج مرتين منها لأنه ليس من رجال الدولة ، فخرج وهو يكاد يتميز غيظا

فلما التأمت الجلسة ، وقف اوباس ورفع يده وبارك وصلى صلاة حارة شفعا بالتوسل الى الله تعالى ان يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم ، ثم خاطب الحضور قائلا : « أنتم تعلمون الاساءة التى لحقت بى من جلالة الملك ومن مجلس الأساقفة حتى سجنونى سجن المجرمين شهرين كاملين ، لم أر فيهما غير حراس .. حكموا علىّ بذلك لغير ذنب اقترفته أو على الأقل انى أعتقد ببراءة ساحتى من كل ذنب ، ومع ذلك فحين علمت بما يهدد المملكة من الأخطار استأذنت فى مقابلة الملك ، وعرضت نفسى للعمل فى جملة العاملين على انقاذها . فبالأحرى يجب أن تكون رغبتكم فى ذلك صادقة قوية ، ولاسيما وأنتم رجال الدولة ومدبرو شئونها .. اننى لا أنبهكم الى أمر تعلمونه ، ولكننى أثبت لكم عواطفى فى هذا الشأن ، وأنا أصغر العاملين فى هذا السبيل »

فقال الكونت كوميس : « ان شهامة اوباس ومروءته وتعقله أشهر من أن تذكر ، ولكننا لم نكن نحسب فى البشر مثل هذه العواطف . فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا تتفانى نحن فى خدمة الملك . ولكننى لا أرى تأجيل العمل حتى يجتمع الأساقفة لثلا يضيع الوقت بلا طائل »

فقال اوباس : « ولكن لابد من استشارتهم في مثل هذا الأمر ، وهم — كما لا يخفى — أصحاب الفضل الأكبر في تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها وأحكامها وتدير شؤونها » (١) فقال رودريك : « لا يمكننا اتخاذ قرار نهائى في التجنيد والحرب الا بعد مشورتهم »

فقال كوميس : « لأبأس من استشارتهم ، ولكن الوقت قصير والفرصة ثمينة »

فخشى اوباس ان يحتد كوميس فيذهب سعيه هدرا ، وتذكر ان مرتين خرج من الجلسة حاقدا ، وخشى — اذا لم يسترضوه — ان ينقلب عليهم ويحرض الأساقفة على الملك ، فتقسم المملكة على نفسها فتكون المصيبة الثانية شرا من الأولى ، فعمد الى تلافي ذلك فقال لكوميس : « أراك ضيقت الفرصة ودققت في الطلب فالأساقفة — كما قلت — لأبأس من استشارتهم ، بل أرى احترامهم واجبا لأنهم هم واضعو أساس هذه النظم ، فضلا عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد . وزد على ذلك ان الاتحاد يقضى علينا باستشارتهم لأن غضبهم يفضى الى الشقاق لا محالة . ولا يخفى عليك أيضا ما يترتب على ذلك من عدم تحقيق الهدف الذى تسل سيفك وتشجذ قريحتك فى سبيله . فرجائى لك ان تتلافى هذا الخطر ، ولا شك عندى انك ستتلافاه ، فألتمس ان تبدأ بذلك من هنا (وأشار الى باب القاعة حيث خرج مرتين)

لأن حضرة الأب اذا رضى هان الأمر . ثم وجه كلامه الى رودريك قائلا : « هل يأذن مولاي باستقدام الأب مرتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل له حظا من هذا البحث ؟ »

وكان كلام اوباس نافذا بلا مراجعة لأنه بهرهم بما أوتى من الحمية والمروءة ، فضلا عما فطر عليه من قوة العارضة . فأمر رودريك للحال باستقدام مرتين ، وكان منفردا فى احدى غرف القصر . فلما دخل ، وقف اوباس وبش له ، وقال : « ليس فينا يا حضرة الأب من يجهل حق سيادة الأساقفة فى شئون مملكة القوط ، ولكن ولدنا الكونت كوميس رجل حرب يحب المبادرة ، وغيرته على حماية هذه الدولة حملته على التسرع.. وهو مصيب بالنظر الى قوانين الحرب ، ولكننى أصوب رأى حضرة الأب بالنظر الى وجوب استشارة الأساقفة . على انى أخشى أن يتسبب ذلك فى التأخير ، فتفوت الفرصة ويذهب سعينا هباء . ولا أظن ان السادة الأساقفة اذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة الى الحرب ، بل أحسبهم يلوموننا على تأخير التجنيد الى اجتماعهم . فالذى أراه - والأمر لجلالة الملك - أن نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة الأطراف فى حشد القوات والأموال ، ونبعث الى الأساقفة فنجمعهم وتتلو عليهم قرار هذا المجلس ، أو نبعث اليهم بخلاصة أعمالنا وهم فى أبرشياتهم ، لأننا أحوج ما نكون اليهم الآن وهم هناك ، واذا أذن لى الملك قلت كلمة فى هذا الشأن والرأى راجع اليه على كل حال ، وذلك انى أرى

أن ينتدب قداسة الأب مرتين لينوب عن جلالتة في تبليغ الأساقفة قرار هذه الجلسة ، وإذا رأيتم انى أليق لهذه الخدمة قدمت نفسى لها ، أو كما تشاؤون »

فلما فرغ اوباس من الكلام ، لم ير مرتين سبيلا للرد عليه لعلمه ان أمر المجلس نافذ لا محالة ، وقد أعجبه رأى اوباس بانتدابه للاتصال بالأساقفة ليتمكن من بث ما فى نفسه اليهم ، لكنه أساء الظن فى ذلك الانتداب ، وظن ان اوباس يريد ابعاده عن مجلس الملك أو أن يفر هو من سجنه لغرض له ، وكلا الأمرين لم يرضه . فلم ير خيرا من الرضوخ لقرار المجلس ، فعمد الى المغالطة فقال ، وهو يحاول كظم غيظه من تغلب اوباس على رأيه : « لا أظن حضرة الملك يسىء الظن بقصدى اذا التمسست جمع الأساقفة ، فانه طلب قانونى .. وأما الحرب فانها كما قال أخى الميتروبوليت تدعو الى العجلة ، وللملك ان يبلغ الأساقفة بالطريقة التى يختارها . وأما أنا فانى أعد تلك المهمة شرفا لى ، ولكنها تبعث على التطويل لما يقتضيه ذلك من الانتقال من أبرشية الى أخرى وكذلك انتداب حضرة الميتروبوليت ، فالأنسب أن ينتدب جلالة الملك من يشاء من حاشيته ويرسلهم جميعا دفعة واحدة فيصل الخبر الى السادة الأساقفة فى وقت واحد » .. ولم يجهل اوباس ما ينطوى تحت تلك الملاينة من الكظم والحقد ، ولكنه تجاهل ذلك رغبة فى النتيجة ، واغضى عن كل سيئة فى سبيل الوصول اليها ، فأبدى استحسانه لموافقة مرتين ،

والتفت الى رودريك وهو يتسهم وقال : « لقد تم الاتفاق بعون الله .. فما على جلالة الملك الا أن يتعاون مع مجلسه في التأهب للحرب ونحن في كل حالة خدّم المملكة المطيعون »

فلم يسع الملك بعد ما شاهده من مساعي اوباس في نصرته الا ان يحترمه ويتصاغر في عيني نفسه فقال له : « بورك فيك يا اوباس » . فقطع اوباس كلامه خوفا من اثاره حسد مرتين . وحجته في قطعه انه لا يريد أن يسمع المديح يكال له ، ثم وقف وطلب الى الملك أن يأذن له في الانصراف الى سجنه ، فقال رودريك : « امكث معنا يا اوباس فانك نعم المشير ، ودع السجون لأهلها »

فقال اوباس : « أشكرك على ذلك ، ولكنني أستأذن في الانصراف من هذه الجلسة على أن أعود بعد قليل » فأذن له فخرج اوباس وقد حمد الله على نجاح مسعاه فلقبه سرجيوس فقص عليه ما كان ، فازداد اعجابا بتلك الصفات النبيلة ، وتداولوا في شئون كثيرة وعاد سرجيوس بعد بضعة أيام الى الدير ..

وكانت فلورندا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر فلما عاد وقص عليها ما فعله اوباس الى آخر الحديث ، أحست بانقباض في نفسها لاعتبارها ذلك مخالفا لما كانت تتوقعه من سقوط هذه الدولة على يد والدها ، وما تخافه على نفسها وعليه اذا لم يفز العرب في هذه الحرب . فوقعت في حيرة ولكنها لم تستطع تخطيطه اوباس لأن

نواميس الشرف والمروءة تؤيده وتنصره ، ولولا ضعف المرأة وإيثارها الانتقام لما تخيرت فلورندا غير ما أراده اوباس ، ولكنها لم تكن ترى سبيلا الى السعادة الا بقتل رودريك ولاسيما بعد أن جاهر والدها بعدائه ، فانتصار رودريك يعود بالويل والثبور عليهما . وسألت الرئيس عن الفونس فأخبرها انه في استجابة مع فرقة من الجند ينتظر أوامر رودريك . فتاقت نفسها للذهاب اليه لعلمها انه لو كان عالما بمقامها لسعى اليها أو بعث في استقدامها ، ولكنها خافت العيون والأرصاد واستشارت الرئيس في ذلك مرة فقال لها : « امكشى عندنا ريثما نرى ماذا يكون من أمر هذه الحرب .. »

- ٧٢ -

السفر

قضت فلورندا في ذلك الدير بقية فصل الشتاء وكل فصل الربيع وهي تتنسم الأخبار بواسطة اجيلا وشانتيل والرئيس ، فلم تسمع الا باقتصارات العرب ووالدها معهم ، وقد دخلوا اسبانيا وأوغلوا في مقاطعة بوتيكة . وكان رودريك قد أعد جنده وتأهب للخروج معهم ، فسمعت انه برح طليطلة بنفسه ومعه العدة والرجال ، واضطربت اسبانيا كلها وفيها الحائف والشامت والآسف والناقم لاختلاف الأحزاب وتضارب الأغراض كما علمت

أما أهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الأخبار وهم يرون الخطر بعيدا عنهم لبعدهم عن ساحة القتال . وفلورندا قد تراكمت عليها الهواجس والمخاوف على أيها وخطيبتها ، وهى لا تدرى هل تسير الى أحدهما ، أو كليهما ، أو تبقى فى الدير ؟ وكانت ترجح بقاءها هناك راجية أن يبعث والدها فيستقدمها كما قال . فلما أقبل الصيف أصبح دير الجبل عليل النسيم ، عذب الماء ، نشيط الهواء وقد اكتست أوديته حلة خضراء

ففى يوم من أيام يوليو أفاقت فلورندا باكرا وهمت بالخروج من الدير للتجول فى بساتينه على جارى العادة ، وقبل أن تخرج جاءها اجيلا يدعوها الى الرئيس ، وقد مضت مدة لم يدعها اليه ، فاختلج قلبها وأسرعت حتى أقبلت على غرفته فرأت عنده كهلا لا تدل سحنته على انه من القوط أو من الرومان ، ورأت عليه ملابس تذكرت انها كانت ترى مثلها وهى عند والدها فى سبتة ، ولما دنت من الرجل رأت آثار السفر على وجهه بما غطى لحيته وشاربه من الغبار حتى حاجبيه وأهدابه فان الغبار غلب على لونها جميعا . فتوسمت فلورندا من ذلك القادم خبرا جديدا ، فدخلت وحيئت فرحَّب بها الرئيس ، وقال : « هذا رسول من أبيك .. »

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها بغتة والتفتت الى الرجل وقالت : « ما وراءك ؟ .. »

قال : « انى من أصدقاء أبيك ومحبييه والمطلعين على أسرارهم

وقد علمت بكتابك اليه وما قربت على ذلك كله من الانقلاب
الذي سيعود على رأس .. ألا تعرفينني يا فلورندا ؟ »

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت انها شاهده
غير مرة في صباها وانه كان كثير التردد على بيت والدها في
سبته .. فاستبظأها الرجل وقال : « ألا تعرفين سليمان التاجر ؟ »
فانتبهت للحال وقالت : « أنت سليمان ؟ .. نعم أعرفك جيدا
وكنت تتردد وتحمل الينا الهدايا والأحمال وتبتاع لنا الآنية
والثياب .. هل أنت آت من عند والدي ؟ وأين هو الآن ؟ »
قال : « هو مع جند العرب على مقربة من وادي ليته »

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كل شيء في حضرة الرئيس
فأجابته بالاشارة أن يفعل ، فقال : « وقد أوغلوا في بوتيكة ولم
يلقوا معارضة الا قليلا وقد عثدهم أهل البلاد رحمة ،
ولا يلبثون أن يملكوا البلاد كلها »

فبغت الرئيس وقال : « وماذا جرى لجند الأسبان ؟ .. »
قال : « لم يلتق العرب برودريك بعد ، ولكننا سمعنا
بخروجه من طليطلة بجند كثير ، وسيعود خاسرا فأبشرا »
فظهرت البغته على وجه الرئيس وقال : « هل تعتقد ذلك ،
وكيف تكون حالنا اذا صح قولك ؟ »

قال : « تكون على أي حال أحسن مما أستم فيه الآن ، لأن
العرب اذا فتحوا بلدا قلما يتعرضون لأهلها في شيء غير
ما يفرضونه عليهم من الجزية أو الخراج . وأما الرهبان وجماعة

الاكليروس فانهم معفون من كل ضريبة ، يقيمون في ديارهم
سالمين آمنين .. ذلك ما شاهدناه بأعيننا في البلاد التي فتحوها
في مصر والشام ..
فأطرق الرئيس وسكت ، فقالت فلورندا : « وما الذي جئت
من أجله الآن ؟ »
قال : « كلفني مولاى الكونت والدك أن آتى كى أزورك ،
وإذا أردت الذهاب اليه سرت فى خدمتك »
فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت : « ألا تخاف علينا بأساً
فى أثناء الطريق ؟ »
قال : « لا بأس علينا من أهل اسبانيا ونحن منهم .. ولا من
الملك وهو فى شغل من نفسه وجنده »
فالتفت فلورندا الى الرئيس كأنها تستطلع رأيه فقال : « اذا
لم يكن بدٌ من ذهابك فهذه فرصة لاتضيّعها ، ونحن ندعو لك
بالوصول الى والدك سالمة »
فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها فأشارت عليها بالذهاب ،
وتأهبوا فى الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه اجيلا وشاتتيلا ،
وأما فلورندا فطلبت الى سليمان أن يجعل طريقهم باستجة
فساروا أياما لا يمنع مسيرهم نوء ولا مطر والأرض كلها
مكسوة بالأشجار والأعشاب والطقس جميل ، حتى أطلوا على
استجة فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك المدينة ، وكانوا
قد أشرفوا عليها من مرتفع ، فرأت كنيسة فتبركت بها عن بعد

وجعلت تناجى نفسها عن مقر ألفونس فلم تجد بدا من سؤال سليمان ، فقالت له : « اذا أنفذ رودريك جندا الى مدينة مثل استجة فأين يقيم ؟ .. »

فقال لها : « أظنك تبحثين عن مقام الأمير ألفونس ؟ »
فبغت فلورندا وقالت : « نعم .. وكيف عرفت ذلك ؟ »
قال : « عرفته منذ بضعة أشهر اذ جئت الى هذه المدينة وبلغنى قدوم الأمير وجنده ، وكانوا يقيمون فى هذه القلعة قرب الجسر . هل أبحث عنه هناك ؟ »
فاستأنست به فلورندا وقالت : « افعل يرحمك الله .. وأتنا بالخبر .. »

فتركهم وتحول بأسرع من لمح البصر ، وترجلت فلورندا وخالتها ولبثوا جميعا ينتظرون الخبر وفلورندا تهنىء نفسها بقاء ألفونس ، وكلما تصورت أنها لقيته يختلج فؤادها ، وهى لاتزال تذكره كما شاهدته المرة الأخيرة فى حديقة القصر فى طليطلة وعليه ملابس الشتاء والفرو والمنطقة ، وقد خرج من الحديقة مسرعا مبغوتا عند سماعه الصغير .. تلك آخر صورة ارتسمت له فى ذهنها . ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لأن سليمان عاد سريعا فلما رآته مقبلا شخصت اليه ببصرها ، وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله ، فلما وصل ابتدرها قائلاً :
« لم أجد أحدا فى القلعة »
قالت : « أتظنهم لم ينزلوا فيها ؟ »

قال : « لا ريب عندي انهم كانوا فيها ، وقد سألت أحد حراس القلعة فأخبرني ان رودريك بعث الى مولاي الأمير ألفونس أن يوافيه الى وادي ليتة بمن معه من الجند لملاقاة العرب »

فبغت فلورندا وأطرقت ، وهي تتجلد وتمسك عواطفها أمام ذلك الرجل ، ولكنها أصبحت قلقة البال على ألفونس لأنه ذهب الى ساحة الحرب وهو في جانب وأبوها في الجانب الآخر ، فاذا فاز الواحد غلب الآخر ، وكلاهما عزيزان . وربما لم يفت سليمان ما مر بخاطرها من هذا القبيل فقال لها : « أظننا نلاقى الأمير ألفونس في الطريق اذا أسرعنا والا فاننا نلاقيه في وادي ليتة ، فاذا وصلنا الى هناك بحث عنه وأتيتك بما تريدينه »

فاطمأت فلورندا بذلك الوعد ، وأشارت الى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها ، وما زالوا سائرين جنوبا وهم يمرون بالكروم والبساتين ، وكلما اقتربوا من وادي ليتة قل الناس العاملون في الحقول ..

وأقبلوا في صباح اليوم التالي على طريق رأوا فيها جماعة من أهل القرى يهرعون كأنهم يفرون من عدو يتعقبهم فقالت فلورندا في نفسها : « يظهر أننا على مقربة من معسكر العرب أو أن العرب قادمون ؟ .. ثم التفتت الى سليمان فاذا هو ينظر الى الأفق ويتفرس كأنه يرى شيئا غريبا ، فنظرت فرأت غبارا يتصاعد فرجح لديها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان : « يظهر ان العرب قريبون منا . أليس أبى معهم ؟ »

فقال : « لا أظن أن القادمين عرب لأنهم سائرون من الشمال الى الجنوب .. » ثم التفت الى أحد المارة من الفلاحين وسأله عن سبب فرارهم فقال الرجل : « ألا ترى جند الملك قادمين ، انهم لم يتركوا أذى الا ألحقوه بالفقراء أمثالنا ، ولا يتركون ثمرات الا قطعوه ولا زرعاً الا داسوه ، ولو اكتفوا بذلك لهان علينا الأمر ولكنهم يلحقون الأذى بالناس .. » قال ذلك وسار مسرعاً في طريقه لئلا يكون مخاطبه من حزب الملك فيقبض عليه

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال ، وأرادت أن تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسليمان : « وهل تظن أن رودريك مع هذا الجند ؟ .. » قال : « أظنه معهم .. »

فلما سمعت ذلك تصورت قرب الخطر منها ، وسليمان يستشف عواطفها وملامحها ، فلما رأى اضطرابها قال لها : « لا تخافى يا مولاتى فانك فى أمان ، تعالى نختبئ فى مكان ريثما يمر هذا الجند .. »

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من مكان خرب مهجور فوق تل بعيد عن الطريق ، فدخلوه فقالت فلورندا : « أرى أن أتسكر بثوب رجل » فأعطوها ثوباً من أثوابهم وأعطوا مثله للخالة العجوز حتى لا يشك من يراهم عن بُعد أنهم رجال ، ثم اختبأوا فى ذلك المكان وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحملة ، فاهتدت الى شق نظرت منه الى جهة الغبار ، فاذا هى

بالبنود قد ظهرت ، والفرسان بينها عليهم الملابس الملونة والدروع . ورأت في وسط الحملة بنودا كثيرة قد تجمعت ، تحملها فرسان بملابس مرصعة ، وفي وسطهم موكب يتلأأ كالشمس فعلمت أنه موكب رودريك . فأصابها الاضطراب ، ولم يقترب الموكب من مكانها حتى اصطكت ركبها وارتعدت فرائصها فرسمت اشارة الصليب ، فتشجعت وثبتت قدميها ، ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات ، وعليها المئونة والذخيرة وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها . ثم أقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين دابتين بما يشبه الهودج وفوق رأسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدرّ والجوهر (١) في مقدمتها صليب مغروس في أحد أعمدتها ، ورودريك جالس وعلى رأسه التاج يتلأأ بالحجارة الكريمة ، وقد ارتدى وشاحا مزركشا وردى اللون .. وتصدّر تصدّر الملوك على عروشهم ويده في لحيته وهو يجيل نظره ذات اليمين وذات الشمال ، ينظر الى جنوده وكثرة ما معه من العدة والرجال . وقد جلس معه في ذلك السرير الأب مرتين وهو يخاطبه ويشير بيده ورودريك ينظر الى الأعلام المحيطة بموكبه ودلائل الاعجاب بادية على وجهه

فلا تسئل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك ، وكان سلسمان واقفا بجانبها فلما مرّ الموكب التفت فرأى لونها

(١) نفح الطيب - الجزء الاول

قد أصبح مثل لون التراب ، فأراد أن يشغلها عن الخوف فقال :
« ما ظنك في عدد هذا الجند يامولاتى ؟ »

قالت : « لا أدري ولكننى أراه كثيرا .. هل تظن ان جند
العرب أكثر منه ؟ »

قال : « ان العرب لا يزيد عددهم على خمس هؤلاء .
وناهيك بما سينضم الى جند رودريك من الرجال قبل أن يلتقى
بالعرب ، ولاسيما جند مولاي الأمير ألفونس فانه سينضم اليه.. »
فقالت : « اذن فالعرب في خطر وضعف ؟ .. »

قال : « لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هذه البلاد ، فان
القوة ليست في الكثرة وانما هي في الشجاعة .. ان العرب
يامولاتى لا يزيد عددهم في هذه الجزيرة على ١٢ ألفا ومع ذلك
فلم يقف في سبيلهم أحد »

فقطعت كلامه قائلة : « ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد »
فقال سليمان : « هذا صحيح ولكننى رأيت من شجاعتهم
واتحادهم وصبرهم ما لا أخشى معه عليهم شيئا ، ومع ذلك فان
النصر من عند الله يؤتية من يشاء » . وفي أثناء هذا الحديث
مرّت بقية الحملة فمكثوا هناك الى آخر ذلك اليوم .. وخرج
سليمان وحده للبحث عن المكان الذي نزل فيه العرب ثم عاد
فأخبر فلورندا بأن العرب قد نزلوا في وادى ليته قرب مدينه
شريش فقالت له : « وهل عرفت مكان معسكر الفونس ؟ »

قال : « هو على مقربة من ذلك المكان »

فقلت : « وما العمل الآن ؟ .. »
قال : « اذا شئت الذهاب توا الى مولاي الكونت والدك
أوصلتك اليه حالا »
فأصبحت فلورندا في حيرة .. كيف تسير الى معسكر العرب
قبل أن ترى الفونس وتدبّر طريقة للاجتماع به أو رؤيته.. فلبثت
صامتة ، فأدرك سليمان سبب صمتها فقال لها : « يظهر انك
تريدين البحث عن الأمير ألفونس قبل كل شيء ؟ »
قالت : « نعم .. »
فقال : « أعرف كرما من كروم شريش لعائلة من أهل هذه
البلاد ، وفي الكرم بناء مرتفع يطل على سهول شريش كلها ،
فتقيمين هناك مع خالتك والخادمين ، وأمضى أنا للبحث عن
ألفونس وآتيك بالخبر اليقين أو أستشير والدك .. »

- ٧٣ -

كتاب أوباس

فاستصوبت فلورندا رأييه وشكرته وساروا حتى أطلوا على
مدينة شريش وحولها الكروم ، وفي جملتها كرم صاحبنا الشيخ
والد بطرس وهو الذى عناه سليمان ، فصعدوا اليه واخترقوه
يلتمسون العريش فلم يجدوا فى الكرم أحدا . وكان سليمان
لا يمر من هناك الا ويرى أولاد الشيخ وأحفاده وأحفاد أولاده

يسرحون في الكرم اما للعمل أو للعب . فقال سليمان في نفسه : « ان لهذا سببا ذا بال » ومشوا حتى وصلوا الى العريش في أحد أطراف الكرم ، وقبل الوصول اليه سمعوا صوتا يناديهم تهودوا سماع مثله من نواطير الكروم ، فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فرأى هناك الشيخ وكل ذريته معا ، والقلق باد على وجوههم أجمعين . فلما رأوه مقبلا ذعروا ونهض له بطرس فقال : « ماذا تريد ؟ » ولم يتم سؤاله حتى عرفه فقال : « سليمان مرحبا بسليمان التاجر .. » فلما سمع الشيخ اسم الرجل وقف له ورحب به ، وكان لذكر اسمه تأثير في سائر أفراد تلك العائلة لأنهم كانوا يسمعون به وبعضهم كان يراه عند قدومه الى شريش لا بتياع الخمر في الموسم . وذهب عنهم بعض الاضطراب لدى رؤيته .. وأهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فانهم يعتقدون بفضل أهل المدن عليهم .. فلما رأى سليمان انهم احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ في ملاطفتهم ، وتقدم الى الشيخ فسلم عليه وسأله عن سبب انزوائهم في ذلك العريش في أثناء النهار والكرم لا يستغنى عن يتعهده .. فقال الشيخ : « يظهر انك لم تعلم بما طرأ علينا .. »

قال : « أظنك تعنى قدوم العرب ؟ » .
قال : « نعم ، ولاندرى ما يؤول اليه حالنا بعد هذه الحرب ، ورأينا بالأمس جند الملك قد عسكر مقابل جند العرب ، ولاتلبث الحرب أن تنشب ، وعندنا أطفال لا نستطيع الفرار بهم ، وان

استطعنا فما نحن بقادرين على ترك مغارسنا . قال ذلك وصوته يكاد يختنق حنانا على أهله وولده

فابتسم سليمان وقال : « لا بأس عليكم يا عماه ، انى أكفل لكم كل ما يحميكم ويحمى أولادكم من كل شر .. ومعى أناس من أهلى سأعهد بهم اليكم كى يقيموا عندكم الليلة ، فهل من مكان لهم ؟ »

قال : « على الرحب والسعة » وأشار بيده الى جهة مستودع الحمر فى قمة الجبل وقال : « هناك .. » وهروا مسرعا ومعه بعض أولاده ، حتى أقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا أزمّة الخيل وقادوها الى ذلك المستودع ، وكان بعضهم قد سبق اليه فكنسه وغسله ونظفه ، فصعدت فلورندا على سلم المستودع وهى لا تزال بملابس الرجال ، وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان ، وظل أولاد الشيخ أسفل المكان ينتظرون أمرا لخدمته فنزل سليمان فدفع اليهم قطعا من الذهب وطلب اليهم أن يأتوهم بالطعام ، وأظهر السخاء فازداد أولئك الغلمان رغبة فى خدمته

أما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المستودع أطلت من بعض نوافذه ، فرأت تحت ذلك الكرم والى شرقه سهلا واسعا على مدى البصر يخترقه نهر على ضفتيه الأشجار والأعشاب ، وفى أحد طرفى السهل الى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثله ، وفى وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون أمامها علم كبير . وأمام الخيام الأخرى أعلام أصغر منه ، ورأت وراء تلك المضارب خيام

منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجمال وهى لم ترها منذ زمان طويل . فعلمت انها ترى معسكر العرب فتتسمت ريح والدها من هناك ، وكان سلمان قد فرغ من صرف أولاد الشيخ وصعد فلما رآته قالت : « أليس هذا معسكر العرب ؟ »

قال : « بلى يامولاتى .. والخيمة التى ترينها فى وسط المعسكر هى خيمة الأمير طارق بن زياد . ومولاى الكونت يوليان والدك يقيم فيها معه »

قالت : « وما تلك المضارب البعيدة ؟ »

قال : « هى أخبية النساء ومراتع الماشية .. لأن العرب اذا ساروا الى الحرب أخذوا معهم نساءهم وأولادهم وماشيتهم ويجعلونهم وراءهم ، فاذا ضعفوا فى الحرب وحدثتهم أنفسهم بالرجوع أو الفرار لقيهم أهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحسوا » فحولت نظرها الى السهل من جهة اليسار ، فرأت هناك خياما أخرى عرفت أنها مضارب الاسبان وفيها خيمة رودريك وخيمة ألفونس . أما فسطاط رودريك فعرفته من كبره ومما فوقه من الأعلام والبنود وما أمامه من الخدم والأعوان ، وان كانوا لا يظهرون - الا قليلا - لبعده المسافة . وأما خيمة ألفونس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القواد وهم كثيرون ، فأشارت الى خيمة رودريك وقالت : « أليست هذه هى خيمة الملك ؟ »

قال : « بلى وأظنك تريد معرفة خيمة الأمير ألفونس ، انه لا سبيل الى معرفتها الا بالبحث .. وقد عقدت النية على أن

أبحث عن ذلك بنفسى لما لوالدك من الفضل على «
فشكرت له فضله ثم قالت : « ومتى تذهب للبحث ؟ »
قال : « فى هذه الساعة بعد أن أهيب لك ما تحتاجين اليه
من الطعام ، ولا بأس عليك هنا ومعك خالتك والشابان وهما
نشیطان .. »

قالت : « ومتى تعود إلینا ؟ »
قال : « أما الرجوع فلا يمكن تحديده وسأبذل الجهد فى
الاسراع » وبعد أن دبر كل شىء ودعهم ونزل وقد دنت الشمس
من المغرب ..

وكان سليمان كثير الاختلاط بالاسبان ، يجيد لغتهم فضلا عن
لغة القوط ، فاذا كلّم أحدا باحدى اللغتين ظنوه من أهلها . هذا
الى انه كان يعرف العربية والبربرية . ونظن ان القارىء أدرك مما
تقدم انه هو الرجل الذى جاء الى الجمعية اليهودية فى استجة منذ
بضعة أشهر والفونس فيها وأنبأهم بما عزم عليه يوليان

فلما فارق فلورندا عاد الى الطريق التى جاء منها ونزل الى
معسكر الاسبان من الخلف ، لئلا يشك أحد فى قدومه من بعض
القرى أو المدن ، وما زال يتجسس وهو لا يتوقع أن يرى الفونس
هناك فطال تجسسه ولم يعثر عليه ، فسأل بعض العارفين فدلوه
عليه فاذا هو فى الطرف وراء معسكر رودريك .. فجعل همه البحث
عن يعقوب وعنده كل الأسرار .. وكانت الشمس قد غابت قبل
وصوله الى المعسكر ، فزعم انه مار من هناك عرضا والجند فى

٣٠١

شغل عنه بالتأهب للحرب . ولما دنا من خيمة الفونس وجد ببابها بعض الحراس، ولم ير يعقوب بينهم فمر من وراء الخيمة ، وتظاهر انه شرق بريقه ، وتنحنج نحنحة خاصة مالبث أن سمع جوابا عليها من الداخل.. فعلم ان يعقوب هناك وانه فطن له ، فظل ماشيا في طريقه . ولم يمش قليلا حتى سمع نحنحة دلتته على مكان يعقوب ، والتقيا فسلمّا بعبارات خاصة ، يتعارفون بها ، ثم قال سليمان :

« أراكم لا تزالون هنا ، ألم تنجح في اقناعه ؟ »

قال يعقوب : « كدت أنجح لولا أوباس وكتابه »

فقال سليمان : « وأى أوباس تعنى ؟ »

قال يعقوب : « الميتربوليت أوباس عم ألفونس »

قال سليمان : « ألم يكن ألفونس هو رجاؤنا في النجاة من هذه الدولة ؟ »

قال يعقوب : « بلى .. هو بعينه وقد أطلعتكم على ما دبرناه منذ بضعة أشهر ورأيتم ألفونس نفسه في تلك الجلسة يوم أريناه الدنانير في ذلك التابوت »

فقال سليمان : « وقد رأيت من ألفونس اتحادا معنا على هذا الأمر . فما الذى حدث بعد ذلك ؟ »

فقال يعقوب : « خرجنا من تلك الجلسة وكله اقتناع بنجاح مشروعنا ، وقد أفهمته أن العرب اذا أخذوا البلاد أبقوا له كل أمواله وأعادوا الحكم اليه . وأن في فوزهم على رودريك سعادته، وأما اذا فاز رودريك فالعاقبة تكون على رأسه ورأس عمه وسائر

أهله .. وأخبرته بأن سقوط رودريك يتوقف على أمر واحد لا يقدر عليه أحد سواه ، وذلك بأن ينضم هو ومن معه الى جانب العرب يوم المعركة الاولى .. فاقتنع وتعاهدنا على ذلك .. »

فقال سليمان : « ثم ماذا ؟ .. »

فمد يعقوب يده الى جيبه وأخرج لوحا مشمعا ، من ألواح الكتابة عندهم في ذلك العصر ، ودفعه الى سليمان ، وقال : « وفيما نحن مطمئنون بذلك جاء هذا الكتاب من عمه أوباس » فتناول سليمان اللوح ونظر اليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابتدريه يعقوب قائلا : « لا تتعب نفسك في قراءته فاني قد حفظته حرفا حرفا لكثرة ما قرأته وأعدت قراءته من شدة غيظي من أوباس مع فرط اعجابي به ، وها أنا أتلو عليك نص الكتاب كما هو فاصنع التى » ثم قال :

« من الميتروبوليت أوباس الى الابن المحبوب ولدنا ألفونس »
« أما بعد فقد بلغنى ما ارتكبه ولدنا الكونت يوليان من الخطأ في حملته على رودريك بجند العرب ، ولا أظنه فعل ذلك الا انتقاما لابنته وكأنى بك لما بلغك الخبر سررت به لأنه يشفى ما في نفسك . فأخشى أن يسوقك الغضب البشرى الى ما ساق اليه ولدنا المذكور فتوافقه على ما يضيّع هذه المملكة ويبيد هذه الدولة ، فتهدمون في يوم واحد ما بناه أجدادكم في أجيال وتدور الدوائر علينا وعليكم جميعا . فاذا كان قد خطر ببالك شىء من ذلك فانزعه عنك فانه من حبائل الشيطان ، واتحد مع ملك القوط

٣٠٣

للدفاع عن مملكة القوط . وأما ما بيننا وبين رودريك من التباغض فائنا تتنازع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء ، فرجائي أن تصفى الى نصحي ولا تقبل قول سواي ، والسلام .. »

فلما سمع سليمان نص الكتاب قال : « والله انه قول رجل عاقل . ولكنه اذا عمل به فالضربة تعود علينا نحن اليهود ولاسيما اذا فاز رودريك وسأل بعض الأسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده — والذي أراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم — ان الفونس اذا لم ينضم اليهم فالكفة راجحة في جانب رودريك .. والعياذ بالله .. »

فقال يعقوب : « ذلك هو اعتقادي ولكنني قد استتفدت الحيل في سبيل اقناعه وأنت تعلم يا سليمان كم بذلت من الوقت والسعى من أيام غيطشة لانتقاذ شعب الله من هذا الجور ، فتركت منصبى وتنازلت عن أموالى وتظاهرت بالنصرانية وجعلت نفسى خادما أهيبء الطعام وأخدم على المائدة .. صبرت على ذلك أعواما حتى اذا بدا لى ان الفرج قد أقبل، أتانا أوباس باعتراضاته بعد أن كان أكبر نصير لنا ، بل هو المحرك الأعظم لمشروعنا .. »

فقال سليمان : « أما أوباس فانه يحمد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق ، فهو لا يريد أن تخرج هذه المملكة من يد بنى وطنه ودينه ولغته ولا يريد أن يسلمها الى أناس غرباء عنه ديننا ووطننا ولغة .. أما نحن فيهمنا اخراجها من هؤلاء القوط على الاجمال لأن المسلمين خير لنا منهم ، لما شاهدته من معاملتهم

لليهود والنصارى فى الشام ومصر ، فانهم يطلقون لهم الحرية
فيقوم كل منهم بطقوس ديانته كما يشاء على أن يدفع مالا قليلا
يسمونه الجزية ، وزد على ذلك اننا أقرب نسبا للعرب لأننا وإياهم
من جدٍّ واحد هو ابراهيم كما تعلم.. فهم يرفقون بنا بنوع خاص،
فيجدر بنا ، والحالة هذه ، أن نكون عوناً لهم فى استيلائهم على
هذه البلاد .. نفعل ذلك سعياً لمصلحتنا . ولا يهمنا كلام أوباس
ولا غيره .. »

فقال يعقوب : « هذا هو الأمر الذى تتمناه ولا سبيل إليه ، إلا
بأنحياز ألفونس الى العرب لأن ذلك يقلل من جند رودريك
وبضعف من عزيمته ، ولا يخفى عليك أن معظم رجال هذه
الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونه . فاذا رأوا ابن
ملكهم ينحاز الى العدو هموا بأن يتبعوه أو أن يتقاعدوا عن
الدفاع على الأقل » . قال ذلك ويده فى لحيته يلاعب طرفيها
بأنامله وشعرها لا يزال ملبداً بالأوساخ . وسكت هنيهة وسليمان
ساكت ، ثم قال يعقوب : « فالخلاصة اننا ان لم نستطع اغراء
الفونس على الخروج الى معسكر العرب ذهبت مساعينا وأرواحنا
وأموالنا أدراج الرياح ، والسلام »

فقال سليمان : « هذا هو الصواب .. ولو كان يتحقق هذا
الأمل يالمال لهان علينا أمره ، ولكن الرشوة لا دخل لها فى هذا
المشروع ، اذ لا نستطيع أن نرشو ألفونس ولا أوباس .. واذا
رشونا أحداً من رجاله فانه لن يستطيع التغلب على رأيه ، وأنت

٣٠٥

أقرب الناس اليه ولم تستطع شيئا مع كثرة دهائك ومكرك «
قال ذلك وابتسم

فأجابه يعقوب : « دعنا من المجون فأننا في معرض جد وخطر،
والوقت قد سبقنا »

قال سليمان : « ومتى ينوي رودريك القتال ؟ »

قال : « سمعت انه ينوي مهاجمة العرب غدا »

فبغت سليمان وقال : « غدا .. لقد سبقنا الوقت وفاتت
الفرصة . ألا تستطيع تأجيل الهجوم يوما أو يومين ؟ »
فقال يعقوب : « لا أظننى أستطيع ذلك . وما الفائدة من
التأجيل ؟ »

قال سليمان : « سأسعى في طريق أظننى أبلغ منه المراد »

فقال يعقوب : « وما هو ؟ »

قال سليمان : « لا أقول لك الا بعد قليل ، فاسعبنى أنت
بتأخير المعركة يوما أو يومين »

فقال : « لا أظن اننى أستطيع ذلك ياسليمان لأن رودريك
يرى أن يسرع في الهجوم على العرب قبل أن تأتيهم نجدة فيقوى
ساعدهم .. أشار عليه بذلك أوباس »

فقطع سليمان كلامه قائلا : « سبحان الله .. ما أوباس هذا ؟
كيف انقلب هذا الرجل من الشيء الى ضده ؟ .. »

فقال يعقوب : « اذا كانت عندك حيلة فهاتها قبل قوات
الوقت .. »

قال : « انى ذاهب الساعة وسأعود اليه غدا صباحا بالأمر الذى دبرته ، فاذا وفقت الى سبيل لتأخير المعركة فافعل .. أستودعك الله .. » قال ذلك وهم بالرجوع من حيث أتى ويعقوب واقف ينظر اليه حتى توارى عنه ، فتحول الى خيمة ألفونس وقد مضى هزيع من الليل

- ٧٤ -

الحيلة

أما سليمان فانه سافر توا الى معسكر العرب والليل حالك حتى وصل الى خيمة يوليان ، فلم يعترضه أحد لأنه كان يعرف كلمة السر عندهم ، وكان يوليان قد أوى الى خيمته للنوم ، وقتما كان يستطيعه لما تراكم فى مخيلته من المشاغل القديمة والحديثة، فلما وصل سليمان كان يوليان جالسا فى الفراش ، وقد زاده الأرق انقباضا ، ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأى السويداء مرسومة فى وجهه بخطوط واضحة وبخاصة بعد أن رأى جنود رودريك بالأمس ، فقد هاله ما رآه من كثرتها واستعدادها ، وجند العرب لايزيد على خمسها فخشى أن يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليه وعلى ابنته وسائر أهله .. وكلما تصور ذلك اقشعر بدنه ..

وبينما هو فى ذلك اذ قيل له : « سليمان بالباب » فأذن له

٣٠٧

بالدخول ، فلما دخل حياه فابتدره يوليان بالسؤال : « أين فلورندا ؟ » ..

قال : « هى بخير وستأتى فى صباح الغد أو بعد الفراغ من المعركة » وأخبره بالمكان الذى تقيم فيه وطمأنه ..

فقال يوليان : « وما الذى حملك على المجيء الآن ؟ »
قال سليمان : « حملنى عليه أمر ذو بال لا أظنه قد غاب عن بصيرة مولاي »

فقال يوليان : « ما فى بصيرتى شىء الآن غير جنود رودريك ، فانى استكثرتها وخشيت على جند العرب منها . واذا غلب العرب عادوا ولا يهمهم شىء ، وتقع المصيبة على رؤوسنا ورؤوس أهلنا وكل من قال بقولنا »

قال : « ذلك ما جئتك من أجله . ولكن اعلم يامولاي ان الأمر على خطورته يتوقف حله على أمر هين .. » وقص عليه حال الفونس وما دار بينه وبين يعقوب بشأنه الى أن قال : « وقد جئت الآن ألتمس منك كتابا الى الفونس تدعوه فيه الى التسليم وتضمن له أمواله وضياعه وضياع اهله اجمعين ، وتحرضه فيه على اغاظة رودريك مما لا يخفى عليك ، واعطنى الكتاب فابعثه اليه بطريقة اختارها »

فأطرق يوليان هنيهة ثم قال : « عد الىّ فى الصباح فأعطيك ذلك الكتاب »

قال : « سمعا وطاعة » وخرج يلتمس مستودع الخمر ،

وكانت فلورندا في انتظاره على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس وتترامى بها الأوهام لم تغمض عيناها الا قليلا . وكيف تنام وحبيها قريب منها ، وهي لا تستطيع الوصول اليه ؟ وأمرًا ما لاقيت من ألم الجوى قرب الحبيب وما اليه وصول مضى معظم الليل وهي في هذه الهواجس ، وكلما هب النسيم وسمعت خفيف أوراق الأشجار توهمت سليمان قادما ، وكان شوقها يوحى اليها بأنه سيأتى والفونس معه . وبينما هي في ذلك ، اذ سمعت وقع خطوات وخشخشة الأعشاب اليابسة بقرب المستودع فأصاحت بسمعها ، وقد أسرع دقات قلبها واشتدت حتى كادت تسمعها بأذنها .. فاذا بالخطوات تقترب ، ثم سمعت همسا فوقفت ودنت من النافذة وأطلت فرأت سليمان يخاطب اجيلا ، ثم صعد سليمان على السلم ففتحت له فلورندا واستقبلته وهي تقول : « ما وراءك يا سليمان ؟ .. »

قال : « ما ورائي الا الخير » وكانت نعمة صوته تدل على شيء في نفسه فاضطربت فلورندا وابتدرته قائلة : « يظهر انك تضر شيئا .. قل لى ما الخبر ؟ .. » فاستيقظت خالتها على هذا الصوت ، فجلست وهي تمسح عينيها بأطراف أناملها ، وقالت : « ما الخبر يا سليمان .. هل رأيت الأمير الفونس ؟ »

قال : « كلا يامولاتى »

فلما سمعت فلورندا ذلك انشغل خاطرها وقالت : « وأين هو

اذن ؟ .. »

قال : « هو في هذا المعسكر »

قالت : « وكيف عدت من هناك ولم تره ؟ قل .. افصح .. »

قال : « لأن رؤيتي اياه لا تفيدني ولا تفيدك شيئا »

قالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لأنه في حال لا تساعد على سماع كلام أحد غير

عمه اوباس وهو يأمره أن يتفانى في سبيل رودريك »

فلما سمعت ذلك تصاعد الدم الى وجهها واقتصر بدنها ،

وصمتت برهة ثم قالت ، وهي تبتسم استخفافا بما قاله سليمان

ووثوقا بانصياع الفونس لقولها دون سائر العالمين : « اظنه

يسمع قولي .. ولكن ما الذي يهمني من هذا السماع الآن ، وما

علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلته ؟ » ..

قال : « ان لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتي وحياة مولاي

الكونت يوليان ، وحياة كل قوطي ينتمي الى غيطشة ، وكل من

لا يرضى ان يعيش ذليلا بين يدي رودريك »

فقالت : « وما معنى ذلك ؟ »

فوضّح لها الحقائق باختصار ، الى ان قال : « اعلمى يامولاتي

ان بقاءك وبقاء والدك وبقاء الأمير الفونس نفسه يتوقف على

انتصار العرب وخذلان رودريك ، وذلك معلق بارادة الفونس

فاذا غادر معسكر رودريك ، وانضم الى العرب هو ومن معه

انخذل رودريك لا محالة ، وخلصت البلاد من شره . ولكن يظهر

انه مطيع لعمه .. وهذا يطلب اليه ان يناضل مع رودريك ، فاذا

اطاعه كانت العاقبة وبالا علينا جميعا ، والعياذ بالله «
فأعظمت فلورندا أمر الفونس ، ولكنها ظلت ترجو أن ينصاع
لقولها ، فعزمت على ان تكتب اليه كتابا شديد اللهجة تستجمع
فيه كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت
لسليمان : « سأكتب اليه كتابا فهل تحمله اليه ؟ »
قال : « نعم يامولاتى انى رهين هذه الخدمة »
قالت : « اذا اصبحت فتعال ، فأدفع اليك الكتاب فتحمله
اليه ، وأرجو ان يكون نافذا بعون الله »
فاستبشر سليمان بذلك ومضى ، وكان الفجر قد دنا فتوجه
حصيرا في عريش صاحب الكرم التماسا للراحة ، فغمضت عيناه
ولم يستيقظ الا على أصوات الطبول والأبواق ، فنهض وقد
أجفل وأطل على المعسكرين ، فرأى معسكر القوط يموج بالرجال
وقد أخذوا يصطفون للقتال وأمامهم الرايات والأعلام ، وفي
وسطهم موكب الملك رودريك بمظلته وسريره وفرسانه واعوانه .
والتفت سليمان الى معسكر العرب فاذا هم في حركة كأنهم
يهمون بالدفاع ، فأسقط في يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال في
نفسه : « فانت الفرصة » وقد زاد من تشاؤمه ما شاهده من
الفرق العظيم بين عدد جند القوط وجند العرب ، ومقدار ما عند
القوط من العدة والخييل والمثونة ، فوثب من مكانه ووثب النمر
وأسرع منحدرًا نحو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان الى
الفونس فوصل الى المعسكر وهو يلهمث من التعب ، فرأى

المسلمين وأكثرهم من البربر وقد اصطفوا للحرب وعلى رؤوسهم
العمايم البيضاء تقيهم حر الشمس ، وتلقى عن رؤوسهم مواضي
السيوف وحداد السهام كأنها درع للرأس ، وفيهم حملة الرماح
وحملة الحراب ونقلة القسي العربية . وأما الفرسان فقد كانت
عليهم دروع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذات لا يظهر من
وجوههم غير الحدق وفي مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها
الآيات . ولم يصل الى الخيام حتى سمع أصوات التكبير والتهليل
وما فيهم الا من قرأ الفاتحة ، والتفت سليمان في وجوه الناس
فلم ير بينهم من يبالي بما سيلاقي في تلك المعركة من خير أو شر..
وانصرف سليمان بذلك المنظر مدة عن يوليان ، ثم تذكر ما جاء
به فانخرط في صفوف الجند وهو يتطلع ويتشوق فلم يجد
يوليان . فسأل عنه بعض الوقوف ، فقالوا له : « انه ركب في
اثر طارق يستحثان الجند على الثبات » ولم يكذ يتدبر ما سمعه
حتى رأى فرسانا قادمين من بعض اطراف المعسكر يتقدمهم فارس
عليه درع سليمانية ، وعلى رأسه عمامة كبيرة وليس على وجهه
درع فظهرت سماته وبانت ملامحه

فنظر اليه فاذا هو طارق بن زياد قائد ذلك الجند ، وكان
سليمان قد رآه غير مرة وعرف هيئته ، ولكنه لم يره من قبل مثل
ما رآه في تلك الساعة فخيّل له وهو ينظر اليه انه جبل على فرس
وقد أزاح عمامته الى ما وراء جبينه فبان من تحتها جبين عريض
تحت حاجبان غليظان تحتهما عينان قد احمر بياضهما من الجهد

وله شفتان غليظتان ، وشعر لحيته شديد السواد الا شعرات قليلة بيضاء .. وكان العرق يتصبب من جبينه الى لحيته وهو لا يبالي بمسحه ولا يتلفت الى شيء أو يتفرس في رجل ، ولكنه كان ينظر الى الجند اجمالا كأنهم رجل واحد . وقد أمسك عنان جواده ييساره واستلّ حسامه يمينه وقد حسر عنها كفه فبان زنده اسمر شديد السمرة ، ولم يكن جواده أقل حماسة منه بل كان يستوقفه طارق فلا يقف الا وهو يتحفز للجري وقد بلّ العرق صدره ورأسه وتصبب عن خديه حتى اختلط بزبد شذقيه . وكان لونه كلون الليل الخالك

فتهب سليمان من منظر ذلك البربري الهائل ورأى بجانب طارق فارسا يختلف عنه لونا وسحنة ويشبهه حماسة واقداما وبسالة ، ولكنه أصغر منه سنا وأكبر نفسا . فتتجى سليمان جانبا ريثما يمر طارق ورفاقه لعله يرى يوليان بينهم فيخلو اليه ويطلب منه الكتاب ، فاذا بطارق قد وقف وتحول بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه ورفع يمينه والسيف مبلول في قبضته . فأدرك الناس انه يهم بالكلام فأصغوا فاذا هو يقول ، بعد حمد الله والثناء عليه ، وحث المسلمين على الجهاد وترغيبهم فيه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر

» واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الأيتام في مأدبة اللثام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته



« ولم يكد سليمان يتدبر ما سمعه حتى رأى فرسانا قادمين من المعسكر
يتقدمهم فارس عيسه دوع سليمانية ، وعلى رأسه عمالة كبيرة ... »

موفورة وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألفت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت ..

« واني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولأحملنكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس . أبدأ بنفسى . واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألد طويلا .. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد اتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واستباحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على مايكون لكم ذكرا فى الدارين

« واعلموا انى اول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، واني عند

ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون » (١) وما فرغ طارق حتى تعالت اصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم وشعر سليمان عند سماعه ذلك الكلام بما فيه من بواعث الحماس ، ولكنه قلق لضياح الوقت ، وأوغل فى الناس يسأل عن يوليان ، فرآه فى جملة الركب مع طارق فأسرع اليه . فرآه يوليان فاستدناه منه فجاءه ، فقال يوليان : « استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر »

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياح الفرصة وقتل راجعا الى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا ، وكان يعتمد عليه فى تغيير تفكير القونس لما سيحويه من عبارات مثيرة للعواطف . فوصل الى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلم والكتاب فى يدها فتناوله ولم يفثه بكلمة ، محافظة على الوقت ، وهرول ليلوى على شىء وهو فى قيافة وهياة لا يشك الذى يراه انه من رجال رودريك ، وكانت الشمس قد تكبدت السماء وأطلت على معسكر القوط فانعكست أشعتها عن ملابسهم وبنودهم وخوذهم ولاسيما عن موكب رودريك . فجعل سليمان طريقه من وراء

الجند والناس في شغل لما هم فيه من التأهب ، فرأى جند القوط قد ترتب على هيئة كراديس مثل نظام جند الروم . وكان العرب الى ذلك العهد لا يزالون ينظمون جيوشهم صفوفًا متراصة (١) وكان جند رودريك مؤلفًا من ميمنة وميسرة ، يقود كلا منهما قائد كبير أحدهما الفونس قائد الميسرة وأما القلب فكان قائده رودريك نفسه ومعه الكونت كوميس ، وقد جلس رودريك على سريره وفوق رأسه رواق من ديباج يظله ، وهو في غابة من الينود والأعلام وبين يديه المقاتلون بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة . وأما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والياقوت والزبرجد ، حتى خفّقه فانه كان من الذهب المرصع (٢) فأعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط ، وأين جلوس رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد . على انه رأى في موكب رودريك رجلا طويلا واقفا على دكة مرتفعة عليه ملابس الكهنوت وقد رفع يديه نحو السماء وفي أحدهما صليب مرصع ، ورفع صوته في الصلاة ليتضرع الى الله لينصر جند القوط . فعرفه سليمان من طول قامته وقوة عارضته انه اوباس . فوقف بالرغم عنه ، فرآه لما فرغ من الصلاة والتضرع قد أخذ في حث الناس على الصبر والاتحاد وذكرهم بمجد آبائهم وشدة بطشهم ، وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم .. ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعا حتى وصل

٣١٧

الى مسيرة الجند.. وكانت عيناه مضطربتين تبحثان عن يعقوب
ليدفع الكتاب اليه ، فلم يجده في مصاف الجند ، فتحول للتفتيش
عنه في الخيمة . فلما وصل الى الخيمة رأى ببابها رجلا في مثل
زى الجند ، لكنه لم يكذ يتفرس فيه حتى عرف انه من رجال
يوليان . فعلم انه هو الذى نقل رسالة يوليان الى الفونس ،
فلما وصل اليه قال له ، بحيث لا يسمعه أحد سواه : « هل أتيت
برسالة يوليان ؟ .. » قال : « نعم ، والفونس في هذه الخيمة
يتلوها وعنده خادمه »

- ٧٥ -

مغالبة العواطف

وكان الفونس منذ أتاه كتاب اوباس ، وهو يغالب عواطفه
ويقدر عواقب تلك الحرب ، فلا يرى في ذلك الثبات خيرا ،
ناهيك بما فيه من الخطر على فلورندا وأبيها.. وكان كلما تصوّر
فلورندا مصابة بسوء اقشعر بدنه . وكان منذ قرأ كتابها الى
والدها في تلك الغرفة المظلمة وهو يبحث عنها فلم يقف على
خبرها ، ولم يكن يستطيع الاستمرار في البحث خوفا من
رودريك ، ثم سمع بقدوم العرب وايقالهم في بوتيفة ويوليان
رائدهم ، وكان في عزمه ان ينضم اليهم اذا لم يكن انتقاما من
رودريك فاكراما لفلورندا . ثم جاءه كتاب اوباس فأثر على

تفكيره تأثيرا عظيما كأنه استهواه بالتنويم المغناطيسى . على ان عند بعض الناس قوة يتسلطون بها على آراء من يخاطبونهم ، لا يتعبّر عنها بغير الاستهواء .. وكان اوباس من أكثر الناس تسلطا على الآراء ولا سيما على ابن أخيه الفونس مع ما علمت من ضعفه فأصبح الفونس بعد تلاوة ذلك الكتاب كأنه في بحر لا قرار له ، يشعر من جهة بأنه يجب ان ينزل عند مشورة عمه ، ويرى ذلك من الجهة الأخرى مخالفا لعواطفه ومناقضا لمصلحته حتى اذا أتاه الأمر من رودريك ان يوافيه الى شريش زاد تمكنه من رأى عمه واشتغل بالحرب والاستعداد لها ، وصورة فلورندا مع ذلك لم تبرح مخيلته ، ولكن عواطفه كانت مقيدة بسلطان عمه وأصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر ، وقد نسي الابتسام واغفل الاجتهاد وسلم أسره الى الأقدار

ولما جاء رودريك بالأمس وعسكر هناك سلم الى الفونس قيادة ميسرة الجند (١) وأمره أن يكون على استعداد للهجوم في صباح ذلك اليوم . فبكر الفونس في الفجر وأمر قواده فرتب كل منهم فرقته في موضعها ، ودخل الفونس خيمته ليلبس درعه ، وكان يعقوب يرافقه وعيناه شائعتان يترقب مجيء سليمان أو خبرا من عنده حتى خشى أن تضيع الفرصة .. فاذا هو برجل من بين الناس لحظ يعقوب من عينيه انه يحمل خبرا سريا ، وكان ذلك الرجل يعرف يعقوب فطلب اليه مقابلة الفونس فقال : « وهل

(١) وفي التاريخ انه تولى ذلك مع اخوته

معك كتاب اليه ؟ وممن ؟ »

قال : « معى رسالة من الكونت يوليان » ومد يده ودفع اليه لفافة من جلد فتناولها يعقوب ودخل وحده ولم يكن فى الحيمة غير الفونس فلم ينتبه له ، فأقبل يعقوب حتى دنا منه وتنحج نححة تعود الفونس ان يكون من ورائها خبر هام . وكان قد خلع قباءه ونزع قبعته واخذ فى لبس الدرع فبدأ بالجزء الذى يكسو الصدر والظهر وهم بلبسه وقد علق حواشيه بأطراف صفائر شعره المسترسل على كتفيه فأخذ فى تخليصها . فلما سمع نححة يعقوب التفت اليه فاذا هو يحمل بيناه لفافة مختومة وقد جعل يسراه على صدره ، فتناول الفونس اللفافة وفضها فأخرج منها ورقا مكتوبا ، وما أن قرأ فيه اسم يوليان حتى خفق قلبه واستيقظت عواطفه وتصاعد الدم الى وجهه وبانت البغته فيه وبخاصة بعد أن أتم تلاوته . وكان يعقوب واقفا أمامه وقد أسند يديه متصلبتين على صدره ، فدفع الفونس ذلك الكتاب اليه كأنه يستشير فى أمره . فتناول يعقوب الكتاب وقرأه فاذا فيه :

« من يوليان كونت سبتة الى الأمير الفونس

« لا حاجة بى أيها العزيز الى اطالة الشرح فى المصائب التى

توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغي فضلا عما تعلمه من تعديه على المثلثك واخراجه من أيدي أهله بقتل المرحوم والدكم . فكرسى الملك لبيت غيطشة وانت أرشدتهم جميعا .

ولم يكتف بتعديه على الحقوق ولكنه تجاوزها الى الاعراض ،
فمن كان هذا شأنه فكيف يطاع أمره . والعرب يا الفونس دولة
جديدة ملكت الخافقين بالعدل والرفق ، وهي ستنتصر على
رودريك لا محالة لأن أهل مملكته كلهم ضده ، حتى أقرب
اقربائه ، والذي ينصره إنما ينصر الظلم والغدر ... وانت تعلم
انى ضنين بك شفيق عليك لما بيننا من رابطة النسب الصحيح
فاذا أطعنتى وانضمت الى جند العرب فانى ضامن لك كل
ضياح المرحوم والدك فى الاندلس وهى ثلاثة آلاف ضيعة (١)
قد سلبكم رودريك اياها،وعندئذ تعود انت وسائر آل غيطشة الى
ما كنتم عليه من العز قبل استبداد هذا الطاغية ، وانما كتبت هذا
اليك رفقا بك وشفقة عليك ، والسلام »

وكان يعقوب يتلو الكتاب والفونس مطرق وشعره لا يزال
مسترسلا على كتفيه وقد علق بعضه بهداب الدرع ، فلما فرغ
يعقوب من قراءته نظر الى الفونس وقال : « وما رأى
يامولاي ؟ » ..

قال : « رأى ؟ .. انت أدري منى بما كتب به الينا عمى
الميتروبوليت اوباس فهل أعصى عمى وأطيع يوليان .. ؟ »
فقال يعقوب وهو يحك قفاه : « لا أشير عليك بشيء فانك
أدري بالصواب وأنا معك الى الممات . ولكننى أستغرب ذلك
الرأى من اوباس وهو أعلم الناس بما أصابك وأصاب سائر

القوط من هذا الطاغية ، ولولا اعتقادي بقوة عقل اوباس وصحة بدنه لقلت انه يتكلم عن خرف . على اني لا أحسبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه ، وعلى كل حال فالرأى لك » فقال الفونس : « كيف تقول انه ندم وأنا لا أجتمع به الا حرصني على الثبات ، ولا يزال صوت خطابه يرن في آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر في ساحة الحرب ، واوباس — يا يعقوب — لا يقول قوله جزافا ، ولولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعني اليه .. »

فقال يعقوب : « عمك الميتربوليت ب — يامولاي — حكيم وفيلسوف .. ولعلك اذا سمعت مني ذلك تقمت على وشككت في أمري . ولكن دع ذلك عنك واعمل بمشورة الكونت يوليان فانه والد فلورندا ، وهو انما ركب هذا المركب الحشن في سبيل الدفاع عن ... »

فمد الفونس يده وسد بها فم يعقوب بلطف وهو يقول : « يكفي يا يعقوب فاني عامل برأى عمي لأنه لايجعل شيئا نحن نعلمه ، وهو أدري مني ومنك بالأسباب التي حملت يوليان على ذلك . وقد آن لى أن أخرج لقيادة الجند » وعاد الى لبس الدرع فيئس يعقوب منه وظل واقفا وهو يحك أنفه بطرف سبابته فسمع نحنة سليمان خارج الخيمة فاستبشر وخرج فدفع اليه سليمان كتابا قال له : « انه من فلورندا » فدخل به على الفونس فتناوله وفضه وحين وقع نظره على الخط علم انه من فلورندا

فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته وظهرت البغته في وجهه ، وارتعشت انامله حتى ظهر ذلك في اهتزاز الكتاب ، ثم امتد الارتعاش الى كل أطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر ، ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل . أما الفونس فقرأ الكتاب فاذا فيه :

« أكتب اليك على قطعة من ردائي بمداد من دمي وهو الرداء الذى قابلتك به فى حديقة القصر ، وقد تمزق تلك الليلة بين يدي رودريك دفاعا عن جوهرة هى لألفونس أكثر مما هى لى . وقد أرسلت اليك مع حامل هذا بعض ما تنثر من شعرتي فى اثناء ذلك الدفاع . ناهيك بما علق منه بتلك الشجرة اليابسة تجاه نافذة قصرى وأنا هاربة من الوحش الكاسر . هذا هو رودريك الذى أراك اليوم تحارب بسيفه وتدافع عن عرشه لتحفظ له ملكا اختلسه من أيبك وتستبقى له يدا سيمدها ثانية الى خطيبتك . الى فتاة تزعم انك تحبها وقد فاتك انك ذاهب بها وبأبيها وسائر أهلك وأهلها الى الدمار . وكأنى بك لم تعلم بما ارتكبه رودريك أو عزم على ارتكابه ، فاعلم انه أراد ابتذال عفتي وهتك عرضي فهددني وخوفني وأمّلتني ومنّاني وأراني السعادة فى طاعته ، والشقاء فى عصيانه ، ولم يصنع الى بكائي ولم يرق لتضرعي . فعصيته وآثرت الشقاء حبا لألفونس ومحافضة على وده ولعل طول البعد أنساك عهودك على ضفة نهر التاج يوم مسست شعر رأسك بأناملك ، وقلت ان بقاء هذا الشعر حرام عليك ان لم تف بقولك . أهذا هو الوفاء ؟ كأنك تعهدت بقتلى وقتل والدى

وسائر أهلك وأهلى .. وكأنك أقسمت أن تؤيد سلطان هذا
الباغى ... فاذا علمت ما ذكرته لك وتذكرت ماضى عهودك ورأيت
البقاء عليها فاترك رودريك وجنده وتعال الى فوق هذه الراية
فى مستودع الخمر بين المعسكرين أو الى والدى فى معسكر
العرب . وأما اذا كنت لا تزال على نصرة ذلك الظالم وكان لحب
فلورندا بقية فى قلبك فلا تتركنى أموت قبل أن أراك وأشكو
اليك جفاك وأخاطبك وأعاتبك ، والعين على العين ، وأتزود منك
بنظرة أنسى بها ذلك الشقاء . واذا ضننت حتى بهذا فأستودعك
الله الى أن نلتقى بين يدى الديان العظيم ومعنا رودريك يشهد
على نفسه وعليك ، والسلام «

« فلورندا »

ما قولك فى الفونس بعد تلاوة ذلك الكتاب ومشاهدة شعر
فلورندا وقد علمت حبه لها واستسلامه لهواها .. انه ما ان فرغ
من تلاوته حتى أحس كأنه استيقظ من نوم ، أو هى عواطفه
تنبتهت من غفلتها أو انحلت من قيود الاستهواء فاستولى عليه
سلطان الغرام فأنساه اوباس وكتابه وحكمته وآدابه . والحب
سلطان نافذ الكلمة ماضى القضاء ، غالب على كل سلطان يستذل
الملوك ويحطم سيوف القواد ويحير عقول الفلاسفة والحكماء ..
ظل الفونس بضع دقائق مطرقا كأنه غائب الرشد ، ولم يبق فى
خيلته إلا صورة فلورندا بثوبها الأرجوانى الذى رآها فيه
المرءة الأخيرة ، وبشعرها الذهبى داخل تلك الشبكة وفى يده من

كليهما بعضه . وتذكر ما دار بينهما من التشاكي والعتاب وما تعهد لها به من أسباب السعادة باخراج المثلثك من رودريك . وتعاضم خجله واضطرابه حتى توهّم انه يسمع صوت توبيخها وتعنيفها ويرى دموعها .. وكان يعقوب واقفا بين يديه فلما رأى اضطرابه وتأثره خرج من الخيمة تأدبا ليخلو الفونس لنفسه ، فلما خرج لقيه سليمان وكان واقفا هناك على أحر من الجمر .. فسأله بالاشارة فأجابه يعقوب باطباق عينيه ان الحيلة أوشكت أن تنجح ، وفيما هما واقفان رأيا فارسا مسرعا نحوهما وفي يده شيء فتقدم يعقوب نحوه للسؤال عن غرضه ، فاذا هو من أتباع اوباس فلما تلاقيا تعارفا ، فسأله يعقوب عن غرضه فقال انه قادم بكتاب من اوباس الى الفونس . فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة ان يكون فيه ما يفسد تلك الحيلة ، فعمد الى الاحتيال فقال : « ان مولاي الأمير يغير ثيابه ولا يستطيع احد الدخول عليه » ..

قال : « انى مكلف بتسليمه هذا الكتاب حالا »

قال : « هاته وانا أدخله عليه بعد قليل »

فدفعه اليه وانصرف وهو لا يشك انه أتم مهمته . أما يعقوب فانه تظاهر بدخوله الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فاذا هو بخط اوباس ونصه :

« لا يخدعك اليهود بدسائسهم فانهم انما يريدون مصلحتهم وليست هي في بقاء المملكة للقوط . اثبت في الدفاع عن الوطن

كما هو ظنى فيك ، واصنع الى قولى فانى بمنزلة أيبك »
فلما قرأ يعقوب الكتاب أصبح الضياء فى عينيه ظلاما ،
وعجب لتيقظ اوباس واقتباهه . وأدرك انه اذا لم تنفذ حيلته فى
تلك الساعة ذهبت مساعيه ومساعى سائر اليهود هباء منثورا .
فاستقدم سليمان وأطلعه على ذلك الكتاب وتفاوضا ، فأقرا
كنمانه عن الفونس ، وان يعجلا بالعمل قبل ان ينشب القتال
فدخل يعقوب فرأى الفونس جالسا على وسادة هناك ، وهو
لا يزال مطرقا ، ولم يتم لبس الدرع وشعره لا يزال مسترسلا
على كتفيه . فلما دخل يعقوب انتبه الفونس لنفسه ، فوقف وفى
خاطره أن يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعه ،
فابتدره يعقوب قائلا : « ان الرسول لا يزال واقفا فى انتظار
الجواب ، وقد أمره صاحب الكتاب أن يعود سريعا »
فخطر لألفونس أن يرى الرسول ويسأله شيئا لعله يتخلص
من ذلك التردد فقال : « أدخله على »
فخرج واستقدمه فدخل سليمان وسلم متأدبا فسأله الفونس
قائلا : « هل رأيت كاتب هذا الكتاب ؟ »
قال : « نعم يامولاي .. »
قال الفونس : « ومن هو ؟ وماذا تعرف عنه ؟ .. »
فأشار سليمان بعينه نحو يعقوب كأنه يخفى أمرا لا يريد
التصريح به بحضوره فأشار الفونس الى يعقوب فخرج . فتقدم
سليمان الى الفونس وقال : « أسمح لى يامولاي أن أصرح

بما أعلمه ؟ » ..

قال : « قل .. »

فقال سليمان : « انى من أصدقاء الكونت يوليان صاحب سبته وقد كلفنى أن أصحب ابنته فلورندا من دير كانت فيه قرب طليطلة فوصلنا بالأمس »

فقال الفونس : « وأين هى الآن ؟ »

فقال سليمان : « هى على مقربة من هذا المعسكر »

قال : « ولماذا لم تذهب الى والدها ؟ »

فأطرق سليمان وتظاهر بشيء يمنعه الحياء من ذكره فازداد الفونس رغبة فى الاطلاع عليه ، فقال : « قل كل ما تعرفه ولا تخف شيئا .. » ..

فرفع سليمان نظره الى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع فى عينيه وقال : « ماذا أقول - يامولاي - ابن فلورندا أصبحت فى حال يرثى لها من الضعف ولم أرها يوما واحدا فى أثناء رجوعها غير مبللة العينين . وكنت أظنها تفعل ذلك شوقا الى والدها فجعلت أمتيها بقرب لقائه فلا تزدد الا بكاء ، ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها أبت الذهاب اليه حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن أخرى انها مخطوبة لك وسمعتها تقول انها تريد المجيء اليك ولو كنت فى ساحة الحرب ... لم أر فى حياتى مثل هذا الحب فانها لم تبال بأبيها فى سبيل لقائك . ولا أخفى على مولاي اننى عرفت

٣٢٧

ذلك رغم كتمانها إياه عن كل البشر . وهى التى سلمت هذا الكتاب الىّ وأوصتنى بأن أعود إليها بالجواب حالا وهى تبكى..» قال ذلك وتساقطت عبراته كأنه يبكى بكاء صادقا فلم يستطع الفونس غير ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول ونفخ الأبواق فى المعسكر فعلم انهم شرعوا فى القتال فدق قلبه ورأى انه لابد له من القطع فى أحد الأمرين . فتشاغل بلبس درعه واصلاح ثيابه وقد غلب عليه أن يتبع هوى قلبه ويطيع فلورندا ، ولكن الحياء كان يمنعه

- ٧٦ -

الحب غالب

وبينما هو فى تلك الحيرة اذ دخل الخيمة رجل بملابس الكهنوت ، وهو يهرول ويتمتم ، فنظر الفونس اليه فاذا هو الأب مرتين بملابسه الرسمية الملونة الموشاة ، وعلى صدره صليب مرصع والغضب باد على وجهه ، ولم يكن الفونس يحبه ولا يحترمه ، فلما رآه داخلا على تلك الصورة تلقاه بالسؤال قائلا : « كيف تدخل خيمتى قبل أن تنبهنى الى ذلك مع خادمى ؟ » فقال مرتين وهو يتمتم كالعادة : « أى خادم تعنى ؟ ومتى كان الأب مرتين يستأذن قبل الدخول ؟ أين الكتاب الذى جاءك من عمك الآن ؟ ولماذا تخلفت عن القتال وأنت قائد ميسرة الجند ؟ »

فأكبر الفونس أسئلته على تلك الصورة وكبر عليه أن يعتذر
عن سبب تخلفه أو أن يصرح بعدم وصول الكتاب اليه فقال :
« وما شأنك وحضوري القتال أو ما يرد على من الكتب من
عمى أو من غيره ؟ » ..

فحمى غضب مرتين ولم يعد يعي ما يقوله ، وقال : « ان لى
فيه شأنا تعلمه . واذا كنت لا ترى ذلك من شأنى فلا أظنك
تنكره على جلالة الملك .. صاحب هذا الجند وقائده الأكبر .. »
وكان سليمان واقفا فى أحد أطراف الخيمة بحيث تقع عيناه
على عيني الفونس ، وكلما قال مرتين قولاً أشار سليمان بشفتيه
وحاجبيه إشارة الاستخفاف والاستياء ، واذا رد عليه الفونس
أبدى سليمان استحسانه وأعجابه بحميته وعزة نفسه . فازداد
الفونس استمساكا بذلك ، فلما عرض مرتين بذكر رودريك
وسلطانه زال حياء الفونس مما كانت نفسه تحدثه به ، ولم يكن
جوابه الا الخروج من الخيمة مسرعا الى جواده ، فامتطاه وحوّل
شكيمته نحو ميسرة الجند وهو يقول : « سوف ترون من هو
صاحب هذا الجند وما هو مصير أهل البغى . وقد كنت أتردد
فى الذهاب وحدى فما أنا ذاهب مع جندى »

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلألأت السيوف وعلا
ضجيج الرجال وصهيل الخيول وصلصلة اللجم ودبدة العجلات
ومقارعة السيوف . والملك فى قلب الجيش وحوله فرسانه
وأعلامه وبنوده ، وأوباس يطوف بالجيش على جواده وقد نزع

٣٢٩

قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره ، وأمسك بزمام الجواد بيسراه ورفع عيناه يحمل بها صليبا مرصعا وهو يستحث الجند على الثبات والصبر ..

وكان الفونس حينما ركب جواده وقعت عيناه على اوباس عن بعد ، فخشى أن يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه ، فساق جواده ولم يلتفت يئنه ولا يسرة حتى وصل فرقة فلاقاه ومبا وزميله قائدا الفرقة بعده فحدثهما ووعدهما خيرا ، وقد علمت انهما كانا يحبانه ويكرهان رودريك ، فأطاعاه وأمر الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب ، فضعف جند القوط واضطربت جوانبه

أما مرتين فانه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات اوباس ويلقى الشكوك لدى رودريك في اخلاصه وصدق نيته . فلما نزلوا سهل شريش واصطف الجند للقتال رأى الفونس قد تأخر عن الخروج للحملة ، ثم رأى اوباس يدفع الى أحد حاشيته كتابا سار به الى خيمة الفونس فظن سوءا ، وأسرع الى الملك فأراه الرسول راكبا الى تلك الخيمة ، وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج الفونس وسليمان وبقي هو في الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به ، فالتفت الى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب اوباس ، فاذا هو كتاب فلورندا وقد نسيه الفونس هناك لغضبه وتسرع ، ففرح مرتين بذلك الكتاب فرحا شديدا ، وعرف

منه أين تقيم فلورندا .. ولكنه ظل يعتقد (أو يريد أن يعتقد) ان اوباس كتب إليه بالانضمام الى العرب وخرج مرتين من الخيمة ونظر الى الجند فرأى الفونس وفرقته يسرون نحو معسكر العرب فركض الى رودريك وكان لا يزال على سريره في وسط موكبه ، فنظر الى مرتين فاذا هو يشير بأصبعه الى الفونس ورجاله ، فلما رأهم رودريك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استشاط غضبا وقال : « ما الذى غيّرهم ؟ » قال : « غيّرهم كتاب حضرة الميتروبوليت ، وقد قلت لك انى لم أكن أطمئن بظواهره ، فأمر بالقبض عليه الآن وأسجنه قبل أن يفر هو أو يحرض باقى الجند على الفرار » فأمر رودريك رئيس حرسه ان يقبض على اوباس حالا ، فأسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لتنفيذ أمر الملك ..

أما مرتين فلم يشتف غيظه بالقبض على اوباس فأراد أن ينتقم من الفونس ، فاغتتم فرصة غضب رودريك ودفع اليه كتاب فلورندا قتلاه وهو ينتفض من شدة الغيظ لما حواه من الطعن فيه والتحريض على أذاه . فلما فرغ من تلاوته أصبحت لحيته ترقص على صدره وأنامله ترتجف وصاح في مرتين : « أين هو المستودع الذى تقيم فيه هذه الفاجرة ؟ »

فأشار مرتين الى المستودع وهو يقول : « أظنه هذا .. » فأمر رودريك كوكبة من فرسانه أن يذهبوا للقبض على من فيه ويسوقونهم اليه أحياء أو أمواتا

- ٧٧ -

فلورندا وبدر

أما فلورندا فظلت بعد ذهاب سليمان من عندها في ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكناته ، وكان أكثر اهتمامها بالميسرة لعلمها ان الفونس هناك ، ولا تسئل عن اضطرابها وقلقها . فلما رأت الميسرة تهرع الى معسكر العرب اطمأنت وأيقنت بالفرج ورقص قلبها طربا . وكانت الخالة واقفة الى جانبها ونظرها قصير فأخبرتها بما رآته فشاركتها الفرح ، وكان اجيلا وشاتتيلا واقفين على مرتفع بجانب المستودع يراقبان حركات القتال فلما رأيا ميسرة القوط انضمت الى العرب أسرعا الى فلورندا فأخبراها ، ففرحوا جميعا ووقفوا يتحدثون بما شاهدوه كل منهم في أثناء المعركة مما لم ينتبه له الآخر ..

وبينما هم في ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد أسرع ومعه بعض غلمانه وأطفاله يركضون حتى صعد المستودع وهو يصيح : « أين سليمان التاجر ؟ .. فانه وعدنا بالحماية »

فأطلت فلورندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان القوط يدفعون خيولهم بين الدالية ، لايبالون بتكسيروها ، حتى وصلوا الى المستودع وفي أيديهم السيوف مسلولة ، فلما رأتهم فلورندا علمت انهم من رجال رودريك فاصطكت ركبها وارتعدت

فرائصها وصاحت : « اجيلا .. شاتتيلا .. »
وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صوتها ولم يباليا بكثرة
الفرسان القادمين عليهما وساعدهما على ذلك أولاد الشيخ
ونسأوه ، وعلت ضوضاء النساء والأطفال وفلورندا واقفة في
النافذة مع خالتها وهي تقرع صدرها وتصلي الى الله ان ينجيها
وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم أن يدفعها عنها
ذلك الشر . ثم نظرت الى أسفل المستودع فرأت اجيلا وشاتتيلا
قد وقعا قتيلين بعد أن قتل بضعة من رجال رودريك فحزنت
عليهما حزنا شديدا . ولكنها أصبحت في شغل من نفسها ، ولم
تجد من تستغيث به غير الله فجثت في وسط المستودع وكشفت
صدرها وحلّت شعرها ونظرت الى السماء وجعلت تقول ، وهي
تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها مخنق من شدة البكاء :
« الهى أنت نصير الضعفاء ، يا الهى انت منقذ المظلومين . اللهم
اشفق على صباى واحمنى من هؤلاء الظالمين اكراما لدم ابنك
المسفوك على الصليب » . ثم اختنق صوتها وبلعت ريقها وعادت
الى الصلاة وهي لا تبالي بدبدبة الأقدام على السلم الخشبي
المؤدى اليها ، ولم تلتفت الى شىء مما حولها ، وانما وجهت
حواسها وعواطفها وأفكارها كلها الى السماء وهي على ثقة تامة
ان الله لا يتخلى عنها ، وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد
طلباتها وتؤمن عليها
أما الفرسان فانهم قتلوا الشابين وبضعة من أولاد الشيخ

وصعدوا الى المستودع صعود الذئاب الخاطفة ورئيسهم يتقدمهم وهو من أهل بلاط رودريك ، وكان قد شاهد فلورندا في طليطلة غير مرة ، فلما رآها في المستودع لم يعرفها لما طرأ عليها من التغيير بسبب الأسفار ، ثم ما كان من تغيير حالها في تلك الساعة وهي محولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين ، وقد توردت وجنتاها من اللطم والصفع ، واحمرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء ، وكان الدمع قد بلل وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلل شعرها وقمصها .. فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه فتقدم اليها وأمسكها بزندا وجذبها نحوه ، فالتفت اليه فرأت بيده الأخرى سيفا لا يزال يقطر دما ، وقد تلطخت أنامله الأخرى بالدم ، فلما شاهدت ذلك ازدادت رعبا ولكنها تجلدت وقالت : « ماذا تريدون ؟ .. »

قالوا : « نريد أن نمضى بك وبمن معك الى الملك رودريك » فلما سمعت اسمه صاحت : « لا .. لا .. لا أذهب اليه .. » فقال لها الفارس : « سيري برضاك ، والا أخذناك قهرا ولا اظنك تستطيعين النجاة من أيدينا ونحن جماعة » قال ذلك وصاح في رجاله فقبضوا عليها بيديها وجروها ، والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب ، حتى نزلوا من المستودع فأركبوها فرسا وأركبوا خالتها فرسا آخر وساقوهما ، وفلورندا لا تزال محولة الشعر مكشوفة الصدر محمرة الوجه دامعة العينين وهي

تستغيث بالله وتستنصره على القوم الظالمين ، والفرسان لا يبالون بصياحها ونحيبها حتى انحدروا من تلك الأكمة وابتعدوا الى ساحة الحرب . فوقع نظر فلورندا على رودريك في موكبه وقد حمى وطيس الحرب والتحم الجيشان بين فارس وراجل واختلط المسلمون بالقوط .. والمسلمون يعرفون بعمائمهم البيضاء . وقد ضعف القوط حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنفسه

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة ، فودعت لو ان نبلا من النبال المتساقطة يصيب صدرها فينجيها من رؤية رودريك . ثم التفتت فرأت فارسا من جند المسلمين يجول في الممعة على مقربة منها وهو صبح الوجه متناسب الملامح ، ولولا عمامته وملابسه العربية لظنته قوطيا ، وقد شد عمامته على رأسه شدا وثيقا واستل سيفه وأخذ يهاجم صفوف القوط فيبدها ، ثم التفت الى فلورندا فلما وقعت عيناه على عينيها صاحت فيه واستنجدته بلغة لم يفهمها ، ولكنه فهم ما تريد بإشاراتها وملامحها ، ووقعت من نفسه موقعا عظيما من أول نظرة وأسرع للدفاع عنها فحول شكيمة جواده نحوها وشهر سيفه وصاح : « ابشرى يا مليحة أذاك بدر .. لا تخافى .. »

وجاء في أثره بضعة من فرسان البرابرة يتلون آية التوحيد وفي أيديهم السيوف ، فلم يستطع فرسان رودريك الثبات أمامهم طويلا فلما خشوا اخفاق مساعهم أسرع أحدهم الى الملك يستنجد به .. فلم يلبث رودريك أن جاء بنفسه وقد غادر سريره

الى جواد مثقل بالزخارف وفيها المجوهرات على تاجه ونطاقه
وسيفه وقبائه حتى نعاله (١) وكذلك عدة الفرس فقد كانت
مرصعة ، والجواد من أجمل الخيول شكلا وقواما ولكن جواد
بدر يفضلته خفة وسرعة مثل سائر خيول العرب

وكان بدر قد شنت شمل الفرسان عن فلورندا حتى أوشكت
أن تنجم ، واذا برودريك قد أقبل بأثقاله فلما وقعت عينها على
عينيه صاحت هي وخالتها بصوت واحد : « هذا هو طاغية
القوط » ..

فتحول بدر اليه فعرفه من قيافته انه الملك وتبارزا ، وكان بدر
أنشط بدنا وأخف حركة فتجاولا وتصاولا ، وكان رودريك من
القواد المعروفين. وكانت فلورندا على جوادها وعيناها شاخصتان
الى الرجلين تتبّع كل حركة من حركاتهما ، وقد حبست أنفاسها
لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها
أو مماتها . فاذا هجم رودريك شاركت بدرا بتلقى ضربته وربما
رفعت يدها لتلقاها واذا هجم بدر أحست كأنها تهجم معه ، وهي
في الحقيقة واقفة في مكانها ، ولكن جوارحها كانت تشارك
نصيرها بكل حركة ... ثم ما لبثت أن رأت رودريك يستمهل
بدرا بالإشارة ، وكان بدر يود أن يقبض عليه ويسوقه الى طارق
أسيرا لينال بأسره فخرا . فلما رآه يستمهل أجابه بالإشارة

(١) نفع الطيب - الجزء الاول

أيضا أن يمضى معه الى معسكر المسلمين . فأجابه انه سيفعل ذلك بعدئذ ، ففهم بدر أنه ينوى قضاء حاجة قبل التسليم فأطاعه على غير حذر ، وقد يكون استمهاله خدعة ينوى الفرار بها ولكن بدرا كان مستخفا بالرجل ومعتدا بنفسه . فحول رودريك شكيمة جواده نحو خيامه فالتفت بدر الى رفاقه وكلمهم بالبربرية أن : « خذوا هذه الفتاة الى خيمتي » واقتفى أثر رودريك ..

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما رأوا ملكهم فارا ركنوا هم أيضا الى الفرار . أما بدر فما زال يتعقب رودريك ، ورودريك يجول في معسكره كأنه يفتش عن ضائع وبدر يتبعه ويعجب من مسيره على تلك الصورة حتى انتهى الى خيمة خرج منها كاهن امتطى فرسا وهم بالفرار ، فصاح رودريك فيه : « مرتين .. » فالتفت مرتين واقترب من رودريك فابتدره رودريك بسيف كان مسلولا في يده وهو يقول : « كل هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رأيك » فأصابت الضربة عنقه فوق مضرجا بدمه فتركه صريعا وساق جواده نحو الوادى وبدر يتبعه حتى وصل ضفة النهر وأظهر انه لم يعد يقوى على رد جماح جواده فأرسله في الماء فغرقا معا . ويقال انه فعل ذلك عمدا وفضل الموت غرقا على أن يقتله أحد من أعدائه (١) ..

فرجع بدر وهو يصيح : « قتل الطاغية .. قتل الطاغية .. »

(١) لم يتحقق المؤرخون كيف قتل رودريك ، ومن آرائهم انه غرق في ذلك الماء

فازداد المسلمون جرأة وأوغلوا في معسكر أعدائهم . ولم تمل شمس ذلك اليوم الى الأصيل حتى خلا المعسكر من القوط الا من وقع قتيلا أو أخذ أسيرا ، واستولى المسلمون على ما فيه من العدة والذخيرة والزاد والأمتعة والخيول والماشية وغير ذلك .. وكان طارق بن زياد في أثناء المعركة يجول على جواده ويحرض المسلمين على الثبات ويكافح ويجالد ويقا تل ، لا يبالى بقلّة رجاله بالنسبة الى رجال القوط ، وهو لم يكن يعلم بما كتبه يولي ان الى الفونس . ولكنه صمم على التفانى في سبيل الفتح كما رأيت من خطابه الذى ذكرناه .. على انه كان قد صمّم على الفناء في هذا السبيل منذ وطىء الأندلس فأحرق سفنه ليبذر اليأس من احتمال التراجع ، في نفسه وفي نفوس رجاله ، فتنمحي فكرة التعلق بها أو الالتجاء اليها اذا غلبهم القوط . ولذلك لم يكن يبالى بكثرة أعدائه أو قتلهم ، وانما كان همّه وهثم منّ معه الصبر والثبات ..

فلما رأى الفونس ورجاله ينضمون اليه شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح وحرص المسلمين على الثبات حتى قضى على القوط بالفرار كما رأيت .. وكانت تلك الموقعة الضربة القاضية على مملكة القوط ، قتل فيها ملكهم ونخبة من قوادهم

- ٧٨ -

التوبيخ

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا الى خيامهم أمر طارق بحمل الغنائم والسبايا والأسرى الى ما بين يديه على جارى العادة بعد كل قتال . فحملوا كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف وأكثرها من الصلبان والخواتم ، وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع وجاءوا بالأسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح . فتجمع من ذلك كله شيء كثير حتى أصبحت الأسلاب ركاما أمام الفسطاط ، والأسرى جماعات مشدود بعضهم الى بعض بأعناقهم أو أيديهم أو أرجلهم والرجال لا يزالون يأتون بهم زرافات ووحدانا

واجتمع قواد الجند أمام فسطاط طارق على بساط كبير افترشوه هناك ، وهو من جملة الغنائم ، فجلس طارق في صدر المكان والى يمينه الكونت يوليان والى يساره الأمير ألفونس ، وبين يديه كبار القواد وفي جملتهم بدر ... وكان ألفونس قد لقي يوليان ساعة انضمامه الى جند العرب وتحادثا مليا في شأن المملكة وما كان من أمر اوباس، وذكر افلورندا وانها مقيمة في المستودع حتى يرسلوا في طلبها وصمما على أن يستقدماها في صباح الغد بعد الفراغ من توزيع الغنائم والأسلاب .. وكان ألفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس في الأسرى لعله يرى اوباس بينهم وهو

لا يتوقع أن يراه أسيرا لعلمه انه يفضل الموت على الأسر
فلما تكامل اجتماع القواد ، وأسند طارق الى كبير منهم أن
يخمس الغنائم حسب العادة ، فيختص بيت المال بخمسها ويقسم
الباقى بين القبائل على حسب تعدادها ، وكان يقول ذلك
وامارات الاعزاز والفخار بادية على وجهه ، والفونس ويوليان
يتساءلان عن أمر اوباس هل قتل أو فر أو أسر ، وكلاهما
يستبعد وقوعه في الأسر واذا هم بجماعة من جند العرب يسوقون
رجلا طويلا شعره مسترسل غلى ظهره وكتفيه ، ولما دنوا من
الفسطاط تقدم أحدهم وهو يقول لطارق : « وجدنا هذا الأسير
مغلولا في مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به »
فقال : « الى به .. »

فأقبل اوباس وهو لا يزال كما كان في أثناء القتال محلول
الشعر وعلى صدره صليب ويده صليب . فلما وقع نظر الفونس
عليه نهض حتى وصل اليه ، فجثا أمامه وأكب على يديه وجعل
يقبلهما ودموعه تتساقط بلا بكاء ، وكذلك فعل يوليان ، وقد
امتزجت في وجهه امارات السرور بالنصر بامارات الخجل من
الخيانة . وتغلب على ذلك كله انقباض النفس من السويداء .
فانحنى على يد اوباس فقبلها وأمسك به ودعاه للجلوس في صدر
المكان . وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت أنظارهم الى
ذلك القادم وقد زاده هيبه وجلالا باسترسال ذلك الشعر
أما أوباس فانه كان ينظر الى الذين حوله بلا اكتراث . ولما

دعاه يوليان للجلوس أمسك عن مجاراته وظل واقفا في مكانه يتفرس في وجوه الناس . ولو استطاع ألفونس التفرس في عيني أوباس لرآهما تتلألآن ، ولم يخطر بباله انهما تتلألآن بالدمع لاعتقاده أن الطبيعة لا تستطيع قهره . وهى لا تستطيع قهر العاقل اذا استذل عواطفه ، وأخضعها لعقله ، فانه لا يرى في أحداث الحياة ما يدعو الى الحزن أو الى الفرح ، والحياة بجملتها نسمة من نسمات الوجود فما بالك بأعراضها ، ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح ... فلا تلومن أوباس على البكاء وقد رأى ذهاب دولة القوط من اسبانيا بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من تفادى ذلك ، حتى اذا كاد يدرك ما يريد ذهب مساعيه أدراج الرياح وجوزى جزاء سنمار . على أن أسفه ما لبث أن تحول الى انفعال ، فلما دعاه يوليان للجلوس توقف هنيهة ، ثم قال بصوت جهورى فيه خشونة من شدة التأثر: « تدعونى يا يوليان للجلوس فى مكان تحسبه بيتك وأنت قد خسرت هذا البيت فى هذا اليوم ؟ .. بعته يا يوليان بأرخص الأثمان وأنت تزعم أنك فعلت ذلك انتقاما من رجل ساقه ضعفه الى مس كرامتك فسقت نفسك وأهلك وسائر رجال القوط والاسبان - الى ضياع أنفسهم وأموالهم وأعراضهم - حتى ابتك التى ارتكبت هذه الخيانة غيرة على عرضها فقد ذهبت أسيرة فى يد رجل لا هو من دينك ولا من أمتك ولا من لغتك » وكان أوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب مع انهم

لم يكونوا يفهمون ما يقول ، ولكنهم تهييوا صوته ومنظره . أما يوليان فانه كاد يذوب خجلا ، فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وأسرها اتبه وأجفل ، وكذلك ألفونس ، وقالوا بصوت واحد : « أين هي ؟ » ولم يستغربا اطلاعه على ذلك ولا استخفا بقوله لأنه لا يقول عبثا .. فلما سألاه عنها وجهه خطابه الى الفونس قائلا : « ضاعت خطيبتك منك وما أنت لها ، وقد ارتكبت ما لم يرتكبه رودريك لأنك خُنتَ بلدك وأهلك وأضعتهم جميعا .. فاذا كنت فعلت ذلك عقابا لرجل أراد أن يمس عرضك فما هو مقدار العقاب الذي تستحقه أنت وقد جعلت أعراض القوط وأموالهم وأرواحهم معرضة للسلب والقتل ؟ .. احكم على نفسك ! »

فلم يكن جواب ألفونس غير البكاء . وأما يوليان فانه أحس بتبكيه الضمير ولا سيما حين سمع بضياح ابنته وأراد أن يسأل عنها فتهيَّب وظل مطرقا

وكان طارق وبدر يسمعان كلام أوباس ويعجبان به ، وهما لا يفهمان ما يقوله .. فالتفت طارق الى الذين كانوا حوله ، يبحث عمّن يترجم له أقواله . فرأى سليمان التاجر فأدرك سليمان غرض طارق قبل أن يسأله فتقدم وفسّر له كلام أوباس وهو يتوقع أن يستاء منه . فاذا هو قد زاد إعجابا به وخاطب أوباس عن طريق سليمان قائلا : « بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل . انى لأعجب من فشل جند القوط وفيهم رجل حكيم

مثلك ، مع كثرتهم واستعدادهم »
فقال أوباس : « لا تعجب يا ولدى .. ان للدول آجالا كما
للناس ، فاذا جاء أجلها أخفقت الحيل في استبقائها . على أثنى
كنت أحسب أجل هذه الدولة أطول من ذلك ، فعجله ضعف
رأى الملك وفساد نيات أهل شوره . وهكذا أراد الله »

قال طارق : « فاذا كانت هذه ارادة المولى فلا يسوءك خروج
هذه الدولة من أيدي القوط ، فان دخولها في حوزة المسلمين من
أسباب سعادتها لأن أهلها يعيشون في ظلنا ندفع عنهم الأعداء
ونضمن لهم الأمن ولا نكلفهم عن ذلك الا جعلنا قليلا هو الجزية ،
فاذا أدوها بات كل منهم آمنا على عرضه وروحه وماله » .
قال ذلك وأمسك بيد أوباس ومشى به وهو يقول : « هلم بنا
الى القسطنطينية ريثما يفرغ القواد من تقسيم الغنائم » ..

فمشى أوباس ويوليان وألفونس وبدر ومعهم سليمان ويعقوب
حتى دخلوا الخيمة ، وكانت كبيرة فجلس طارق في صدرها ،
وجلس أوباس الى يمينه ويوليان وألفونس الى يساره وجلس
بدر في جانب من جوانب الخيمة ، وهو لا يزال يرتدى الثوب
الذى حارب به وعليه السيف والدرع . ولم يكذ يوليان يستقر
في مكانه ، حتى ذهب تهيئته من أوباس فعاد الى السؤال عن
فلورندا قائلاً : « سمعتك يا مولاي تقول ان فلورندا ذهبت
أسيرة ، فهل تعنى ذلك حقيقة ؟ » ..

قال : « ومتى كان أوباس يتكلم جزافا ؟ »

فزاد اهتمام يوليان واستغرابه وأراد الايضاح فسبقه الفونس قائلاً : « وكيف ذلك ؟ ومن أسرها ؟ .. »

فقال أوباس : « لا أعرف اسم الرجل ولكنني رأيته وأنا مسجون في الخيمة . رأيته من شق في تلك الخيمة وهي محلوقة الشعر تستنجد طيور السماء ودواب الأرض لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها اليه . فجاءها فارس عربي لكنه غير بربرى ، عليه عمامة بيضاء فأنقذها وتعقب رودريك لا أدري الى أين ، ولكنه أمر رجاله أن يحملوها فحملوها الى هذا المعسكر . ولا ريب في أنها أسيرة ، وهي ملك للذى أسرها »

فقال يوليان : « هل تعرف ذلك الرجل اذا رأيته ؟ .. يظهر انه أخذها اليه وأخفاها عن الأمير طارق لأنى لم أرها بين الأسرى » قال أوباس : « أظننى أعرفه .. انه يمتاز عن كل هذا الجند ببياض لونه وشقرة شعره »

فلما سمع يوليان ذلك اتجه فكره الى بدر ، فالتفت اليه وكان جالسا على بعد عدة خطوات من يوليان يسمع كلامه ولا يفهمه لأنه لا يعرف القوطية .. على انه لو فهم أن أسيرته ابنة يوليان لم يبال لأنه ظل حاقدا عليه منذ أن حرمه بنت الشيخ صاحب الكرم ليلة نزولهم سهل شريش . وكان يوليان خشن المعاشرة بسبب ما تسلط عليه من السويداء منذ بضعة عشر عاما لمصيبة ألت به فأذهبت صبره على مرارة الحياة وأصبح ضيق الخلق سريع الانفعال . فكان رفقاؤه لا يسرون بمعاشرته ولا سيما بدر لما بينهما

من الفارق في السن . فلما نظر يوليان اليه كان هو يتشاغل ببند سيفه يلعبه بين أنامله وفكره في فلورندا لأنه كان قد افقتن بجمالها . فلما رآه يوليان منشغلا عنه البتت الى طارق وأفهمه خلاصة حديثه مع أوباس وانه يظن بدرا هو الذي أسرها وطلب انيه أن يطلبها منه . فالتفت طارق الى بدر وناداه : « بدر .. » وكان بدر قد سمع كلام يوليان لطارق وفهم قصده ، فلما سمع طارق يناديه أجابه وهو لا يزال جالسا : « نعم .. » وكان طارق شديد التعلق ببدر يحبه ويدله ويعامله معاملة الأب لابنه أو الأخ الأكبر لأخيه الاصغر .. فلما رأى أنه أجابه بغير اكتراث ايتسم له وقال : « أراك لا تزال جالسا ، أظنك لم تسمع ندائي ؟ » ..

فقال ، وهو يلعب ببند سيفه : « سمعتك وأنجبتك »
فقال طارق : « قم اللى لأسألك سؤالا .. »

فوقف وقال : « وما سؤالك ؟ اسأل كل ما تريده واطلب ما شئت الا أسيرتى فانها لى ولا حاجة الى كثرة الكلام .. » قال ذلك وهو يصلح عمامته كأنه يستعد للنزال فضحك طارق حتى بانث نواجذه وقال : « لا أدري ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك فى شىء بعد . ألا سمعت قولنا ثم قلت ما تقوله ؟ » ..

قال بدر : « قل فانى سامع »
فقال طارق : « احك لنا كيف عثرت على هذه الأسيرة ؟ »

- ٧٩ -

الخصام

ققص عليهم بدر القصة باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك ، وكيف انه قتل الأب مرتين ثم غرق هو في التهر . وكان ألفونس وأوباس لا يفهمان ما يقول ، فتقاربا واستدعيا سليمان لترجم لهما . فلما وصل الى مقتل مرتين بيد رودريك قال أوباس في نفسه : « لم يكن يليق قتله بغير تلك اليد » .. ولما فرغ بدر من قصته قال له طارق : « لا شك انك استأثرت بهذه الأسيرة وأنت لا تعلم انها ابنة الكونت يوليان .. »

قال : « نعم .. انى لم آكن أعلم ذلك ولكن علمى لا يغير شيئا من عزمى » . قال ذلك وتحول يريد الرجوع الى مقعده فناداه طارق بصوت فيه الجذ وقال له : « كيف لا يتغير عزمك والكونت يوليان هو الذى أكسبنا هذا النصر ، ولولاه لم ندخل هذه البلاد ؟ أيليق بنا أن نسيء الى ابنته ووحيدته ؟ فارجعها اليه ولك ما شئت من أسرى هذه الجزيرة وغنائمها ... »

فقال : « لا أريد شيئا غير هذه . وهى غنيمتى فى الحرب وهو الذى منعى بالأمس غنيمتى الأولى لأنها لم تؤخذ فى أثناء القتال ، وهذه ؟ .. ألم أغنمها فى ساحة الوغى ؟ .. ألم أحارب ملك القوط من أجلها ؟ وقد قتلته وكان قتله سببا فى فشل جنده . أتستكثرون علقى فتاة أسرتها وقد تركت لكم نصيبى من سائر

الغنائم ؟ » ..

فقال طارق ، وهو لا يزال يرجو اقناعه : « اذا كنت تفعل ذلك مكيدة في الكونت يوليان للانتقام منه فانتقم من غير هذا السبيل . وأنت تعلم يا أخى أن عملك هذا يخالف حق الجوار والعرفان بالجميل .. ماذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت في هذا الفتح ، ثم قيل لهم اننا أخذنا ابنته أسيرة ؟ فارجع الى ما هو أجدر بك من كرم الخلق ، افعل ذلك اكراما لى وعملا بحقوق الأخوة »

وكان بدر شهما لا يرضى ارتكاب هذا العار ولكنه أحب الفتاة منذ رآها ، وزاد تعلقا بها لأنه تعب في انتقاذها . والمرء اذا تعب في سلامة شيء أحبه . فشق عليه التخلي عنها . فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال : « صدقت أيها الأمير ان اتخاذ هذه الفتاة أسيرة يعد غدرا وخيانة ولكننى أحببتها ولا يمكننى التنازل عنها ، فليزوجنى الكونت يوليان اياها بسنة الله .. فهل له بعد ذلك عذر ؟ » ..

فالتفت طارق الى يوليان كأنه يستطلع رأيه فقال يوليان : « ان الفتاة مخطوبة وهذا خطيبها » وأشار الى ألفونس فقال بدر : « لا يهمنى .. فان الخطبة يسهل حلها .. » فحمى غضب يوليان لهذا الجدل وضاق صدره فقال : « لقد أطلت الكلام بلا طائل ، ان ابنتى مخطوبة وهذا خطيبها . وهب انها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها ، والسلام »

فوثب بدر ويده على قيضة حسامه وقال : « انها أسيرتى فى مساحة الوغى أخذتها بحد هذا السيف فلا أتخلى عنها لأحد ولو كان أمير المؤمنين ، الا أن يأخذها منى بالسيف كما أخذتها » وكان سليمان يترجم لألفونس وأوباس كل ما يدور من الجدل ، فلما بلغ الى طلب المبارزة وقف ألفونس ويده على قبضة سيفه وقال : « أنا أولى الناس بمنازلة هذا الشاب وكلانا طالب فأثنا غلب فهمى له .. »

فوقف يوليان وأمسك ألفونس وهو يقول : « بل أنا أولى بذلك منك فاذا قتلت هذا الغلام فقد أنلته الجزاء الذى يستحقه ، وان قتلنى فموتى خير من وقوعى فى مصيبة ثانية شر من مصيبتى الأولى ، ولا طاقة لى على احتمال الاثنين معا » قال ذلك وتقدم ويده على قبضة حسامه فسبقه بدر واستل الحسام ، فناداه طارق فلم يصغ ونادى أوباس يوليان فلم يطعه لأنهما خرجا من طور التعقل لشدة الغضب ، وأقسم كل منهما أنه لن يرجع حتى يقتل صاحبه أو يقتل هو .. فعلا الضجيج فى الخيمة ويعقوب وسليمان فى ناحية منها يتساران

وبدأ بدر فأطلق حسامه على يوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتله — لا محالة — ولكن السيف غاص فى العمود ووقف فيه وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع اخراج السيف من العمود ، فاغتتم يوليان انشغاله بذلك وانقض عليه للفصل بينهما بالقوة ، فرأى سليمان التاجر قد سبقه وتوسط

بينهما وأمسك زرد يوليان وهو يقول : « تمهل يا كونت بحياة طوماس »

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الاسم حتى رمى يوليان السيف من يده واستلقى على الأرض وأخذ في البكاء ، فبغت الجميع حتى بدر ، والتفتوا الى سليمان كأنهم يسألون عن السبب ، فأشار اليهم أن يتمهلوا فوققوا جميعا .. وتقدم سليمان الى يوليانه وأمسكه بيده وجعل يخفف عنه وهو منخرط في البكاء . ثم التفت الى سليمان وقال : « لماذا ذكرتني بهذه المصيبة يا سليمان ؟ » ..

فقال : « هل كنت ناسيا اياها ؟ »

فقال يوليان : « كلا ، ولكنني لم أسمع هذا اللفظ منذ أعوام ولو لم تحلّفتني به لكنت قضيت على هذا الغلام وخلصت الناس من وقاحته » ..

فقال سليمان : « لو عرفته ما تمنيت التخلص منه »

قال يوليان : « وماذا يهمني من معرفته ؟ يكفي للدلالة على أصله ما ظهر الآن من وقاحته وحماقته » ..

قال : « لا تبالغ في شتمه وانظر الى وجهه وتفرس فيه ، فانك تذكر به حبيبا تحبه وتتوهم أنك فقدته وهو حي بين يديك »

كشف السر الأخير

قلم يفهم يوليان مغزى تلك الاشارة وكان قد جلس وتحول غضبه الى حزن ، ولا يزال أوباس وطارق وألفونس واقفين وقد علتهم البغته مما شاهدوه ، وهم ينتظرون ما يقوله سليمان .. فلما سمع يوليان اشارته تنبه وتفرس في سليمان ليرى هل يقول الجد أو الهزل ، فرأى الجد باديا في كل جارحة من جوارحه ، وقبل أن يقول كلمة نهض سليمان والتفت الى الحاضرين وأشار اليهم أن يجلسوا ليسمعوا حديثا يريد أن يقصه عليهم ، فجلسوا الا بدرا فانه اغتنم فرصة اشتغالهم وخرج لاستبدال سيفه استعدادا لمنازلة يوليان ثانية ... أما سليمان فجلس وقال : « اسمعوا فأقص عليكم سرا حفظته منذ أعوام وفيه موعظة وحكمة » وأخذ يقص قصته بالقوطية ويترجمها الى العربية . قال وقد وجّه خطابه أولا الى أوباس :

« لا يخفى على مولاي الميتروبوليت ما قاساه اليهود في اسبانيا من ظلم حكاهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى أجبروهم أخيرا على النصرانية أو الرحيل من بلادهم (١) . فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقي في البلاد يسعى في افساد أمرها على الحكومة ، ولا أخفى عليكم اني

واحد من هؤلاء المتنصرين ، وقد قضيت مع الكونت يوليان أعواما وهو يحسبني نصرانيا والحقيقة اني لا أزال على دين آبائي وأجدادى . وأظن مولاي الميتروبوليت يعلم أن يعقوب (وأشار اليه) حبر من أحبار اليهود ومن كبار أغنيائهم ، وقد تظاهر بالنصرانية وأدخل نفسه فى خدمة البلاط الملكى من أيام المرحوم غيطشة وسعى لديه فى رفع الضغط عن اليهود وكاد ينجح لو لم يحل دون ذلك انتهاء أجل غيطشة . فلما تولى رودريك عاد الضغط الى ما كان عليه ، ونحن نعقد الجمعيات السرية ونبذل الأموال فى مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم أركانها .. ولم نكن ندخر وسعا فى معاكستها ومعاكسة رجالها من الكونتات أو القواد أو غيرهم . ولكننا لم نكن نستطيع ذلك جهارا فكنا نفعله سرا - والآن وصلنا الى جوهر القصة - وأتيح لى بعد تظاهرى بالنصرانية الرحلة الى الآفاق فنزلت سبعة منذ بضعة عشر عاما وتقربت من حضرة الكونت وبذلت ما فى وسعى لاكتساب ثقته ففزت بذلك وصرت أتردد الى منزله كواحد من أهله . وكان له ولدان ، أحدهما أنثى وهى فلورندا ، والثانى ذكر كان اسمه طوماس . واتفق فى أثناء ذلك أن جددت الحكومة اضطهاد اليهود ، وأتتنا التعليمات السرية أن ننتقم لهم بأية وسيلة كانت . فتها لى أن أحرم الكونت أعز ولديه وهو الصبى ، ولم تسمح نفسى بقتله فاحتلت فى سرقة وحمله معى فى أثناء أسفارى الى بعض قبائل البربر ، وبعته لأحد كهنتهم الوثنيين (ماربوط) بثمان

زهيد ، ولم أقل له من أين أتيت به فاشتراه ثم سلمه الى زياد
والد الأمير طارق فرباه مع أولاده . فشب الغلام لا يعرف والده
ولا أحد يعرفه سوى وسمثوه بدرا لبياضه .. وهو هذا الشاب
الذى كان بين يديكم . وبما أن الكونت يوليان قد انقلب على
حكومة القوط الآن ونصر أعداءهم حتى أصبح من أنصارنا
فلذلك وجب علينا كشف هذا السر له »

وكان سليمان يتكلم وهم يتناولون بأعناقهم ولا سيما يوليان
فقد حسب نفسه فى حلم ، وكان وهو يسمع الحديث يبحث
ببصره عن بدر فى جوانب الخيمة وقلبه يخفق . وكانت الشمس
قد غابت وأظلمت الخيمة ، وأحس طارق من تلك الساعة كأن
غشاوة أزيحت عن عينيه اذ عرف أصل هذا الغلام والتفت ونادى :
« بدر » .. فلم يجبه أحد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد
استبدل سيفه ..

فلما رآه يوليان وثب وهو لا يدرى ماذا يقول ، ونادى :
« طوماس ، طوماس » وهرع نحوه . فلما رآه بدر مسرعا اليه
نراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهيم أن يضربه أو يتلقى ضربة
به . فوقف سليمان وقال : « تعال يا بدر وقبّل يد الكونت
وهو يقبّلك فانه أبوك »

فبغت بدر واتخذ الكلام هزءا حتى تقدم اليه طارق وقال له :
« نحمد الله .. انك وجدت أباك وقد كنا منذ عرفناك ونحن
نتساءل عنه » ..

فنظر بدر الى طارق وهو يقول : « الكونت يوليان أبى ،
وفلورندا أختي ؟ من أين أتت هذه القرابة ؟ »
وكان يوليان فى أثناء ذلك واقفا أمام بدر وهو يتفرس فيه
على نور الشفق ، ثم جاءوا بمصباح تناوله يوليان بيده وجعل
يتفرس فى بدر ، ويتأمل ملامحه ومعانى وجهه ، فتذكر بعد
قليل أن تلك الصورة شبا فى ذهنه فتار الحنان فى قلبه فأكب
على بدر وضمته الى صدره وجعل يقبله ويتنشق ريحه ويبكى
بكاء الفرح ، والناس وقوف وما فيهم الا من تحركت عواطفه
لذلك المنظر الغريب . ولم يتحقق بدر انه فى يقظة الا بعد قليل ،
فقبّل يد والده ووقف كأنه أصيب بالجمود

مضت دقائق قليلة وأهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب
ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده ، والفضل فى ذلك
لسليمان ، ثم التفت أوباس وهو لا يزال الى ذلك الحين مكشوف
الرأس محلول الشعر كما جاء ، وقال لطارق : « يأمر الأمير طارق
— حفظه الله — أن تأتى ابنتنا فلورندا الى هنا ليتم التعارف »
فقال طارق : « وأين هى فلورندا يا بدر ؟ »

قال : « هى فى خيمتى » فأمر سليمان أن يأتى بها
وكانت فلورندا بعد أن جاءت تلك الخيمة قد أصلحت من
نفسها وهى تتوقع أن يأخذوها الى أبيها فلما أبطأوا طلبت من
الحراس ذلك ، فلم يفهموا ما تريد ، على أنهم أفهموها بالاشارات

انها لن تبرح تلك الخيمة فمكثت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان ، فلما رآته استأنست به وهشّت له وقالت : « أين والدى ؟.. أين الفونس ؟ »

فضحك وقال : « ان والدك مشتاق الى رؤيتك وسترينه قريباً ، وأما الفونس فلا أرب لك فيه بعد الآن لأن الفارس العربى الذى أنقذك من يدى رودريك لم يقبل الا أن تكونى له عروسا .. »

فبغت وقالت : « وهل قبل والدى ذلك ؟ »

قال : « وماذا يفعل ؟.. »

قالت : « وألفونس ماذا فعل ؟.. لا أقبل أحدا غيره الا .. يظهر يا سليمان انك تمزح ؟.. »

قال : « تعالى وانظرى منزلة ذلك الشاب من أهلك .. »

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى أقبلوا على خيمة طارق ، فدخل سليمان وأشار اليهم أن لا يتكلموا ، فدخلت فلورندا والبغته تغلب فرحها بقاء والدها ، فسبقها سليمان الى بدر وأخذه بيده وجاء به اليها وقال له : « قبّل فلورندا يا بدر .. »

فأجفلت هى وتراجعت فصاح بها أبوها : « قبّليه يا فلورندا » فلما سمعت ذلك وتحققت أن أباهأ أرادها لها زوجا حوّلت وجهها عنه وأخذت فى البكاء وهى تقول : « لا .. لا حاجة لى بذلك .. »

فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته يمينه فقبّلت يده وقبّلتها
ثم ضم بدرا بيساره وقبّله وقال : « قبّليه يا فلورندا انه أخوك
طوماس الذى فقدناه منذ بضعة عشر عاما .. »

وكانت فلورندا تسمع وهى طفلة أنه كان لها أخ وفقد ،
وقد قطعوا الأمل فى حياته . فلما قال لها أبوها ذلك تفرست
فى بدر وهى لا تعرف صورته ، وما زال الحجل يمنعها من تقبيله
حتى نهض أوباس ونادى : « فلورندا » فأجفلت لأنها لم تكن
تتوقع أن تسمع صوته هناك ، والتفتت ، فلما رآته هرولت اليه
وأكبت على يده فقبّلتها والعبرات تتسابق الى عينيها وهى لا تعلم
ماذا تقول ..

أما هو فباركها وقال : « نحمد الله على سلامتك وعلى وجود
أخيك بعد أن قطع الأمل من لقائه ، ونحمده على التقائك
بألفونس ونجاتك من الشراك »

فتصدى ألفونس وقال : « ان نجاتها يا عماه يرجع الفضل
فيها اليك وحدك فانك بركتنا ونعمة من الله لنا » .. واختنق
صوته ..

فتنهّد أوباس وقال : « ليتنى استطعت تحقيق ما أتمناه . ولكننى
لو استطعته ما التقى بدر بأبيه وأخته ، ولا التقيت أنت
بخطيبتك . المرء يسعى فى سبيل والله يدبر من سبل أخرى . هذه
إرادة الله فما علينا الا أن نشكر الله على ما حدث » ..

وكانت الحالة العجوز واقفة فلما قيل لها انهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته الى صدرها وقبلته وتنشقت رائحته حتى تضايق هو ، وسلمت على يوليان وألفونس ، ثم تناولت يد أوباس فقبلتها وقالت له : « بقى علينا أمر لا يتم سرورنا الا به . ولا يقدر عليه سواك »

قال : « أظنك تعنين زفاف فلورندا الى ألفونس وهذا واجب علّى لأنى واضع عربون الخطبة فأمهلىنى الى مساء الغد » فلم تستطع الاعتراض

ثم وقف طارق وقال : « يسرنى أن يتم لكم هذا الاجتماع فى يوم نصرنا الله فيه ، وأنتم منذ الآن فى ذمتى فتقيمون حيثما تشاءون آمنين مطمئنين مكرمين ، أنتم ومن يلوذ بكم » وقضوا برهة يتحادثون فى شئون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عيني ألفونس ، ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفى . حتى اذا انقضى هزيع من الليل ، قال يوليان : « هلم بنا ننصرف الى مضاجعنا فاننا نحتاج الى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء فى أثناء النهار » قال ذلك وخرج فتبعه أوباس وألفونس وفلورندا وبدر ، ودل يوليان كلا على مكان ينام فيه . وتذكر ألفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم ، فظنه ذهب لينام فى احدى الخيام

- ٨١ -

تمام الفتح

باتوا تلك الليلة ولا نظنهم استطاعوا نوما لفرط تأثرهم من ذلك اللقاء الغريب ، ولما أصبحوا أحب أوباس أن يشرف على تلك الموقعة ثم يمر بين المعسكرين ليعلم من مات من كبار الدولة ومن هرب ، فمشى ورافقه يوليان وبدر وألفونس فرأوا الجثث مبعثرة هنا وهناك وعرفوا من القتلى جماعة من القواد في جملتهم كوميس فأسفوا عليه أسفا شديدا . ثم مروا بخيمة الملك فرأوا بالقرب منها الأب مرتين مجندلا فلم يشأ أوباس أن يتفرس فيه ، ولما عادوا من ذلك الطواف طلب أوباس من طارق أن يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها

فأجابه الى طلبه ، فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلوا عليها ودفنوها . فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت الى أوباس وأخبرته بمقتل أجيلا وشاتتيلا وطلبت اليه أن يصلى عليهما ويدفنهما ، فأجابها الى ما طلبت وقد أسف لمقتلهما فدفنهما ودفن معهما من قتل من أولاد الشيخ صاحب الكرم ، ولما أخبرته بما كان من دفاع الشيخ وأولاده عنها أوصى طارقا به وبأهله خيرا ولما غربت الشمس تهيأ ألفونس لعقد اكليله على فلورندا في خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على أبسط الطقوس ، وقلوب الجميع تفيض سرورا لذلك اللقاء ووجوههم تبسم الا أوباس

فانه ظل ساكنا كماداته لم يتغلب عليه فرح ولا حزن ، وبعد تمام الاكليل سألهم أوباس عن المكان الذى يفضلون الإقامة فيه فقالوا : « حيثما تريد أنت »

فقال : « أما أنا فاتركونى وشأى »

فقالوا : « كيف تتركك وأنت حكيمنا ومرشدنا ؟ »

قال : « لو كنت كذلك لنفعتكم . اتركونى أقضى بقية هذه الحياة فى العبادة والصلاة والاتقطاع عن هذا العالم ، فقد رأيت من شروره ما كفانى .. وهل أتوقع أن أرى بعد هذه الموقعة غير ما يزيد أسفى ويضاعف حزنى وأنا لا أستطيع العمل بما يدعونى اليه ضميرى ويستحثنى عليه الواجب ؟ فالأجدر بى أن أقضى بقية هذه الحياة فى مكان لا أرى فيه بشرا . ولا يراجعنى أحد منكم فى ذلك » ..

فلم يستطع أحد أن يراجعه سوى رجل تصدق له من جملة الحضور وقال : « وأنا أين أذهب ؟ »

فتوهم ألفونس انه يسمع صوت يعقوب ولكن الزى غير الزى .. أما أوباس فعرفه فقال : « هذا يعقوب قد وقى بنذره وأصلح لحيته واغتسل »

فتذكر ألفونس شيئا من ذلك منذ اجتمع بعمه فى طليطلة فنظر الى يعقوب فاذا هو حسن الهندام وقد أصلح لحيته وتزيا بزي حاخامى اليهود تماما ، فقال له : « وما ذلك يا يعقوب ؟ »
قال : « قد آن لى الوفاء بالنذر والتحرر من ربة الذل ، اذ

أصبح الناس بعد هذا الفتح أحرارا يتبع كل رجل دينه . وأنا
من نعم الله يهودى جنسا ودينا فأحب الرجوع الى مذهبي فأصلى
في كنيسة وأقرأ كتابي »

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا لم يجدوا أوباس في خيمته
ولا في سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك الحين .. فعلموا انه
ذهب للتنسك كما قال

وأما الفونس ويوليان فظلا عونا لطارق وجنده حتى أتم فتح
الأندلس .. وقلما لاقى مشقة بعد تلك الموقعة الا في استجة فانهم
ساروا اليها توا بعد موقعة شريش وحاربوا هناك حربا شديدة .
فلما فتحوها وقع الرعب في قلوب الناس وهربوا الى طليطلة
فأشار يوليان على طارق أن يفرق جيوشه في مدن الأندلس لأن
الناس أدخلوها وساروا الى العاصمة ، فبعث جيشا الى قرطبة
وجيشا الى غرناطة وجيشا الى مالقة وجيشا الى تدمير ، وسار
هو ومعظم الجيش الى طليطلة فوجدوها خالية لأن أهلها هاجروا
الى مدينة خلف الجبل . أما الجيش الذى سار الى قرطبة فقد
دلّهم راع على ثغرة فدخلوا منها البلد وملكوه . والذين قصدوا
تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدن . أما طارق فلما
رأى طليطلة فارغة ضم اليها اليهود وترك معهم رجالا من أصحابه
وسار لاتمام الفتح كما هو مفصل في كتب التاريخ (١)

(١) ابن الأثير - الجزء الرابع ، وفتح الطيب - الجزء الاول